

المكتبة
أمينت بيطار

تاريخ

العصر اللّادبوبي

حقوق التأليف والطبع والنشر محفوظة لجامعة دمشق

١٤٠١ - ١٤٠٢ هـ

١٩٨١ - ١٩٨٢ م

دار الطباعة الحديثة - دمشق

المكتبة
أمينت بيطار

تاريخ

العصر اللّووبي

حقوق التأليف والطبع والنشر محفوظة لجامعة دمشق

١٤٠١ - ١٤٠٢ هـ

١٩٨١ - ١٩٨٢ م

دار الطباعة الحديثة - دمشق



المقدمة

يعتبر تاريخ الأيوبيين من التواريخ الهامة بالنسبة للعالمين العربي والإسلامي ، فقد واجهت هذه الدولة منذ تأسيسها الحركة الصليبية في أوجها . إذ كان الصليبيون قد استقروا في بلاد الشام ، وأسسوا إماراتهم التي امتدت على طول الساحل الشامي ، وما لبث هؤلاء أن قرروا احتلال مصر لتثبيت نفوذهم في الشام ، وأخذت حملاتهم البحرية تطرق سواحل مصر وتهددتها . وكثيرا ما رافقت هذه الحملات البحرية زحف الجيوش البرية عبر فلسطين الى سيناء فنصر

وقع عبء قتال الصليبيين والقضاء على هجماتهم الشرسة في كثر من الأحيان على عاتق الأيوبيين . وقد نهض صلاح الدين الأيوبي مؤسس هذه الدولة بواجبه على خير ما يرام . وتمكن من استرداد مناطق واسعة في بلاد الشام بوقلص نفوذ إمارته انطاكية الى حدود كبير . وكذلك فعل في إمارة طرابلس . وتمكن من القضاء النهائي تقريبا على إمارة بيت المقدس ، التي حرمت من مركزها الأول في مدينة القدس ، ورضيت بمدينة عكا كمركز لها ، بعد أن عجزت جيوش الصليبيين من احتلال بيت المقدس ثانية . فأصبحت الإمارة لا تتناسب مع اسمها .

وجاء خلفاء صلاح الدين بعده ، فلم يستطيعوا ان يحملوا الأمانة كما يجب ، وأخذ بعضهم يستنجد بالصليبيين ضد أقربائه في سبيل تحقيق منافع شخصية . ووقع العداء والافتتال بينهم ، فكان بأسهم بينهم شديدا . مما مّد في عمال احتلال الصليبي لسواحل الشام فترة أخرى ، حتى كان عهد المماليك الذين تمكنوا من القضاء النهائي على الصليبيين .

لم يكن الجهاد المقدس هو أهم ما يميز تاريخ الأيوبيين . فقد برزت جهودهم في مجال التعليم وفتح المدارس المتعددة التي عمرت بها بلاد الشام ومصر . فساعات على تكوين طبقة متعلمة ضمنت بين جوانحها الرجال والنساء ، وتقدمت العلوم الدينية والتاريخية

وغيرها من دون العلوم العقلية والفلسفية • وأصبحت مدن الشام ومصر
حيث امتدت الدولة الأيوبية منطقة تعج بالمدارس على اختلاف
أنواعها •

كما امتازت هذه الفترة بتوطد الجيش الاقطاعي ، الذي ظهرت
خدماته في الحروب التي خاضها صلاح الدين بالدرجة الأولى ومع
خلفائه بالدرجة الثانية • كما امتازت بنشاط البحرية ودعمها للجيش
البرية ، وإن كان الجيش البحري قد فقد نشاطه وأهميته في نهاية
هذا العصر • ويضاف الى ذلك أهمية هذه الفترة من الناحية الفنية
والعمرانية ، وما امتازت به من مميزات اجتماعية انفردت بها •

وبذلك يمكن القول أن هذه الفترة غنية بمادتها العلمية ، عسكرية
واستراتيجية وعمرانية وتعليمية • ويحتاج المؤلف والمؤرخ اذا اراد
التفصيل في ذلك الى مجلدات كثيرة • وعلى الرغم من ذلك فأنني لم
أستطع أن أتجاوز عدد الصفحات المخصصة لتدريس هذه المادة ،
والتي خصص لها ساعة دراسية اسبوعية واحدة ، ذلك ان الموضوع جزئ
من مادة تاريخ الأيوبيين والمماليك التي خصص لها ثلاث ساعات دراسية
وزعت بين جزئي المادة • فكان نصيب تاريخ الأيوبيين الحافل
بالأحداث ساعة واحدة • وقد فرض علي ذلك اختصار المسادة
لتناسب مع الوقت المخصص لها • وجهدت على أن لا يكون هذا
الاختصار مخلًا بالمادة العلمية • فحاولت قدر جهدي رسم الخطوط
العريضة لأهم الأحداث بما يتفق مع مفردات منهاج المقرر • وقد
استخدمت من أجل ذلك أهم المصادر والمراجع العامة والمتخصصة
المتوفرة •

وبعد فاني أرجو أن أكون قد وفقت بما بذلت من جهد لإخراج
هذا البحث على وجه مرض • وان كان فيه ما يقصر عن الهدف ، فأرجو
أن يكون في محاولاتي القادمة ما يعوضه ، والله ولي التوفيق •

د • أمينة البيطار

مفردات مقرر تاريخ العصر الأيوبي

- ١ - الأوضاع العامة للخلافتين العباسية والفاطمية قبيل ظهور الدولة الأيوبية .
- ٢ - الحملة الصليبية الأولى وتأسيس الإمارات الأربع .
- ٣ - الزنكيون وتوحيد مصر والشام .
- ٤ - موقف الزنكيين من الصليبيين .
- ٥ - دور الزنكيين في تاريخ بلاد الشام والتاريخ العربي الاسلامي .
- ٦ - الأيوبيون أصلهم قيام السلطنة الأيوبية ، علاقتهم بالزنكيين .
- ٧ - توحيد مصر والشام على يد صلاح الدين .
- ٨ - صلاح الدين والمعارك الكبرى مع الصليبيين .
- ٩ - الفكة بعد النصر والحملة الصليبية الثالثة .
- ١٠ - خلفاء صلاح الدين ٥٨٩ - ٥٦٣هـ / ١١٩٣ - ١٢٣٨م .
- ١١ - ضعف موقف الأيوبيين أمام الصليبيين .
- ١٢ - قيام سلطنة المماليك وموقف الأيوبيين منها .
- ١٣ - دور الأيوبيين الحضاري في تاريخ بلاد الشام ومصر والتاريخ العربي الاسلامي .

الفصل الأول

الحملة الصليبية الأولى، وتأسيس الإمارات الأربع

تمهيد : الأوضاع العامة في العالم العربي الاسلامي، قبل وصول الحملة الصليبية الأولى

- ١ - الخلافة العباسية
- ٢ - السلاجقة
- ٣ - تزوق بلاد الشام بين السلاجقة والفاطميين
- ٤ - الخلافة الفاطمية
- ٥ - الأوضاع العامة في آسية الصغرى

طابع الحملات الصليبية وأسبابها :

الحملة الصليبية الأولى

- ١ - بنية الحملة
- ٢ - تأسيس الإمارات الأربع
 - أ - إمارة الرها (٤٩١ - ٥٣٩ هـ)
 - ب - إمارة انطاكية (٤٩١ - ٦٦٦ هـ)
 - ج - إمارة بيت المقدس (٤٩٣ - ٥٨٣ هـ)
 - د - إمارة طرابلس (٥٠٣ - ٦٨٨ هـ)

الفصل الأول

الحملة الصليبية الأولى ، وتأسيس الإمارات الأربع

تمهيد : الأوضاع العامة في العالم العربي الاسلامي قبل الحملة
الصليبية الأولى .

كانت اراضي الخلافة العربية الاسلامية في نهاية القرن الخامس ومطلع
القرن السادس الهجريين تخضع لقوى متعددة متنافرة ، وقسح بينها
الخلافة ، وعملت كل منها على التوسع على حساب الأخرى ، وعلى رأس
هذه القوى :

١ - الخلافة العباسية

وكان خلفاؤها قد قبعوا في مدينة بغداد ، ورضوا من الحكم بالاسم
بعد ان خرجت عن سلطتهم غالبية اراضي الخلافة العربية الاسلامية . ولم
يعد يتبع لهم الا بغداد وما يحيط بها . والأمر والقول الفصل حتى نسي
هذه البقعة - للسلاجقة سلاطين بغداد .

٢ - السلاجقة

وقد توسعت سلطتهم تدريجيا حتى شملت أغلب مناطق الخلافة
العباسية الشرقية ، ونهضوا في عهد سلاطينهم طغرل بك ، وألب
أرسلان ، وملك شاه بحماية أراضي الخلافة العربية الاسلامية ، وأثبتوا
أنهم سيوف الاسلام الزائدين عنه . فقد نهضوا للوقوف في وجه
البيزنطيين ، وتوسعوا غربا على حسابهم . وتوج ألب أرسلان فضاله مع

البيزنطيين بمعركة منازكرد (١) ، تلك المعركة التي كانت آثارها كبيرة على الصعيد المحلي والدولي . فعلى صعيد المنطقة فانها فتحت ابواب آسية الصغرى أمام السلاجقة ، ودحرقت القوات البيزنطية باتجاه الغرب ، وفسحت الفرصة للسلاجقة بتأسيس دولة سلاجقة الروم .

وعلى الصعيد الآخر ، فان هذه المعركة كانت سببا من اسباب توحيد اوربا الشرقية والغربية ضد المشرق العربي الاسلامي ، اثر استنجد اباطرة القسطنطينية بالبابوية لرد خطر السلاجقة الذين اخذوا في اجتياح ممتلكاتهم .

ولم تستمر قوة السلاجقة بالصعود ، فقد أخذت قوتهم بالانحلال اثر وفاة ملك شاه سنة ١٠٩٢/٥٤٨٥ - ١٠٩٢م ، وانقسموا على انفسهم ، ووقعت الحروب بينهم . وقد تجلى ذلك بوضوح في الصراع الحاد على العرش بين ابنا ملك شاه واخيه تثن صاحب دمشق . وأسفر هذا الصراع

-
- ١ - عن معركة منازكرد انظر : ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، دار صادر للطباعة والنشر بيروت ١٩٦٦م ، جزء ١٠ ، ص ٦٥-٦٨
 - الرواندي : راحة الصدور واية السرور ، نشر وتصحيح محمد اقبال ، طبع ليدن ١٩٢١م ص ١٦٨ وما بعدها .
 - اسد رستم : الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ، دار المكشوف بيروت ، ١٩٥٦م ، جزء ٢ ، ص ١١٠-١١١ .
 - زكار : مدخل الي تاريخ الحروب الصليبية ، مؤسسة الرسالة ط ١ ، ١٩٧٢م ، ص ١٣٨ وما بعدها .
 - طشور : اوربا في العصور الوسطى التاريخ السياسي ، مكتبة الانجلو المصرية ، ط ١ ، ١٩٧٥ ، جزء ١ ، ص ٣٤٦ وما بعدها .
 - الحركة الصليبية : مكتبة الانجلو المصرية ، ط ٢ ، ١٩٧١م ، جزء ١ ، ص ٨٨ وما بعدها .
 - رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية : نشر وتوزيع دار الثقافة بيروت ١٩٦٧م ، ص ٩٦ وما بعدها .

الذي دام ما يزيد عن سنتين عن انتصار بركياروق بن ملك شاه وتسلمه لعرش السلطنة السلجوقية (١) . واذا كان النزاع حول العرش قد انتهى ، فان اثاره لم تنته . فقد ذهبت وحدة السلاجقة وتماسكهم ، واصبحوا شعبا وأحزابا ومعسكرات متباينة تتصارع فيما بينها . وانقسمت دولتهم الى خمس ممالك متنازعة ، مملكة خراسان وما وراء النهر وعلى رأسها سنجر ، ومملكة حلب وعلى رأسها رضوان بن تتش . ومملكة دمشق وعلى رأسها دقاق بن تتش . وأخيرا سلطنة سلاجقة الروم وعلى رأسها قلق أرسلان بن سليمان بن قتلش (٢) . وفقد السلاجقة بذلك حماسهم المتدفق للتوسع الخارجي ، ومحاولة بسط نفوذهم على أقاليم جديدة ، وصار باسهم بينهم شديدا ، فبدأوا يتناحرون ، واصبح الظفر بالعرش هدفا في ذاته ، وقلدهم وزراءهم وقوادهم فتناحروا وتناحروا للظفر بالوزارة او القيادة . فاخذت الدولة السلجوقية تضعف منذ ذلك الحين ، واخذ نجمها يفسد بريقه حتى أفل في النهاية (٣) .

وقد استغلت القوى المحيطة تحطيم قوة البيت السلجوقي بانقسامه على نفسه لصالحها . فعمل الخليفة العباسي في بغداد على تحرير نفسه من سيطرة السلاجقة ، كما استقلت قبيلة بني مزيد العربية عنهم ، وأسست امارة بنسي

١ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٢١٤

- الراوندي : المصدر السابق ، ص ١٤٢ - ١٤٣

٢ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٢٦٥ او ص ٢٦٧ - ٢٦٩

- سعيد عبدالفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، جزء ١ ، ص ١١٣ - ١١٤

٣ - عبدالنعيم حسنين : سلاجقة ايران والعراق ، مكتبة النهضة المصرية

١٩٥٩ م ، ص ٩٠

مزيد في الحلة (١) . واخذت قوة السلاجقة في الشام تنحسر سريعاً للخلاف بين ولدي تتش ، رضوان صاحب حلب (٤٨٨-٥٠٧/ ١٠٩٥ - ١١١٣ م) ، ودقاق صاحب دمشق (٤٨٨-٥٠٨/ ١٠٩٥- ١١١٤ م) . ان اراد كل منهما ان يستأثر بملك أبيه وجاهه ، وعمل على ضم الانصار اليه لقتال أخيه . فتحالف رضوان مع قبيلة كلاب العربية ، ومع صاحب مدينته سروج سكان الارتقي ، وتحالف دقاق مع الغازي الارتقي وصاحب انطاكية الذي ما لبث ان تحول الى جانب رضوان . وجرت الاستعدادات لمهاجمة دمشق . وبينما الحال على ذلك ، جاءت الانبياء بقدم الصليبيين ، فتفرق المتنازعون ، وتوجه كل منهم الى امارته لحمايتها من الصليبيين (٢) .

ولعل اكبر مظهر لانحلال سلطان السلاجقة في بلاد الشام والعراق وغيرها ، ظهور عدد كبير من البيوت الحاكمة لا تجمعها رابطة الا الاتصال بالبيت السلجوقي . ومن تلك البيوت ظهرت وحدات سياسية اطلق عليها اسم الأتابكيات ، وعلى اصحابها اسم الأتابكة (٣) . وبعض هذه الوحدات صغير جدا لا يتعدى اسوار مدينة او قلعة واحدة . وقد تعاضد وراثا تاباتك لانهم عدة كل سلطان او مدع للسلطة ، واساس قوته في صراعه مع الآخرين .

١ - قامت دولة بني مزيد الشيعية على الضفة الغربية لنهر الفرات من هيت الى الكوفة وواسط . وصارت هذه الامارة خطرا هدد الأتراك السلاجقة وحال دون استمرار سيطرتهم في مناطق واسعة من العراق . انظر عاشور : الحركة الصليبية ، جزء ١ ، ص ١١٤-١١٥ . بيطار : موقف أمراء العرب في الشام والعراق من الفاطميين حتى اواخر القرن الخامس الهجري ، ط دار دمشق ١٩٨٠ ، ص ٣٥٧ وما بعدها .

٢ - الباز العربي : مصرفي عصر الايوبيين ، مطبعة الكيلاني الصغير ١٩٦٠ م ، ص ٥١ .

٣ - الأتابك لفظ تركي مكون من انا اي بال عربي ، وياك اي الامير . ومعنى ذلك انه مير الامراء الملك . فكان السلجوقي اذا امتاز احد قادتهم واراد تشريفه اضفوا عليه هذا اللقب امعانا في تكريمه : انظر عاشور : الحركة الصليبية جزء ١ ، ص ١١٥-١١٦ . وقد ورد في كتاب صبح الاشب للقلقشندي الطبعة الاميرية ، جزء ٤ ، ص ١٨ ، ان اتابك مغناه الوالد الامير .

فلم يلبثوا ان عملوا لمصلحتهم الخاصة تحت ستار الحفاظ على مصلحة الامير السلجوقي الذي يربونه والدفاع عن حقوقه في حكم بلد او سلطنة . وعندما يتحقق لهم ذلك يمارسون الحكم الفعلي باسمه ، ثم يحلون محله رسميا وورثون الحكم لابنائهم . ومن اظهر تلك الاتابيكيات اتابكية دمشق ومؤسسها ظهير الدين طغتكين والتي استمرت من سنة ٤٩٨هـ - ٥٤٩هـ / ١١٠٤م - ١١٥٤م . واتابكية الموصل برعامة عماد الدين زنكي ، والتي استمرت من سنة (٥٢١هـ الى سنة ٦٦١هـ / ١١٢٧م - ١٢٦٢م) . وقد امتد نفوذ هذه الاتابكية من شمال العراق الى شمال الشام . وكان في نية عماد الدين زنكي ضم اتابكية دمشق الى املاكه . الا انه ما لبث ان قتل فجأة سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م بعد سنتين من استيلائه على امارة الرها من الصليبيين . وقد تحقق حلمه على يد ابنه نورالدين زنكي (١) الذي حمل الامة واستولى على دمشق سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م - ١١٥٥م ، ومن ثم اخذ يتطلع الى مصر لتوحيدها مع بلاد الشام ، ولينهض بهذه الجبهة الموحدة لمهاجمة الصليبيين وتحرير بلاد الشام منهم .

٣ - تمزق بلاد الشام بين السلاجقة والفاطميين

عاشت بلاد الشام اثر دخول دولة السلاجقة مرحلة الضعف والتجزئة ، فترة مظلمة من حياتها . واصبحت موزعة بين قوى متعددة . ومما زاد التمزق ان السلاجقة حتى في ايام قوتهم لم يحكموا اكثر بلاد الشام حكما مباشرا ، بل قبلوا بوجود أسر محلية قدمت لهم الولاة . فقد تركوا حكم حلب في بداية الامر الى بني مرداس (٢) ، وحكم طرابلس الى بني عمار ، وشيبر الى بني شقذ .

١ - انظر فيما بعد

٢ - انظر بيطار : المرجع السابق ، ص ٢٤٧ و ص ٢٨٦ ، وما بعدها

وقد كان ولاية السلاجقة او مقطعيهم في بلاد الشام على خلاف فيما بينهم
الى حد الاقتتال احيانا .

وقد توحدت غالبية بلاد الشام تحت حكم تاج الدولة تتش لسنوات
قليلة (١) ، توفي بعدها تتش ليعود الصراع بين ولديه اللذين خلفاه
في حكم حلب ودمشق . وقد تنافس الاخوان بسبب مطامع كل منهما باملاك
الاخر في الوقت الذي تواترت فيه الاخبار بظهور عساكر الافرنج من بحر
القسطنطينية (٢) .

اقطع تتش السلجوقي فلسطين لقائده التركماني ارتق الذي خلفه سنة
٤٨٤هـ / ١٠٩٩م ولداه ستمان (سكمان) واولغازي (ايلغازي) (٣) . وقد
استغل الفاطميون انشغال السلاجقة بالغزو الصليبي . فخرج من مصر
جيش فاطمي تحت قيادة الوزير افضل بن بدر الجمالي لمحاصرة بيت
المقدس وفتحها لصالحهم . فاضطر الاراتقة حكامه في تلك الآونة السي
الانسحاب في شوال ٤٩١هـ / آب ١٠٩٨م (٤) . ولم تلبث بقية فلسطين ان
سقطت بعد ذلك في ايدي الفاطميين . ولم يكف الفاطميون بذلك . بل
ارادوا استغلال الاوضاع الى حد اكبر ، وعملوا على مد نفوذهم الى حلب .

- ١ - ابوالمحاسن بن تفرى بردى الاتاكي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر
والقاهرة ، طبعة دار الكتب جزء ٥ ، ص ٨٧
- ٢ - ابن شداد : الاغلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة ، وزارة الثقافة
١٩٧٨م تحقيق عبارة ، جزء ٣ قسم اول ص ٤٠٢ - ٤٠٣ - زكار : المرجع
السابق ص ٢٣١ وما بعدها .
- ٣ - عن الاراتقة انظر ابن شداد : المصدر السابق ، جزء ٣ قسم ٢ ص ٤٢٨ -
ابوالمحاسن : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٢٠١ .
- ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٢٨٢ - ٢٨٣
- ٤ - كان بيت المقدس تابعا للفاطميين حتى استعادته اتسز التركماني باسم السلطان
الب أرسلان سنة ٤٦٣هـ / ١٠٧١م انظر ابن القلانسي : دليل تاريخ دمشق ،
طبعة الأباء السويجين ١٩٠٨م ص ٢٣٥ - المقرئ : اتعاظ الحنفا بأخبار
الأئمة الفاطميين ، الخلفاء ، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، جزء ٣ ص ٢٢

فارسوا الى رضوان ملك حلب يدعونه الى الطاعة وإقامة الدعوة ، مقابل مده
بالمساعدة ضد خصومه . فاستجاب رضوان لذلك بضعة اسابيع ، وتقدم بالدعوة
للفاطميين على سائر منابر الشام التي في يده ، ثم أعاد الدعوة للخليفة
المستظهر العباسي (١) .

لم يقتصر التعزق في بلاد الشام على المجال السياسي ، بل تعداه الى
النطاق المذهبي . فبينما كان اهالي دمشق من السنة ، سيطر الشيعة
الإثنا عشرية على حلب . كما تعددت الشيع وتنافرت المذاهب خارج هاتين
المدينتين . فقد ظهرت فرقة الدرزي الذين الهوا الخليفة الحاكم ، ونشط
النزارية أتباع الحسن بن الصباح وسطوا سلطانهم على عدد من الحصون
والقلاع .

٤ - الخلافة الفاطمية

كان للفاطميين أثر كبير في أحداث المنطقة في تلك الفترة ، لتنازعها مع
الخلافة العباسية على زعامة العالم العربي الاسلامي . ولكن قوة الفاطميين
اخذت بالانحسار تدريجيا عن بلاد الشام بفضل جهود السلاجقة ، حيث
تمكن قائدهم اتسز التركماني من فتحها حتى دمشق في ذي القعدة سنة
٤٦٨هـ / حزيران ١٠٧٦م . وقد تطلع اتسز الى فتح مصر كلها ، ووصل الى
اطرافها ، ولكنه فشل في تحقيق اهدافه (٢) . وتتالت خسائر الفاطميين
لا ملاكهم في بلاد الشام ، حتى لم يبق لهم بها الا المناطق الساحلية من جبيل
حتى الجنوب (٣) .

١ - عشور : المرجع السابق ، جز ١ ، ص ١١٦ - ١١٧

٢ - بيطار : المرجع السابق ، ص ١٥٠ و ص ١٦٢

٣ - عشور : المرجع السابق ، جز ١ ، ص ١١٦ - ١١٧

كان الفاطميون اثر وصول الحملات الصليبية يمرون في دور ضعف تعود عوامله الى ما يلي :

- تعدد الاجناس المكونة للجيش الفاطمي ، وما كان يقوم بيمين هذه العناصر من صراع بعضها ضد البعض الآخر ، فقد تكون من المغاربة والترك والسودانيين .

- تولى خلفاء الفاطميين في الفترة الثانية من حكمهم وهم صغار في السن ، فاستبد الوزراء بالحكم منهم ، حتى عرف العصر الفاطمي الثاني بعصر الوزراء العظام واصبح منصب الوزارة في هذه الفترة محط اطماع كبار رجال الدولة وقادة الجيوش ، فنشبت صراعات دامية ، أدت الى ضعف الدولة (١) .

- تعرض الاقتصاد في مصر الى هزات عنيفة نتيجة انخفاض النيل مسرات عديدة ، وصحب ذلك مجاعات واثرة أدت الى ضعف الأوضاع العامة (٢) .

- حدث انشقاق عقائدي بين صفوف الفاطميين اثر وفاة الخليفة المستنصر بالله سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م . وقام الوزير الافضل بن بدر الجمالي يتجاوز خليفته نزار ، ويولي ابنه الآخر باسم المستعلي (٣) فانشق عدد كبير من الدعاة برز منهم الحسن بن الصباح الذي تراس دعوة جديدة لنزار عرف اصحابها فيما بعد بالخشاشيين (٤) .

١ - الشيبال : مصر الاسلامية ، دار المعارف ١٩٦٧ ، جزء ٢ ، ص ١٣

٢ - المقرئزي : اتعاظ الخنفا ، جزء ٢ ، ص ٣٣٢ - اغاثة الامة بكشف الغمة ، نشر زياد قوال الشيبال ، طبعة ثانية ٩٥٧ م ، ص ٢٤ وما بعدها و ص ٢٨ راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية زمن الفاطميين ، طبعة اولى القاهرة ٩٤٨ م ، ص ٨٥ وما بعدها

٣ - كان المستعلي ابن اخت الافضل بن بدر الجمالي

٤ - انظر حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب ، طبعة ثالثة ٩٦٤ م ، مكتبة النهضة المصرية ، ٣٥٤ - ٣٧١

• الايضاح العامة في آسية الصغرى

والى جانب القوى العربية الاسلامية هذه ، فقد كانت هناك منطقة اسية الصغرى التي كان يحسب حسابها ، لقد كانت هذه المنطقة يكاملها قبل القرن الخامس الهجرى من املاك الامبراطورية البيزنطية ، وكانت مناطق الحدود ساحة قتال دائمة بين العرب المسلمين والبيزنطيين ، حتى كان عهد السلاجقة وانصار ألب ارسلان السلجوقي على الامبراطور البيزنطى رومانوس ديوجينى في معركة مازكرد سنة ٤٦٣هـ / ١٠٧١م . وأخذ السلاجقة بالاستيلاء على اسية الصغرى ، وأصبحوا يحدقون بالقسطنطينية عاصمة البيزنطيين ، ولم يبق للامبراطورية البيزنطية اثر قيام الحروب الصليبية سوى سواحل البحر الاسود والمضائق وبعض المدن الداخلية المتناثرة التي انقطعت صلتها بالحكومة المركزية ، ولم يوحد السلاجقة هذه المناطق التي تبعت لهم باسية الصغرى ان خضعت بعض المدن لأمره اعترف بعضهم بالسلطان السلجوقي في اسية الصغرى ، على حين اظنت الاغلبية الولاة للسلطان ملك شاه السلجوقي في بغداد ، وبعد وفاته بدت اماره سلاجقة الروم اكثر انفصالا عن دولة سلاجقة المشرق .

والى جانب سلاجقة الروم والبيزنطيين في اسية الصغرى ، أقام الأرومن امارات عديدة ، اهمها اماره رومين في القوقاز الوسطى ، وامارة اوشين في قليقية العربية ، وامارة فيلاريت التي امتدت من جبال طوروس الى ماوراء النهر^(١) .

طابع الحملات الصليبية واسبابها :

في غمرة الصراع بين هذه القوى المتعددة ، واهتمام كل واحدة منها بأوضاعها الخاصة دون النظر الى مصلحة البلاد العربية الاسلامية ، نشبت

الحروب المعروفة في التاريخ باسم الحروب الصليبية ، وهي الحروب التي شنتها اوربا الغربية المسيحية على بلاد الشام خاصة ، ومصر احيانا . وقد ارتدت هذه الحروب حلة الدين ، وحمل افرادها شارة الصليب ، وادعوا ان غايتهم انتزاع الاراضي المقدسة من ايدي المسلمين . وواقع الاصران هذه الحروب كانت نتيجة لتفاعل عوامل متعددة دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية .

١ - الأسباب الدينية :

غلب على الحياة في العصور الوسطى طابع الدين ، حتى عرفت باسم عصور الايمان ، في الوقت الذي اضطرت ظروف الحياة الغالبة العظمى من الناس في اوربا الى الحياة بعيدا عن الأديرة وغيرها من انواع الحياة الدينية . وكان هذا الفوق يشعر بانسراغ ديني كبيره ووجدوا في الحروب الصليبية ، والدعوة لاستعادة الاماكن المقدسة ضالتهم المنشودة (١) .

٢ - الأسباب السياسية :

أ - هل البابوات على توجيه الفرسان لقتال المسلمين بدلا من الانصراف الى الحروب الداخلية . وهذا السبب يمكن ان يقال ايضا عن الحروب التي نشبت بين المسلمين والمسيحيين - فسي اسبانيا وجزر البحر المتوسطه والذي اراد البابوات نقله الى العالم الاسلامي في المشرق ، مع العمل على الاستيلاء على الاراضي المقدسة .

ب - مطامع بعض الامراء والنبله الذين لم تسمح لهم الظروف

١ - سعيد عاشور : اوربا في العصور الوسطى ، جزء ١ ، ص ٤٢٨

بتأسيس امارات لهم في اوربا ، ورغبة اولئك الذين كانت لهم
امارات بانشاء اخرى في المشرق .

ح - ازدياد نفوذ البابوية في القرن الخامس الهجري / الحادي
عشر الميلادي على المشرق وكهنته ، اضافة الى خشية البابوية من
النورمان الذين ازداد خطرهم على صقلية وجنوب ايطاليا ،
فراحت في الحروب الصليبية فرصة لصرفهم عن ايطاليا وتوجيه
نشاطهم نحو ميدان آخر بعيد . (١)

د - ان الحروب الصليبية هي سلسلة من الصراع نشب بين
المسلمين والمسيحيين بدأ منذ توسع المسلمون في حوض
البحر المتوسط . وحين حقق الفرنجة انتصارات على العرب
المسلمين في اسبانيا ، واحتلوا الكثير من اراضيهم اعتبارا من
اوائل القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر الميلادي ، وحدث
الشيء نفسه في صقلية وجنوب ايطاليا حيث تمكن النورمانديون
من تحطيم السيادة العربية هناك ، واحتلوا مواطنهم قدم لهم
على الطرف الاخر في منطقة تونس ، كما احتلت احدى الدولات
الاطالنية سردينيا من العرب ، فأصبحت مفايح الابحار في البحر
المتوسط بأيديهم ، وثقوا بانفسهم وبامكانية النصر على العرب
المسلمين في المشرق . وخاصة وان زيادة الاحتكاك المباشر بين
الطرفين بسبب التجارة والحج أدى الى زيادة الطمع فيه .

٣ - الاسباب الاقتصادية :

مطامع البعض في الحصول على منتجات المشرق ومتاجره وبشكل

١ - طشور : اوربا في العصور الوسطى ، جزء ١ ، ص ٤٢٦

خاص المدن الإيطالية مثل البندقية وجنوة وبيزا . ولن يتسنى لها ذلك الا اذا تمكنت من تأسيس متاجر ومستودعات تجارية في المنطقة .

٤ - الاسباب الاجتماعية :

أ - كانت الغالبية العظمى من الطبقات الدنيا في المجتمع الاوربي تحيا حياة ملوؤها اليأس والشقاء في ظل النظام الاقطاعي . وانتشرت بينها الاوىة والمجاعات . فكثير من الاراضي الزراعية تعرضت للخراب نتيجة لهجمات البرابرة . قلت الاقوات في الوقت الذي ازدادت فيه اعداد السكان . وما زاد سوء الحروب والنزاعات بين الامراء الاقطاعيين ، اضافة الى النكبات الطبيعية والاقتصادية التي طأى عليها الغرب الاوربي حينذاك . فعاش الناس في المنطقة عشة الفقر والحوان والخوف . وقد دعتهم هذه الاوضاع الى الاشتراك في الحروب الصليبية ، ان لا داعي للخوف من الموت ومن حرب المسلمين وهم في حال اقرب الى الموت . فعوضا من ان يموت الرجل من الجوع في بلده محملا بما عساه ارتكبه من ذنوب في حياته . فان من الافضل ان يموت في حرب مقدسة ، مما يضمن له غفران ذنوبه ودخوله الجنة (١) .

ب - وجد الامراء والفرسان في الحروب الصليبية فرصة لاشباع روح المغامرة التي سيطرت على حياتهم الخاصة والعامة (٢) .

ج - ان سيل المهاجرين الى الشرق حمل في طياته عددا كبيرا

١ - عاشور : الحركة الصليبية ، جزء ١ ، ص ١٣٧
٢ - عاشور : أوروبا في العصور الوسطى ، جزء ١ ، ص ٤٢٩

من المغامرين والدعاه والرهبان الهاريين من الأديرة والأقناتان الآبغين
من سادتهم (١) .

- الاسباب المباشرة

كانت معركة منازكرد الشرارة التي اشعلت اللهب . فمذ هذه المعركة
وأباطرة الدولة البيزنطية لا ينقطعون عن طلب النجدة العاجلة من البابوية
ضد السلاجقة المسلمين . من ذلك ان الامبراطور ميخائيل السابع (٤٦٣ -
٤٧٢ هـ / ١٠٧١ - ١٠٧٩ م) الح على البابا غريغوري السابع (٤٦٥ - ٤٧٨ هـ /
١٠٧٣ - ١٠٨٥ م) في ارسال نجدة سريعة لانقاذ الامبراطورية البيزنطية
واراضيها في آسية الصغرى . وود ميخائيل بأن يرد الجميل للبابوية بالعمل
على ازالة الخلاف بين الكيستين الشرقية والغربية (٢) . ولكن البابوية
شغلت في هذا الدور بمشاكلها الداخلية ، مما جعل الامبراطور
البيزنطية تقف وحيدة امام خطر السلاجقة .

ونهبض الامبراطور البيزنطي الكيوس كوينين (٤٧٤ - ٥١٢ هـ / ١٠٨١ م)
بهمة الاستنجد بالبابوية ثانية ، بعد ان لمس انه لا قدرة
له على مواجهة السلاجقة . واخذ يدعو البابا اوربان الثاني (٤٨١ - ٤٩٣ هـ /
١٠٨٨ - ١٠٩٩ م) لانقاذ المسيحية والمسيحيين وحماية الاماكن
المقدسة (٣) .

كان البابا اوربان الثاني اصلى شخصية معاصرة لتنفيذ المشروع الصليبي
. ان كانت لديه الجرأة على الدعوة للحرب الصليبية ورعايتها . فضلا عما عرف

١ - الباز العريضي : مصر في عهد الايوبيين ص ٩

٢ - عاشور : الحركة الصليبية ، جز ١ ، ص ١٢٩

٣ - عاشور : الحركة الصليبية ، جز ١ ، ص ١٣١ - ١٣٢

به من بعد النظر، والمقدرة على اختيار الرجال وتوجيههم والتأثير عليهم، فعمل على المقاربة بين الكهنتين في تلك الفترة الحاسمة برفع قرار الحرمان الذي كان موقعا على الامبراطور البيزنطي (١).

وفي مجمع كليرمونت الذي انعقد في ذي القعدة ٤٨٨هـ/تشرين الثاني نوفمبر ١٠٩٥م برئاسة البابا اوريان الثاني، وبحضور امراء من مختلف جهات اوروبا وعدد كبير من رجال الدين ومدعيهين عن الامبراطور البيزنطي وممثلين للمدن الايطالية، استطاع البابا ان يثير حماس السامعين وان يدعو المسيحيين الى قتال المسلمين، فتجاوب في ارجاء المجمع هتاف بترديد عبارة - هكذا اراد الله - . وقد استقر الرأي على أن يحبك كل محارب صليبا من القماش الاحمر على رداءه الخارجي من ناحية الكتف ومزا للحركة التي اشترك فيها، والفكرة التي خرج ليحارب من اجلها (٢). وتحددت سنة ٤٨٩هـ/١٠٩٧م موعدا لرحيل الصليبيين، وجعلت القسطنطينية مركزا لاجتماع قاداتهم لترتيب خطة الهجوم على اسية الصغرى والشام (٣). كما اصدر المجمع قرارا بان كل من يشترك في الحرب المقدسة تغفر له. فضلا عن ان ممتلكات الصليبيين ستوضع تحت حماية الكيسة ورعايتها طوال مدة غيابهم. كما عوف البابا على وتر المصالح المادية عندما اشار الى الامكانيات التي توفرها اراضي الكفار - يقصد المسلمين - في المشرق للفرسان المسيحيين الفقراء. واخذ البابا ينتقل بين المدن والبلدان داعما للحرب الصليبية، فاستطاع ان يضم اليه امراء متعددين من مقاطعات فرنسا وان

١ - عاشور الحركة الصليبية، جز ١، ص ١٣١.

- اسدرستم : المرجع السابق، جز ٢، ص ١٢٥-١٢٦.

٢ - انظر طشور : المرجع السابق، جز ١، ص ١٣٤.

- الباز العربي : المرجع السابق، ص ١٠.

٣ - الباز العربي : المرجع السابق، ص ٩-١٠.

يحصل على دعم جنوة للدعوة .

الحملة الصليبية الأولى

١ - بنية الحملة

تألفت الحملة الصليبية الأولى من قسمين ، ضم القسم الأول العامة ، على حين شمل القسم الثاني الأمراء . كان رأس العامة بطرس الناسك (١) إلى جانب زعم آخر اسمه والتر ، جمعا عددا ضخما من الاتباع قدر بخمسة عشر ألفا ، اصطحب بعضهم نساءهم وأطفالهم ، واتخذوا جميعا طريق البحر عبر هنغاريا ثم الأراضي البيزنطية . وقد قام هؤلاء بمذبحة رهيبة في هنغاريا قتل فيها حوالي أربعة آلاف من المسيحيين الأبرياء ، إلى جانب سلب ونهب كل ما يصل إلى أيديهم (٢) . فوصلوا في نهاية المطاف إلى أسية الصغرى . وحين اصطدموا بالسلاجقة انهزموا هزيمة منكرة ، وانتهى أمرهم كحملة منفردة (٣) .

أما الشطر الثاني من الحملة حملة الأمراء ، فقد أعد أعدادا جيدا ، وتألف من مجموعات متعددة لكل منها طابعها المميز الذي لازمها منذ أول الأمر ، ويميز نشاطها في الشرق . وبعبارة أخرى فإن الروح الاقطاعية بدت واضحة في الشطر النظامي من الحملة الصليبية الأولى . إذ تولي زمامها عدة أمراء لكل منهم اتجاهاته وجنده ، وسياسته الخاصة . مما جعل تلك الحملة في حقيقة أمرها عبارة عن عدة حملات ربما عملت أحيانا في اتجاهات متعارضة (٤) .

١ - هو رجل متقدم في السن ، متحمسا للقتال المسلمين . كان واسع التأثير في الجماهير لفصاحته وهيبته الغربية وحماسة .

٢ - انظر رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية ص ١٨٣-١٨٤

٣ - عاشور : الحركة الصليبية ، جزء ١ ص ١٣٥-١٤٠ - أسد رستم : المرجع السابق ، جزء ٢ ص ١٢٧-١٢٦

٤ - عاشور : المرجع السابق ، جزء ١ ص ١٤٥ - آرست باركر : الحروب الصليبية مكتبة النهضة المصرية ، ترجمة الباز العريني ص ٣٢

مع ملاحظة ان المشتركين في هذه الحملة كانوا من القطاع اللاتيني في
الامبراطورية الرومانية المقدسة . ولم يكن من القطاع الالمانى سوى القليل .
الف المتجهون الى المشرق ثلاث مجموعات كبيرة ، ترأس الاولى غودفري
برايون ورفقته اخوه بلدوين (١) * وهم من فرسان اللورين * وترأس الثانية
بوهيموند وابن اخته تنكرد * وهم من النورمان * وترأس المجموعة الثالثة
ريموند دى تولوز المعروف بالرابع من فرسان اقليم بروفنسال وبصحبه الاسقف
اد همار ليكون مندوبا يمثل البابوية في زعامة الصليبيين في الشرق (٢) السى
جانب زعما آخرين (٣) . والتقت هذه الجموع الثلاثة في القسطنطينية ،
وكان عدد هم يتراوح بين ستمين الفا ومائة الف (٤) .

اقسم جميع زعما الحملة الصليبية الاولى - باستثناء ريموند وتنكرد -
يمين الولا * والتبعية للامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين ، وتعهدوا له
برد كافة الممتلكات البيزنطية القديمة التي يستطيعون استردادها من
السلاجقة ، من نيقية حتى انطاكية . وفي مقابل ذلك تعهد الامبراطور
البيزنطي بمساعدة الصليبيين في مهمتهم بكل قواه ، وان يقدم لهم العون ،
وان يسهم بدوره في الحرب الصليبية ، وان يمد هم بفرق من الجيش البيزنطي

- ١ - يرد اسم بلدوين في المصاد العربية (بغدوين) وتنكرد (طنكرى) و
بوهيموند (بيمنت او بيمند)
- ٢ - اسد رستم : المرجع السابق ، جز ٢ ص ١٢٧-١٢٨ - عاشور : الحركة
الصليبية ، جز ١ ص ١٥٦-١٥٧
- باركر : المرجع السابق ، ص ٢٩
- ٣ - عاشور : المرجع السابق ، جز ١ ص ١٥٤ - باركر : المرجع السابق ص ٢٩-٣٠
- ٤ - انظر رنسيان : المرجع السابق ص ٢١٠-٢١٩ - انظر حول الاختلاف على
عدد هم : باركر : المرجع السابق ، ص ٣٠

في حال عدم تمكنه من مرافقتهم شخصيا (١) .

عبرت الحملة الاناضول الخاضعة لقلج ارسلان سلطان سلاجقة الروم ،
فاحتلوا نيقية ، ثم هزموا السلاجقة في الموقعة الفاصلة عند اسكي شيهير ،
واستخلصوا بذلك منطقة غربي الاناضول كلها (٢) .

٢ - تأسيس الامارات الأربع :

أ - امارة الرها (٤٩١-٥٣٩هـ / ١٠٩٨-١١٤٤م)

اجتاز الصليبيون الحاجز الجبلي الضخم (جبال طوروس) فانقسموا الى
قسمين ، ترأس احدهما تنكرد وبلدوين ، اتجهوا باتجاه الشمال الشرقي ، في
حين اتخذ بقية الصليبيين وعلى رأسهم المنذوب البابوي وغودفري وبوهيموند
وريموند طريق الشام .

حين وصل الصليبيون برئاسة بلدوين الى القرى والضياح الارضية ، رحب
بهم الارمن (٣) واستولوا بمساعدة تهم على مدينة الرها ، واسسوا بها سنة
١٠٩٨هـ / ١٠٩٨م اولى الامارات الصليبية في الشرق (٤) وكان لهذه الامارة
اهمية دينية كبيرة الى جانب اهميتها في حماية ممتلكات الصليبيين في الشام
ضد اي هجوم من الشرق (٥) .

-
- ١ - اعمال الفريجنجوق حجاج بيت المقدس ، ترجمة وتعليق حسن حبشي ، دار الفكر
العربي ١٩٥٨م ، ص ٣٠-٣١
 - رنسيمان : المرجع السابق ، ص ٢١٩-٢٢٢ - عاشور : المرجع السابق ، جزء ١ ،
ص ١٦٣-١٦٤ - ارنيست باركر : الحروب الصليبية ، ص ٣٢
 - اسد رستم : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ١٩٩
 - ٢ - عاشور : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٦٥-١٦٦ - رنسيمان : المرجع السابق ،
ص ٢٤٩-٢٧٦ - باركر : المرجع السابق ، ص ٣٥
 - ٣ - هاجر الارمن الى قليقية ، حركة كبيرة في القرن الخامس الهجري من بلاد هم حول
بحيرة فان امام عزوات السلاجقة ، انظر عاشور : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص
٢٧٣ - رنسيمان : المرجع السابق ، ص ٢٧٧ وانظر ص ٢٨٧-٢٨٨
 - ٤ - رنسيمان : المرجع السابق ، ص ٢٩٤-٢٩٥ - اسد رستم : المرجع السابق ،
جزء ٢ ، ص ١٢٩
 - ٥ - عاشور : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٧٧-١٨٠

كانت إمارة الرها من عدة نقاط ضعف منها :

- عدم وجود حدود طبيعية تحميها وتزود عنها وتكسيبها وقاية ومناعة مما جعلها عرضة لهجمات صاحب الموصل، وهجمات صاحب حلب .
فاخذت حدودها بالانكماش تارة والاتساع تارة اخرى .
- عدم تجانس سكانها . ان كانوا خليطا من المسيحيين الشرقيين والصليبيين الغربيين ، فضلا عن تركو المسلمين في مدن باكملها داخل تلك الامارة مثل سروج ، فأصبح من الصعب على امراء الرها في تلك الظروف ان يحكموا امارتهم حكما مركزيا يضمن لهم اشرافا دقيقا على مختلف اجزاء الامارة . ولذلك فانهم لجأوا الى تحصين المدن والقلاع الثابتة لهم ، وجمع الضرائب من المناطق المحيطة بتلك المدن (١) .
- ان هذه الامارة كانت محرومة من الواجهة البحرية التي تمتعت بها الامارات الاخرى ، وجعلتها على اتصال عن طريق البحر بأوروبا ، ومكنتها من تلقي المعونات العسكرية البحرية بسهولة ويسر .
- كانت امارة الرها اقرب الامارات الى مدينة الموصل التي اصبحت في ذلك الحين المركز السلجوقي المتقدم لتسيير الجيوش لقتال الفرنجة . فهوجمت من قبلها اربع هجمات متتابة في سنوات متتالية من سنة ٥٠٥-٥٠٨ هـ / ١١٠-١١٤ م عدا الحملات التي تلت الاحتلال مباشرة (٢) .

١ - عاشور : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٤٣٧

٢ - انظر حول ذلك ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١٠ ، ص ٤٨٥ و ٤٩٢ و ص ٤٩٥ و ٥١٠ وانظر رنسيان : المرجع السابق ص ٢٩٩

ب - امارة انطاكية (٤٩١-٥٦٦هـ / ١٠٩٨-١٢٦٨م)

حين كان بلد وين البولوني يعمل في اراضي الجزيرة بزحف القسم الاخر من الجيش الفرنجي على شمال الشام قاصدا انطاكية . فاستولى في طريقه على مرعش وحصن بغراس وقلعة ارتاح .

كانت مدينة انطاكية حين حاصرتها الجيوش الصليبية بيد السلاجقة منذ انتزعها سليمان بن قتلش سلطان سلاجقة الروم من البيزنطيين في شعبان سنة ٤٧٧هـ / شباط فبراير ١٠٨٥م (١) ثم اصبحت من املاك تتش الذي سلمها لاحد رجاله من التركمان المعروف باسمه ياغي سيان سنة ٤٧٩هـ / ١٠٨٧م (٢) .

كان ياغي سيان على درجة من الكفاية مكنته من الاحتفاظ بحكم مدينته انطاكية حتى وصول الصليبيين اليها . وتحمل مهمة الدفاع عنها امامهم ، وبذل جهودا مذكورة في هذا المجال (٣) . فعمل على حفر خندق يحيط بالمدينة ، وشحن القلاع بالجند والمقاتلين ، واختزن المؤن الكافية داخل اسوار المدينة (٤) . وحين القى الصليبيون الحصار على المدينة لمدة تسعة اشهر ، ظهر في اثناهما من شجاعة ياغي سيان وجوده وحياته وحزمه واحتياطه ما لم يشاهد من غيره ، حتى هلك اكثر الفرنج موتا (٥) . كما حاول الحصول على مساعدة جيرانه امراء المسلمين في المنطقة ، ومساعدة الخليفة العباسي وسلاجقة فارس ،

- ١ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ١٣٨-١٣٩ - حسن حبشي : الحرب الصليبية الاولى ، دار الفكر العربي ، ص ١١١ .
- ٢ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ١٤٧-١٤٨ - حسن حبشي : المرجع السابق ، ص ١١١ .
- ٣ - ابن القلائسي : دليل تاريخ دمشق ، ص ١٣٢ - رئيسمان : المرجع السابق ، ص ٣٥ .
- ٤ - عاشور : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٩٣ - حسن حبشي : المرجع السابق ، ص ١٢٢ .
- ٥ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٢٧٤ - ابوالفداء : المختصر في اخبار البشر ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، جزء ٢ ، ص ٢١٠ - انظر رئيسمان : المرجع السابق ، ص ٢١٦ .

فلم يحصل على معونة عاجلة (١) . ولكنه استمر في مقاومة الغزاة بكل ما استطاع . ونتيجة لهذه المقاومة الشديدة التي لقيها الصليبيون في المنطقة ، فرس قسم منهم وعلى رأسهم بطرس الناسك ، على حين رأى بوهموند (بيمند) ان يجمع بقية الصليبيين تحت امرته ليستخد منهم في تحقيق اهدافه في تأسيس امارة لنفسه . واخذ يعمل جهده لينفرد بامارة انطاكية ، فحاول منع وصول المساعدات الى ياغي سيان . كما بدأ باتهام البيزنطيين بالتآمر مع السلاجقة ضد الصليبيين ليتخلص من وعوده التي قطعها على نفسه لهم (٢) . كما عمل على التحالف مع الفاطميين ووعدهم بان يترك لهم بيت المقدس مقابل انطاكية (٣) . واراد بوهموند ان يستفيد اكثر من ذلك من تمزق اوضاع بلاد الشام السياسية في تلك الفترة ، فراسل دقاق بن تتش مطمئنا لسه ، واستعال اخيه رضوان بن تتش (٤) .

وقد نجحت هذه الخطة مع بعض الامراء فشلت مع بعضهم الاخر ، حيث قرر رضوان صاحب حلب نجدة انطاكية لانها تعتبر من املاكه ، وضم اليه بعض الامراء المحليين . وقد اجتمعت هذه القوات المتحدة في مدينة حارم ، وكانت على اتصال بامير انطاكية ياغي سيان . ووضع الفريقان خطة جيدة فيما لو تمكنوا من تحقيقها ، ملخصها خروج ياغي سيان لمهاجمة الصليبيين في نفس الوقت الذي تطبق عليه هذه القوات من الخلف وتمنعه من الابتعاد عن

١ - حسن حبشي : المرجع السابق ، ص ١١٢

٢ - تمكن بوهموند من ابعاد القائد البيزنطي الذي كان يرافق الصليبيين فسي حصارهم لانطاكية ثم اتهمه بالجبن . انظر اسد رستم : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ١٢٩ - ١٣٠ - رنسيان : ص ٣٠٩ - ٣١١ ، المرجع السابق .

٣ - انظر باركر : الحروب الصليبية ، ص ٣٧

٤ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٢٧٥

اسوار انطاكية . ولكن خيانة بعض انصار الصليبيين من السريان والارمن في المنطقة اشلها ، وهاجم بوهيموند هذه القوات المتحدة وهزمها قبل ان تنفذ مشروعها ، واستولى على حارم (١) . حيث حصل على مؤونة كافية شجعتة على متابعة الحصار ، ونهض لبناء قلعة مطلة على المدينة مكان مقابر المسلمين ، مستخدما حجارة مقابر سكان المنطقة في ذلك . كما وصل الى ميناء السويدية اسطول انكليزي يحمل المواد والسلاح وآلات الحصار (٢) وهكذا تغير ميزان القوى لصالح الفرنجة . فعلى حين كان موقفهم في تحسن ، فان امير انطاكية ياغي سيان يش من وصول دعم اسلامي . ويبدى المورخ ابوالمحاسن عجبته من موقف الفاطميين وعدم مشاركتهم القوى الاسلامية التي نهضت للدفاع عن انطاكية ضد الصليبيين فيقول : " ولم ينهض الا فضل باخراج عساكر مصر ، وما أدري ما كان السبب في عدم اخراجه مع قدرته على المال والرجال (٣) .

راسل الصليبيون المحاصرون لانطاكية احد المستحفظين للابسراج ، مستغلين اوضاعه الخاصة ، وندلوا له مالا واقطاعا مقابل مساعدتهم في فتح باب المدينة لدخولها ، فوافق (٤) . وندلك اتيح للصليبيين دخولها . فقاموا

١ - عاشر : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٩٩ - ٢٠١ - حسن حبشي : المرجع السابق ، ص ١١٥ - ١١٦ وانظر ص ١٢٤ - ١٢٦ .

٢ - حسن حبشي : المرجع السابق ، ص ١١٦

٣ - ابوالمحاسن بن تفرى بردى الأتابكي : النجم الزاهرة ، جزء ٥ ، ص ١٤٧ - وانظر حسن حبشي : المرجع السابق ، ص ١٢٧

٤ - اختلفت المصادر حول اسم الشخص الذي فتح باب انطاكية . فهو بيزويه في بعضها ، وفيروز في بعضها الاخر . وراسلها الصليبيون في مصادره ، وراسل هو الصليبيون في اخرى : انظر ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٢٧٤ - ٢٧٥ - ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب تحقيق سامي الدهان جزء ٢ ، ص ١٢٤ - مؤلف مجهول : اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ص ٦٦ - ٦٧ .

- حسن حبشي : المرجع السابق ، ص ١٢٦ - ١٢٢

كعادتهم بقتل السكان والفهيب والسلب ، فاستولوا على كل ما بها ، وقتلوا اميرها يانفي سيان (١) ، وقد قدر المؤرخون الصليبيون عدد المسلمين الذين ذبحهم الصليبيون في انطاكية بعشرة آلاف نفس (٢) .

لقد كان لسقوط انطاكية وقع كبير في نفوس العرب والمسلمين في ذلك الحين ، لأهمية المدينة ومكانتها في نفوسهم ، كما صادف سقوطها اثرا معاكسا في نفوس الفرنجة لمكانتها الدينية عندهم .

تربع بوهموند على عرش هذه الامارة ، فصادف صعوبات جمة في بداية الأمر (٣) ، كما جابه هجمات متعددة ومحاولات لتحريرها من قبل عدد من حكام المسلمين في حلب والموصل ودمشق وغيرها ، واستمرت هجمات العرب المسلمين عليها قوية في عهد خلفائه ، وقد تزعم امراء الموصل نفسي البداية هذه الهجمات من امثال كربوغا ومودود وآق سنقر البرسقي (٤) ، حتى كان عهد ايلغازي ثم عماد الدين زنكي وابنه محمود ومن بعدهما صلاح الدين الايوبي وخلفائه ، وقد استطاعت قوى هؤلاء الامراء والسلاطين المسلمين تقليص حدود امارته انطاكية احيانا ، واسر امرائها احيانا اخرى (٥) .

- ١ - ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ١٣٥ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٢٧٥
- حسن حبشي : المرجع السابق ، ص ١٣٣
- ٢ - طشور : المرجع السابق ، جزء ١٠ ، ص ٢٠٥ - رنسيان : المرجع السابق ، ص ٣٣٣ - ٣٣٤ - حبشي : المرجع السابق ، ص ١٣٤
- ٣ - طشور : المرجع السابق ، جزء ١٠ ، ص ٢١٢ - ٢١٦ - حسن حبشي : المرجع السابق ، ص ١٤٧ وما بعدها
- ٤ - انظر عن الجيوش التي هاجمت انطاكية : ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ١٧٣ وما بعدها
- ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٢٧٦ و ٢٧٨ و ٤٨٥ و ٤٩٥ و ٤٩٧ - ابوالفداء : مختصر تاريخ البشر ، جزء ٢ ، ص ٢١٠ - ٢١١
- ٥ - انظر ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٥٥٣ - ٥٥٦

ح - اماره بيت المقدس (٤٩٣-٥٨٣هـ / ١٠٩٩-١١٨٧م)

عقد الصليبيون مجلسا في محرم سنة ٤٩٢هـ / تشرين الثاني نوفمبر ١٠٩٨م بكيسة بطرس في انطاكية حيث اجمع الزعماء على استئناف الزحف نحو بيت المقدس (١) . وعلى الرغم من اشتراك بوهيموند امير انطاكية في هذا المجلس واقراره بالاشتراك بالزحف الى بيت المقدس ، فانه حين بدأت الساعة الحاسمة ، تخلف وفضل البقاء في انطاكية (٢) . وكذلك فعل بلد وسن امير الرها الذي كان مشغولا بتنظيم امارته (٣) .

قاد ريموند جموع الصليبيين المتوجهة الى بيت المقدس في صفر ٤٩٢هـ / كانون الثاني يناير ١٠٩٩م . وتوغل في بلاد الشام ، متحاشيا المدن الداخلية الكبرى مثل حلب ودمشق . وفي اثناء تقدمه ، اتصل ببعض القوي الضعيفة المستقلة في بعض مدن الشام ، مثل حمص وطرابلس وشيزر متعهدا لهم بعدم مهاجمتهم اذا قدموا المساعدات للفرنجة ، فحصل منهم على رد بالموافقة (٤) .

وعبر الصليبيون اقليم العاصي ، الى مصياف ثم الى بعون ومنها الى سهل البقاع . واستطاعوا احتلال حصن الاكراد في صفر ٤٩٢هـ / كانون الثاني يناير ١٠٩٩م (٥) . ثم حاصروا عرقه في شمال طرابلس فتركوها بعد ان استعصت عليهم (٦) ، كما حاصروا جبلة حيث عقدوا اتفاقا مع قاضيها تعهد فيه بدفع جزية من المال والخيول .

١ - اعمال الفرنجة ، ص ١٠١

- ٢ - عاشور : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٢٢١ - حسن حبشي : المرجع السابق ، ص ١٥٦ - ١٥٧ ، ٥٨٣ ، ٥٩١ ، ٢٥٩
- ٣ - عاشور : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٢٢٤ - حسن حبشي : المرجع السابق ، ص ١٦٦ - ١٦٧ ، ٣٠١
- ٤ - حسن حبشي : المرجع السابق ، ص ١٦٦ - ١٦٧ - عاشور : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ - زنسيان : المرجع السابق ، ص ٣٧٦ - ٣٧٧
- ٥ - حسن حبشي : المرجع السابق ، ص ١٦٤ - عاشور : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٢٢٨ - زنسيان : المرجع السابق ، ص ٣٧٩ - ٣٨١
- ٦ - زنسيان : المرجع السابق ، ص ٣٨٢ - ٣٨٣ - عاشور : اوربا في العصور الوسطى ، جزء ١ ، ص ٤١٧

لم يدع الفاطميون نفوذهم في المناطق التي استرجعوها من الأرتقة في فلسطين والساحل حتى جنوبي نهر الكلب . ولذلك فقد كان من السهل يمكن ان تسقط المدن الساحلية والداخلية تترى بأيدي الفرنجة . فقد سالمهم اهالي بيروت ، على حين تعرضت صيدا لهمجيتهم لعدم اعلانها التبعية . وكذلك استعصت مدينة عكا عليهم (١) . وحين شقوا طريقهم الى الداخل سقطت بأيديهم مدينتي اللد والرملة (٢) ، ثم بيت لحم التي غادروها الى بيت المقدس .

اتخذ حاكم بيت المقدس الفاطمي كافة الاحتياطات التي وجدها في رأيه كفيلا بحماية المدينة المقدسة . من جعلها تقوية تحصينات المدينة ، والتأكد من سلامة اسوارها وتأمين التموين من طعام وما . واعتمد في الدفاع عن بيت المقدس على حامية كبيرة من الجنود المصريين والسودان (٣) .

التي الصليبيون الحصار على المدينة المقدسة في رجب سنة ٤٩٢ هـ / حزيران - يونيو ١٠٩٩ م (٤) . وبعد اقل من اسبوع من حصارها ، وصلتهم امدادات بشرية وعسكرية وغذائية ، فارتفعت معنوياتهم واحتلوا يافا (٥) ، فاصبح لهم نافذة على البحر في المنطقة ، على حين ان معنويات الحامية الفاطمية في بيت المقدس كانت سيئة .

- ١ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠ ص ٢٨٣ - رنسيان : المرجع السابق ، ص ٣٨٨ - ٣٨٩ .
- ٢ - رنسيان : المرجع السابق ، ص ٣٩٠ - ٣٩٢ - طاشور : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٢٣٨ - ٢٤٠ .
- ٣ - رنسيان : المرجع السابق ، ص ٣٩٤ - ٣٩٥ - طاشور : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٢٤١ .
- ٤ - انظر رنسيان : المرجع السابق ، ص ٣٩٦ ولكنه يذكر ذلك في يوليو - حزيران وحسن جيشي في مايو مايس : ص ١٧٤ .
- ٥ - اعمال الفرنجة ، ص ١١٥ - ١١٧ .

استمر حصار بيت المقدس قرابة شهرين ، قام الفرنجة اثناءها بمنع برجيين جعلاهما يطلان على سور المدينة ، وضعا احدهما بباب صهيون ، والاخر بباب العمود . فاحرق المحاصرون البرج الأول وقتلوا من فيه (١) ، اما البسرج الثاني فقد زحف به الصليبيون حتى الصقوه بالسور ، واخذوا يطلون من خلاله على البلد (٢) . ثم رموا المجانيق رمية رجل واحد ، فانهمزم المسلمون فسي ليلة ٢٣ شعبان ٤٩٢هـ / ١٤ تموز يوليو ١٠٩٩م . وفر المدافعون عن بيت المقدس من المسلمين للاحتما بالمسجد الاقصى والدفاع عنه . فدخـل الصليبيون المدينة ، واقتحموا المسجد واحدثوا بداخله مذبحـة وحشـبة رهيبة (٣) ، عمر عنها مؤرخو الغرب خير تعبير حين قال احد هم : (حتى ان جنودنا كانوا يخوضون حتى سيقانهم في دماء المسلمين) (٤) . ولم ينج من مذابحهم الا القلة القليلة التي اعتصمت بمحراب داود وقاتلت ثلاثة ايام برئاسة حاكم المدينة افتخار الدولة ، ولم تلق السلاح الا بعد ان بذل لهم الفرنج الامان (٥) . وقد ذكر مؤرخ صليبي حضر تلك الاحداث ، انه عند ما زار الحرم الشريف غداة المذبحة الرهيبة التي احدثها الصليبيون لم يستطع ان يشق طريقه وسط اشلاء المسلمين الا في صعوبة بالغة ، وان دماء القتلى بلغت حتى ركبيته . كما ذكر صاحب كتاب اعمال الفرنجة (٦) وهو من شهود

١ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٢٨٣ - رنسيان : المرجع السابق ص ٤٠١ - ٤٠٢

- حسن حبشي : المرجع السابق ص ١٧٨

٢ - انظر رنسيان : المرجع السابق ص ٤٠٢ - ٤٠٣ - حسن حبشي : المرجع السابق ص ١٧٨

٣ - انظر حسن حبشي : المرجع السابق ص ١٧٩

٤ - سعيد عاشور : المرجع السابق ، جزء ١٠ ، ص ٢٤٣ - ٢٤٤ نقلا عن وليم الصوري ، واعمال الفرنجة - حسن حبشي : المرجع السابق ، ص ١٧٩ - رنسيان : المرجع السابق ، ص ٤٠٤ - ٤٠٥

٥ - سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جزء ١٠ ، ص ٢٤٣ - ٢٤٤

٦ - اعمال الفرنجة ص ١١٩ - ١٢٠ - عاشور : المرجع السابق ، جزء ١٠ ، ص ٢٤٥ - حسن حبشي : المرجع السابق ، ص ١٧٩

العيان كثرة القتلى من المسلمين ، وصور ذلك تصويراً بارزاً فقال : (وصدور
الأمر أيضاً بطرح كافة موتى الشرقيين خارج البلدة لشدة التنجس المتصاعد من
جيفهم ، ولأن المدينة كادت أن تكون باجمعها مملوءة بجثثهم . فقام
الشرقيون الذين قيضت لهم الحياة بسحب القتلى خارج بيت المقدس ،
وطرحهم أمام الابواب . وتعالق اكوامهم حتى حادت البيوت ارتفاعاً .
وما تأتي لاحد قط ان سمع او رأى مذبحه كهذه المذبحه التي ألبس
بالشعب الوثني - يقصد المسلمين - وجمعت اكوام من الحطب كأنها
الاعلام ، ولا يعلم احد غير الله كم عدد ها (٠٠٠) .

وقد صور لنا ايضاً ابن الاثير (١) القتل والسلب والنهب الذي قام
به الفرنجة فقال : (٠٠) وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين
الفا ، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم . ممن
فارق الاوطان ، وجاور بذلك الموضع الشريف . واخذوا من عند الصخرة
نيفا واربعين قنديل من الفضة وزن كل قنديل ثلاثة الاف وستمئة درهم .
واخذوا تنورا من فضة وزنه اربعون رطلا بالشامي ، واخذوا من القناديل
الصغار مائة وخمسين قنديل نقرة ، ومن الذهب نيفا وعشرين قنديلا ،
وغنموا ما لا يقع عليه الاحصاء) .

كان هناك اكثر من مرشح فرنجي لامارة بيت المقدس ، وعلى رأسهم غود
فرى بوايون ، وريموند الصنجيلي . واستقر رأى الغالبية على اعطاء العرش
الى غود فرى منذ نهاية شعبان ٤٩٢هـ / ٢٢ تموز يوليو سنة ١٠٩٩م وكان

١ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٢٨٣-٢٨٤

اختياره للبنه . وقد اكتفى غود فرى بلقب حامي بيت المقدس . وبدأ بذلك تشكيل اماره بيت المقدس ، تلك الامارة التي ارتبط بها امراء الصليبيين في الامارات الاخرى (١) .

احدث سقوط بيت المقدس موجة من الرعب في نفوس اهالي المدن والقرى المجاورة ، فخلت من المدافعين عنها ، واخذ الصليبيون يستولون على هذه المدن الواحدة تلو الاخرى . وتحرك الفاطميون اثر سماعهم بحصار بيت المقدس من قبل الفرنجة ، وعسكر جيشهم في عسقلان حيث بادروهم الفرنجة اليها وهزموهم واخذوا قطيعة من اهالي عسقلان اختلف المؤرخون حول مقدارها (٢) . وتكرر خروج الفاطميين بعد سقوط بيت المقدس الى عسقلان ، ووصلت بعض جيوشهم الى اللد والرملة ويازر ، وهاجمت يافا . كما انهم تعاونوا في سنة ٤٩٩هـ / ١١٠٥م مع السلاجقة لقتال الصليبيين ، وكانت حصيلة الحروب بين الطرفين في الفترة بين ٤٩٣هـ - ٤٩٩هـ / ١٠٩٩ - ١١٠٥م توسع الصليبيين في ارسوف وقيسارية وعكا ، واتبعوها ببيروت وصيدا . حتى انه لم يبق في يد العرب المسلمين من معاقل الساحل السوري سوى عسقلان وصير وطرابلس (٣) . ثم تابع الفرنجة الفتوح في سواحل الشام بعد ان وصلتهم امدادات من الغرب الاوربي ، لتأمين طريق الحج - ايج وتنشيط التجارة مع الغرب . فاحتلوا مدن فلسطين الداخلية كطبرية وبيسان والناصره ونابلس ، على حين اجقوا القرى والنزاع المحيطة بتلك المدن فسي

-
- ١ - سعيد عاشور : المرجع السابق ، جز ١ ، ص ٢٤٥ - ٢٥٥
 - حسن حبشي : المرجع السابق ص ١٨١ - ١٨٢ - ١٨٤
 - ٢ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جز ١٠ ص ٢٨٦ - وانظر رنسيما : المرجع السابق ص ٤٣٤ - ٤٣٧
 - ٣ - انظر ابن الاثير : المصدر السابق ، جز ١٠ ص ٣٧٢ - و ص ٣٩٤ ، ص ٤١١ و ص ٤١٤
 - رنسيما : المرجع السابق ، ص ٤٣٦

أيدى أصحابها العرب (١) نظرا لقلّة عدد فرسان الصليبيين .

كانت حروب الفاطميين مع الصليبيين بقيادة وزيرهم الأفضل أشبهه باستعراض عسكري يعرض فيه الأفضل كل ما لديه من عناصر عسكرية وسلاح ، دون أن يضع الخطط اللازمة من جهة ، ودون أن يدرس المنطقة التي يجب أن يعسكر بها أو تلك التي يلاقي بها أعداءه ، ودون أن يستعلم خبر أعدائه عن طريق جواسيسه أو أهالي المنطقة من العرب ، أو حتى أن يعمل على كتمان أخبار حملته أو التضليل حولها . وفوق هذا وذاك فإنه لم يكن يستخدم عامل المباغثة الذي استخدمه الفرنجة مرات متعددة في وجه الفاطميين فجحوا . وزاد الطين بلة أنه في غالب الأحيان لم يكن هناك تنسيق بين أقسام الجيش المختلفة ، بل كثيرا ما كان جيش الفاطميين يعسكر في نقط مكشوفة حتى وغير مكشوفة ولكنها قريبة من مراكز الفرنجة بانتظار إمدادات أخرى برية أو بحرية . فتصل الأخبار إلى العدو الذي يعمل على مباغثة الجيش الفاطمي الكبير . وفي أثناء ذهول الجنود ومحاولة الاستعداد للمواجهة يكون الفرنجة قد فرقوا شمل الجيش الفاطمي ، فيولي عاصره هارين من الساحة (٢) .

تغير وضع إمارة بيت المقدس بعد سنة ٤٩٩هـ / ١٠٥٠م ، حيث توقفت الحملات الفاطمية ، واخذ بلدوين الأول أميرها بعد أخيه غودفري يعمل على السيطرة على المناطق الجنوبية في فلسطين لا همتها الدفاعية من جهة ، ولعزل مصر عن مناطق العالم الإسلامي في الشرق ، وقطع

١ - عاشور : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٢٦٢-٢٦٤

٢ - انظر ابن الأثير : المصدر السابق جزء ١٠ ، ص ٣٩٤ و ٤٨٥ و

حسن حبشي : المرجع السابق ، ص ١٩٢-١٩٣

الطريق البري عنها . وقد تمكن من تحقيق هدفه ، واسس في المنطقة حصن الشوك سنة ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م . كما بنى في العقبة (ايلة) قلعة حصينة للتحكم في الطريق البري للقوافل بين مصر والشام ، ولتهديد الحجاج المسلمين وهم في طريقهم الى الحرمين ، وقلعة اخرى في خليج العقبة في جزيرة فرعون للاشراف على شبه جزيرة سيناء ، ورابعة جنوب مدينة صور للسيطرة عليها بعد ان فشل في اخضاعها . واستطاع بما قام به تعزيز اتصالات العالم الاسلامي في المنطقة ، والتحكم في المسالك المؤدية الى الحجاز (١) . ثم فكر في مهاجمة الفاطميين في عقرب اهرم للضغط عليهم ، وجعلهم يستعينون بحمايتهم في صور وعسقلان فيستولي عليهما (٢) .

د - اماره طرابلس ٥٠٣ - ٥٦٨٨ هـ / ١١٠٩ - ١٢٨٩ م

عمل ريموند الصنجيلي على تأسيس اماره له على شاطئ الشام . وقد اصطدم اثناء محاولته تلك بكل من اميرى انطاكية وبيت المقدس ، اللذين وضعا مخططا لا مارتيهما ارادا به ان تكون المناطق الساحلية المواجهه لا مارتيهما تابعة لها . ولم يستطع ريموند التحرك قدما نحو تحقيق مشروعه الا بعد ان عقد اتفاقية مع امير انطاكية .

اتخذ ريموند من مدينة طرطوس في جمادى الاولى ٤٩٥ هـ / شباط فبراير ١١٠٢ م قاعدة مؤقتة له بعد فشله في اخضاع مدينة طرابلس الخاضعة للقاضي ابن عمار . فقد تمكن ابن عمار من افضال اكثر من حصار فرض حول طرابلس ، ولكنه لم يتمكن من حماية المناطق القريبة منها كحصن الاكراد ومدينة

١ - عشور : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٣٣٧ - ٣٣٩

٢ - عشور : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٣٢٧ - ٣٢٩

جيبيل التي سقطت في يد ريموند (١) .

بنى ريموند قلعة صنجيل في مواجهة طرابلس ليجبرها على الخضوع ، ولكنه توفي قبل ان يحقق امله . فنهض ابنه برترام وقريبه جوردان بحماية املاكه واتمام تأسيس الامارة فكان الاستيلاء على عرقة في رمضان سنة ٥٠٢هـ / نيسان ابريل ١١٠٨م (٢) ثم طرابلس (٣) . ولما انفرد برترام بحكم الامارة قام بتوسيعها باحتلال عدة حصون مثل المنيطرة وعكار ورفنية وقلعة بعريين (٤) واستمرت امارة طرابلس بالتوسع حتى بلغت اقصى اتساع لها سنة ٥٢٦هـ / ١١٣٢م . وصارت تمتد من قلعة المرقب شمالا حتى نهر الكلب جنوبا ، ومن شاطىء المتوسط غربا ، حتى بعريين ورفنية وحصن الاكراد وعكار شرقا .

وهكذا استطاع الصليبيون في فترة قصيرة تأسيس الامارات الاربع ، وصار في ايديهم الجانب الاكبر من فلسطين وساحل الشام . فكانت دولتهم في اقصى اتساعها تمثل ~~شبه جزيرة~~ ~~المتد~~ ضلعه في الشمال ، من انطاكية غربا الى الرها شرقا . وضلعه الشرقي من الرها شمالا الى العقبة (ايله) على البحر الاحمر . وضلعه الجنوبي من العقبة (ايله) الى غزة ، وضلعه الغربي من غزة الى انطاكية مع تجاوز هذا التشبيه ، ان امتلك الصليبيون اراضي ومدننا عديدة خارج تلك الحدود ، الى جانب وجود مدن كبرى داخله ظلت محتفظة بوضعها العربي الاسلامي دون ان يستطيع الصليبيون الاستيلاء عليها مثل حلب وحماه وحمص ودمشق (٥) .

١- عاشر : المرجع السابق ، جز ١ ص ٣٥٨-٣٥٩ - رسيما : المرجع السابق ص ٣٨٨ - ٣٨٩

٢- ابن الاثير : المصدر السابق ، جز ١٠ ص ٤٦٧

٣- ابن الاثير : المصدر السابق ، جز ١٠ ص ٤٧٥-٤٧٦ - ابوالمحاسن : المصدر السابق جز ٥ ، ص ١٧٩

٤- عاشر : المرجع السابق ، جز ١ ص ٣٧٦ - ٣٧٦

٥- عاشر : المرجع السابق ، جز ١ ، ص ٤٧٧

ويعتبر استيلاء الصليبيين على اراضي هذه الامارات بمثابة احتلال حربي لا فتحاً منظماً . فاملاكهم في اقصى اتساع لها شملت رقعة من الارض امتدت بطول خمسمائة ميل وعرض خمسين ميل (١) . ولا يعود انتصارهم السبب تفوق جيوشهم في العدد فحسب ، بل الى انعدام المقاومة المنظمة ، وبسبب ما حدث من الحروب الداخلية بين الامراء السلاجقة ، وما وقع بين اتباعهم من التنازع على الاستيلاء على املاك البيت السلجوقي .

طبّق الصليبيون في اماراتهم في الشام كثيراً من النظم الاقطاعية التي عاشوا في ظلها في الغرب الاوربي قبل حضورهم الى الشرق . وفازت الكنيسة بنصيب الاسد ، وامتلكت الاراضي والاموال الى جانب ما كان يدر عليها ائتما ، مما ميزها بوفرة ثروتها واتساع املاكها التي لم تقتصر على بلاد الشام بسبل امتدت الى القارة الاوربية . وقد اثارت هذه الثروة الطائلة التي تمتعت بها الكنيسة حقد النبلاء في بلاد الشام ، ولا سيما ان ممتلكات الكنيسة معفاة من الضرائب ، كما كان رجالها معينين من الخدمة العسكرية (٢) . كما شهدت بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية عدداً من الهيئات الدينية اهمها هيئات الفرسان وخاصة الاسبتارية والداوية (٣) ، وهي منظمات جمع افرادها بين حياة الزهد والعبادة في ظل الكنيسة او الدير ، وبين قتال المسلمين والعمل في ميدان الخدمة الاجتماعية . وكان هؤلاء اثبت قتال الصليبيين على القتال واصلبهم عودة ، واكثرهم صبورا وشجاعة . وكان ملجؤهم

١ - Lane Poole: Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem, Beirut 1964, P.26

٢ - عاشور: المرجع السابق ، جز ١ ، ص ٤٨٤ - ٤٨٥

٣ - الاسبتارية هم فرسان المستشفى Hospitallers التي حرفت بالعربية الى اسبتارية . والداوية اي فرسان المعبد Templers والتي حرفت في العربية الى الداوية .

يتم لاف حاج فضلا عن المشفى الكبير المخصص لعلاج المرضى والعناية بهم ، والتبرع للفقراء ، والعمل على حماية طرق الحجاج من يافا وعكا والى بيت المقدس ، كما قاموا بتقديم تسهيلات ائتمانية للحجاج ، وقد ترتب على ذلك عدد من المساوي ، اذ كانت هاتان الهيئتان مستقلتان عن كل نفوذ سياسي ، فكانتا اشبه بدولة داخل دولة ، بامكانهما عقد الصلح او الهدنة دون ان تتقيدا بالسياسة العامة للدولة الصليبية (١) .

هذا ويمكن تقسيم المجتمع الصليبي في عصر الحروب الصليبية الى ما

يلى :

- ١ - الارستوقراطية الحاكمة من النبلاء والفرسان وهم قلة .
- ٢ - طبقة عامة المحاربين من الصليبيين وهم فرق المشاة في الجيش .
- ٣ - طبقة الافراخ ، وهم نتاج التزاوج بين الصليبيين الغربيين ، والمسيحيين الشرقيين من ارض وسريان وغيرهم .
- ٤ - طبقة المسيحيين المحليين الشرقيين الذين احتقرهم الصليبيون على الغالب .
- ٥ - التجار الايطاليون وهولاء تركوا في المدن الصليبية وخاصة الموانئ الساحلية ، وظلوا يكونون طبقة مستقلة قائمة بذاتها ، يختلفون بغيرهم في نطاق المعاملات المالية والتجارية .
- ٦ - المسلمون وهم اهل البلاد الاصليين وسكان المدن والبلاد التي احتلها الصليبيون ، وهم في غالبيتهم تركوا المناطق المحتلة ما عدا مدن الساحل من بانياس الى عكا ، وفي حوض نهج العاصي وسهل البقاع ، اضافة الى قبائل البدو الرحل .

١ - عاشور : المرجع السابق ، جز ١ ، ص ٤٨٦ - ٤٨٧ .

٧ - الرقيق والآفان ، ونص قانونهم حول ذلك (ان العبيد
والفلاحين والاسرى كالمواشي يخضعون لقانون البيع والشراء ،
وان للسيد ان يفعل ما شاء بعبيده) .

كانت اللغة السائدة في المناطق الخاضعة للصليبيين اللغة الفرنسية
بوجه عام والتي دخلتها بعض الالفاظ العربية ، الى جانب لغات اوروبية
اخرى اقل منها استعمالا (١) .

الفصل الثاني

الزنجيون وتوحيد مصر والشام ، وموقفهم من الصليبيين

تمهيد

الدولة الزنكية وتأسيسها

جهود عماد الدين زنكي في توحيد الجبهة الاسلامية

عماد الدين زنكي والصليبيون

١ - موقفه من صليبي انطاكية

٢ - استعادة امارة الرها

مقتل عماد الدين زنكي

نتائج سقوط الرها - نورالدين محمود والحملة الصليبية الثانية

١ - نتائج سقوط الرها

٢ - الحملة الصليبية الثانية

اعمال نورالدين محمود زنكي

١ - نورالدين والصليبيون

٢ - محاولات نورالدين توحيد بلاد الشام تحت امرته

أ - ضم حمص والرحبة

ب - فتح نورالدين لمدينة دمشق

٣ - نورالدين بين ضم دمشق والسيطرة على مصر

٤ - نورالدين وتوحيد مصر والشام

أ - حملة شيركوه الأولى على مصر

ب - حملة شيركوه الثانية على مصر

ج - حملة شيركوه الثالثة على مصر ، ووزارته

الفصل الثاني

الزنكيون وتوحيد مصر والشام

وموقفهم من الصليبيين

٥٢١-٥٦٦١/١١٢٧-١٢٦٢م

تمهيد : حين كان الصليبيون يستقرون في اطراف الشام، كان اهتمام السلاجقة منصبا على قواعدهم الاساسية في ايران والعراق، وكان الشاغل الشاغل لخلفاء العباسيين استعدادة سلطتهم في عقد ادهم، وسلموا امير قتال الصليبيين الى الامارات الناشئة في اطراف الشام وعلى رأسها امارات الموصل، التي اوضحت قاعدة المواجهة الرئيسية وخط الدفاع الاول. وقد تعاونت احيانا مع الامارات الاخرى الناشئة في بلاد الشام. وكان هذا التعاون بدافع من الحفاظ على املاكهم المعرضة للخطر الصليبي، واذ ما شعروا بان الخطر على ممتلكاتهم اصبح من قبل امارة اسلامية اخرى، فانهم لا يترددون على الاستعانة بالصليبيين ضد اخوانهم، حتى كان عهد الامارة الزنكية التي حملت على كاهلها عبء توحيد القوى المواجهة للصليبيين بشكل تام والوقوف بصلابة وحزم امامهم.

الدولة الزنكية وتأسيسها :

كان آق سنقر جد نورالدين محمود زنكي اول من ظهر على الساحة السياسية من افراد هذه الاسرة التي تنتسب الى قبائل الساب يسو التركمانية. وقد بدأ حياته مملوكا ورفيقا لطفولة وشباب السلطان السلجوقي ملك شاه. ولما اعلت الاخير عرش السلطنة، جعله من المقربين، وقبيل اعطاه حجابته (١)، واطلق عليه لقب قسيم الدولة (٢). وابدى آق سنقر

١ - ابن خلكان : وفيات الاعيان وانباة ابناء الزمان، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٧٨م، جزء ١، ص ٢٤٤-٢٤٣.
٢ - ابوشامة : تاريخ الروضتين في اخبار الرائد ولتين، دار الجليل بيروت، جزء ١، ص ٢٤٤.

لملك شاه انه اهل لهذه الثقة الممنوحة له ، فساعدته في القضاء على دولة العقيليين في الموصل وحلب ، وكانت مكافأته ولاية حلب (١) .

استطاع آق سنقر نتيجة لحسن سيرته مع الرعية في حلب (٢) ان يوطد حكمه فيها ويتخذها قاعدة لتوسيع حدود سلطان السلاجقة ، فضم اليه حصص واناميه ، وحصل على اعتراف آل منقذ اصحاب شيزر بسيادة السلطان السلجوقي على املاكهم (٣) . وما لبث آق سنقر ان ذهب ضحية للنزاع بين افراد الاسرة السلجوقية في سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م (٤) . فحفظ بركيا روق ابن ملك شاه - الذي تولى عرش السلطنة بعد ابيه - اليد البيضاء التي كانت لآق سنقر ، ومساعدته في الوصول الى العرش ، في ابنه عماد الدين زنكي الذي كان ما يزال صبيا في العاشرة من عمره حين قتل ابوه . فضم اليه ممالك ابيه وجعله في حاشية والي الموصل (٥) .

اكتسب عماد الدين زنكي اولى تجاربه في الادارة والحرب من موقعه هذا في فترة مبكرة (٦) . اتيح له بعد هذا الدخول في مشاكل العراق والنزاع بين الخليفة واعدائه ، ثم دخل معترك الحياة السياسية حين حكم واسط

١ - ابوشامة : المصدر السابق ، جز ١ ، ص ٢٤ - ٢٥

٢ - ابوشامة : المصدر السابق ، جز ١ ، ص ٢٦ - ٢٧ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جز ١٠ ، ص ٢٣٣

٣ - ابوشامة : المصدر السابق ، جز ١ ، ص ٢٥ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جز ١٠ ، ص ٤٨ - ٥٠ او ص ٢٣٣

٤ - ابوشامة : المصدر السابق ، جز ١ ، ص ٢٦ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جز ١٠ ، ص ٢٤١

٥ - ابن واصل : المصدر السابق ، جز ١ ، ص ١٠٣

٥ - ابوشامة : المصدر السابق ، جز ١ ، ص ٢٧

٦ - ابوشامة : المصدر السابق ، جز ١ ، ص ٣٧

والبصرة (١) ، وحين تولى شحنة بغداد (٢) . ثم اتيح له الظهور في محيط الامراء المقربين من السلطان اثر تزوجه من ارملة احد كبار الامراء . وعند ما شغر منصب والي الموصل بالوفاة كان زكي اكبر المؤهلين له في نظر اعيان الموصل والخليفة والسلطان على السواء ، فسلمت اليه في سنة ٥٢١ هـ / ١٢٧٧ م مع الجزيرة (٤) ، مضافا اليه ما يختمه من بلاد الشام . كما سلم اليه السلطان محمود ولديه الب ارسلان وفروخ شاه ليربيهما فعرف باسم اتابك (٥) .

جهود عماد الدين زكي في توحيد الجبهة الاسلامية

عكف عماد الدين على تنظيم امارته الجديدة ، وتقويتها ليدفع عنها كيد المعتدين . فنهض لاختيار الرجال الصالحين ليجعل منهم اوعانا له في الملوك ، وبعونا وورثا يقف بواسطتهم على ما يحدث في ارجاء البلاد ، وجعل منهم وكلاء له في عواصم البلاد المجاورة ليكون على علم بكل ما يجري (٦) .

شارك زكي كاتابك غيره من الاتابكة في الصراعات الناشئة في فارس والعراق حول السلطنة (٧) ، واصيب اثر انهزامه في بعض حروبه عند مدينة سامراء في سنة ٥٢٦ هـ / ١٣٢٢ م بجروح كادت تودي بحياته ، وفر

-
- ١ - ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٣٠
 - ٢ - ابن الاثير المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٦٤١
 - ٣ - ابن خلدون : العبرود يوان المبتدأ والخبر ، طبعة الاعلى بيروت ١٩٧١ م ، جزء ٥ ، ص ٢٢٣
 - ٤ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٦٤٣
 - ٥ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٦٤٥ - ٦٤٣ - ابن خلكان : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٢٨ Muir: The Caliphate, p. 587
 - ٦ - ابن خلكان : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٢٨
 - ٧ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٦٧٨ - ٦٧٩ Lane Poole: OP. Cit, p. 35

هاريبا حتى تكريته، حيث نهض نجم الدين ايوب لمساعدته، وابقاه عند (١) .
وعلى الرغم من النكسات التي مني بها في عملياته تلك، فإنه نال مكاسب
تذكر . فقد ضم مدينة اربل في الشرق الى املاكه، كما اصبح له وزن وسمعة
عسكرية طيبة، فسعى المتصارعون على العرش لكسبه الى جانبهم، واكتسب
ولاة الاسرة الايوبية التي كان لها مركز عسكري محمود وسمعة طيبة (٢) .

تميز عماد الدين عن غيره من اتابكة عصره بسيره الحثيث نحو توحيد
امارات بلاد الشام تحت سيادته والتوجه بالقوى الموحدة ضد الامارات
الصليبية، فبدأ قبل كل شيء بتقوية امارته بالاستيلاء على المناطق
الاستراتيجية التي تحيط بها مثل البوازيح (٣) ونصيبين (٤) وسنجار
ومنطقة الخابور وحران (٥) وجزيرة ابن عمر (٦) . كما اهتم بالمناطق
الجبلية المحيطة بالموصل، تلك المناطق المشهورة بوعورتها والتي كانت
تابعة للاكراد . فاكثف بهدم قلاع المهاجرين وقبول ولاه من يد خلفي طاعته
من زعماء عشائريهم وابقاهم في امكنتهم (٧) .

- ١ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جز ١٠ ، ص ٦٧٥
- ٢ - انظر مثلاً ابن الاثير : المصدر السابق ، جز ١٠ ، ص ٦٧٤ - ٦٧٩
- ٣ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جز ١٠ ، ص ٦٤٥
- ٤ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جز ١٠ ، ص ٦٤٦
- ٥ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جز ١٠ ، ص ٦٤٧ - ابن قاضي شهبة : الكواكب
الدرية في السيرة النورية، تحقيق محمود زايد ، ص ٩٤ - ابن خلدون :
المصدر السابق ، جز ٥ ، ص ٢٢٤
- ٦ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جز ١٠ ، ص ٦٤٥ - ابن قاضي شهبة : المصدر
السابق ، ص ٩٤ - ابن خلدون : المصدر السابق ، جز ٥ ، ص ٢٢٤
- ٧ - من القلاع التي استولى عليها قلاع الاكراد الحميدية ، والهرارية وكواش .
كما بنى قلعة العمادية . انظر : ابن الاثير : المصدر السابق ، جز ١١ ،
ص ١٤ - ١٦ - ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ص ١١٤ -
ابن خلدون : المصدر السابق ، جز ٥ ، ص ٢٢٦ -

اول اعمال عماد الدين في بلاد الشام ضمه حلب وقلعتها الى امارته فسي
الموصل منذ محرم سنة ٥٢٢هـ / ١٢٨٨م ، كما ملك في طريقه اليها مدينتي منبج
وبراغة (١) . وما ان رتب اموره بها حتى توجه بانظاره نحو اواسط وجنوب
بلاد الشام . وكانت هذه المناطق في غالبيتها تتبع للدولة البورية . وقد
استعمل الحيلة والدها ، والسياسة والحرب حيث تمكن من دخول مدينته
حماء سنة ٥٢٣هـ / ١٢٢٩م ، وحاصر بعد ها مباشرة مدينة حمص دون حد (٢)
ولكنه لم ييأس بل قام بعملية اخرى ضد ها ففشل ، ومنى بعملية عكسية ، اذ
نهض البوريون واسترجعوا مدينة حماه سنة ٥٢٧هـ / ١١٣٣م (٣) .

تودت الاوضاع الداخلية في الدولة البورية سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٥م ،
واشدت معارضة اهاليها لاميرها شمس الملوك اسماعيل ، ونسب اليه الظلم
ورأى نتيجة لشدة المعارضة ان يرسل عماد الدين زنكي ويسلم مدينة دمشق
له ، وينذره ان تأخر بالوصول ، بتسليم المدينة للصليبيين (٤) .

سارع عماد الدين لاستغلال الظروف ، فجهز جيوشه واتجه اليها ، وقبل
وصوله علم بان امور دمشق الداخلية قد تحسنت ، وان والد شمس الملوك

-
- ١- ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠ ص ٦٤٩-٦٥١- ابن خلدون
المصدر السابق ، جزء ٥ ص ٢٢٤-٢٢٥
 - ٢- ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٢٢٧-٢٢٨- ابن الاثير : المصدر
السابق ، جزء ١٠ ص ٦٥٨-٦٥٩
 - ٣- ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ص ٩٤- ابن العديم : المصدر السابق ،
جزء ٢ ص ٢٤٥-٢٤٦
 - ٤- ابن منفذ : الاعتبار في طر الولايات المتحدة ، ص ١٦٣-١٦٧-٩٨- ابن الاثير :
المصدر السابق ، جزء ١١ ص ١١- ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٥ ص ٢٢٨
 - ٤- ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٢٤٧-٢٤٨- ابن الاثير : المصدر
السابق ، جزء ١١ ص ١١- ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ،
ص ١٠٣

اسماعيل تخلصت منه لصالح ابنها الاخر شهاب الدين محمود (١) . وعلني
الرغم من ذلك ، فقد واصل زحفه اليها والقي عليها الحصار ، فقتل امام
استبسال المدافعين عنها . واضطر الى فك الحصار عنها اثر رسالة وصلته
من الخليفة العباسي المسترشد بالله ، يأمره فيها برفع الحصار عن المدينة
ومصالحة اميرها (٢) ، والتوجه على رأس قواته الى بغداد للعمل سوية ضد
السلطان مسعود (٣) . وقيل ان اهل دمشق ارسلا الى الخليفة خمسين
الف دينار ، ووعدها بتقديم مثلها كل عام اذا دفع زكي عنهم . وفك زكسي
الحصار عن المدينة ، وعرض ذلك باستعادته لمدينة حماه (٤) .

طاود زكي الكرة للتوسع على حساب الدولة البورية ، وحاصر حصن عداة
مرات بين سنتي ٥٣٠هـ / ١١٣٦ - ١١٣٨ م ، الا انه فشل في فتحها
في تلك الفترة بسبب هجمات الروم والفرنجية على المناطق المحيطة بحلب .
واضطراره الى حمايتها (٥) . ونقل عماد الدين ميدان عملياته سنة ٥٣٣هـ /
١١٣٩ م الى بعلبك ، فاعترف حاكمها بالولاء له ، وتعهد بدفع مبلغ من
المال (٦) . وما لبث ان ضمها اليه وعين عليها نجم الدين ايوب واليا ، وتابع
عملياته في المنطقة المجاورة ، ففتح المجدل وبانياس .

- ١ - ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٢٤٧ - ٢٤٨ - ابن الاثير : المصدر السابق ، ص ١١ ، ص ٢٠ - ٢١ - ابن قاضي شهبه : المصدر السابق ، ص ١٠٣
- ٢ - ابن الاثير : المصدر السابق ، ص ١١ ، ص ٢٢ - ابن خلدون : المصدر السابق ، ص ٢٣٠
- ٣ - ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، طبعة حيد رآباد ١٣٥٨ هـ ، ص ١٠٤ ، ص ٤٣
- ٤ - ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٢٤٨ - ابن العديم : زبدة الحلب ، ص ٢٠ ، ص ٢٥٩
- ٥ - ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٢٦٣ - ابن الاثير : المصدر السابق ، ص ١١ ، ص ٥٠ - ٥٦ - ابن العديم : المصدر السابق ، ص ٢٦٣ - ٢٦٤
- ٦ - ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٢٦٩ - ٢٧٠ - ابن الاثير : المصدر السابق ، ص ١١ ، ص ٦٨ - ٧٠

انتقل عماد الدين بعد ان حقق جزءا من اهدافه الى التقرب من البوريين
عليه يحقق في ذلك ما عجز عن تحقيقه في القتال . فعقد بينه وبينهم مصاهرة ،
فتزوج من والدة حاكم دمشق المعروفة بزمرد خاتون (١) ، وزوج حاكمها
بابنته . وكان حصيلة ذلك تنازل البوريين له عن مدينة حصن ، تخلصا من
تكاليف الدفاع عنها .

تغيرت اوضاع دمشق بعد هذه المصاهرة ، ان نهض معين الدين امر
مدبر امر حاكم دمشق - بعد ان تضررت مصالحه - بالتدخل في شؤون
الاسرة الحاكمة . فقتل حاكم دمشق ، وعين اخاه عوضا عنه ، مما دفع عماد
الدين للتحرك باتجاه دمشق لحصارها للمرة الثانية . واستمر الحصار
قراية سبعة شهور من ربيع الاول سنة ٥٣٤ هـ حتى نهاية السنة / شباط فبراير
١٤٠٠ م ، واعتب ذلك مفاوضات فشلت ، فعاد عماد الدين لمهاجمة المدينة ،
مما دفع امر لمراسلة صليبيي بيت المقدس طالبا منهم المساعدة فسي فك
الحصار عن دمشق ، مقابل تسليمهم مدينة بانياس بعد الاستيلاء عليها .
ووجد عماد الدين نفسه مضطرا الى الانسحاب شمالا . وفقد بذلك حصن بانياس
الحصين الذي سلم للصليبيين (٢) .

-
- ١ - ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٢٦٦-٢٦٧ - سبط بن الجوزي :
مراة الزمان ، جز ٨ ، ص ٦٥ أ - ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ص ١٠٨
٢ - ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٢٧٢ - ٢٧٣ - ابن الاثير :
التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ، تحقيق عبد القادر طليمات ،
دار الكتب الحديثة بالقاهرة ١٩٦٣ م ، ص ٥٨ - ٥٩
- ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جز ١١ ، ص ٧٣ - ٧٥ - ابن العديم
: المصدر السابق ، جز ٣ ، ص ٢٧٤ - ٢٧٥ - ابن ناصب
شهبة : المصدر السابق ص ١١٠ - ١١١

وهكذا فشل عمالدين في اتمام خطته بتوحيد الجبهة العربية الاسلامية
في بلاد الشام وفتح مدينة دمشق ، وذلك بسبب تعاون حكام دمشق مع
الصليبيين .

عماد الدين زنكي والصليبيون :

لم يبخل عماد الدين زنكي على الرغم من اهدافه في تحقيق الوحدة ،
بقتال الصليبيين كلما سنحت له الفرصة بذلك . ولكن خطته المنظمة في قتال
الصليبيين لم تبدأ الا بعد ان ثبت مركزه في امارته الجديدة بوعز امكانياتها
الاقتصادية والعسكرية ، ووجد ما يمكن توحيد من الامارات الصغيرة المتناثرة
التي تحيط بها في كل مكان ، وكانت تشكل عائق امام اية خطة يستهدف من
ورائها اعلان الجهاد العام ضد الصليبيين (١) ، وذلك لان المصالح
الخاصة لهؤلاء الامراء ، مضافة الى المنازعات المستمرة بينهم ، كانت تمنع
تشكيل حلف متماسك ضد الاعداء ، كما كان هؤلاء الامراء يشكلون خطراً
مباشراً على عماد الدين نفسه في حال تقدمه لقتال الاعداء ، وبخس من
بعضهم ان يعملوا ضده ويقطعوا عليه خط الرجعة ، او ان يتحالف البعض
مع الصليبيين (٢) .

هذا ويمكن تقسيم المجابهة بين عماد الدين والصليبيين الى قسمين ،
اولهما وقائعه ضد اماره الرها المجاورة لمقر ولايته الموصل ، والتي تفصل
بينها وبين ممتلكاته الجديدة في شمال بلاد الشام ، وثانيهما وقائعه ضد
امارتى انطاكية وطرابلس المجاورتين لاملأه الجديدة .

١ - انظر فيما سبق : عماد الدين وجهوده في توحيد الجبهة الاسلامية .
٢ - عماد الدين خليل : عماد الدين زنكي : الدار العلمية بيروت
١٩٧١ م ، ص ١٣٨

١ - مع انطاكية :

بدأت علاقات عماد الدين مع امارة الرها بعقد هدنة مؤقتة مع اميرها لمدة سنتين ، فرضتها عليه ظروف الساعة (١) . وقد استغل عماد الدين هذه الهدنة ، فنهض لفتح مدينة حلب واتخذها نقطة انطلاق في توحيد جبهة بلاد الشام (٢) . كما استغلها لقتال صليبي انطاكية ، وابعادهم عن سواد حلب ، ففتح حصن الأثارب سنة ٥٢٤هـ / ١٣٠١م (٣) ، ذلك الحين الذي وضع فيه صليبيو انطاكية قوة ما فتئت تهدد حلب (٤) . وقد كان لهذا العمل نتائج على جانب كبير من الاهمية ، على رأسها ان الامور في بلاد الشام بدأت تسير لصالح المسلمين . وقد اوضح ذلك ابن الاثير وابن قاضي شهبة (٥) ، فقال الاول معبرا عن ذلك (٥٠٠) . وقد استتار المسلمون بتلك الاعمال ، وضعفت قوى الكافرين ، وعلموا ان البلاد قد جاءت ما لم يكن لهم في حساب . وصار قصاراهم حفظ ما بأيديهم بعد ان كانوا قد طمعوا في ملك الجميع . ثم توغل زكي عبر اراضي انطاكية ، فنزل على حصن حارم المنيع ، ولم يتراجع عنه حتى منح اهاليه نصف دخلهم ، وبهذا عكس عماد الدين الاوضاع القائمة بين حلب وفرنجة انطاكية لصالح حلب (٦) . واتبع ذلك بالاستيلاء على خمسة معاقل اشهرها معرة النعمان وكفرطاب وزردنا وتل اغدي (٧) ، فابعد بذلك صليبيي

١ - ابن الاثير: التاريخ الباهر ، ص ٣٧ Lane Poole: Ibid, p. 49

٢ - انظر فيما سبق

٣ - اختلف المؤرخون حول تاريخ فتح هذا الحصن انظر حول ذلك عماد الدين خليل: المرجع السابق حاشية ٢٣ ص ١٤١-١٤٢

٤ - ابن الاثير: التاريخ الباهر ص ٣٩-٤٢ - ابن الاثير: الكامل في التاريخ ، جزء ١ ، ص ٦٦٢ - ابن قاضي شهبة: المصدر السابق ، ص ٩٧

٥ - ابن الاثير: الكامل في التاريخ ، جزء ١٠ ، ص ٦٦٣ - ابن قاضي شهبة: المصدر السابق ، ص ٩٧

٦ - ابن الاثير: التاريخ الباهر ص ٤٢-٤٣ - ابن العميد: المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٥٩

انطاكية بشكل واضح عن مدينة حلب .

أدت هذه الانتصارات التي حققها عماد الدين ضد الصليبيين إلى تنبيههم إلى تزايد خطره على ممتلكاتهم في بلاد الشام ، وإلى ضرورة توحيدهم لتوجيه ضربة حاسمة إليه ، فاستغلوا انشغاله في حصار حصص ، وجمعوا قوات الإمارات الصليبية المختلفة لمباغتته . ورأى عماد الدين زكي بمهارته العسكرية أن يدع حصار حصص ، ويعمل على مهاجمة حصن بعربين الحصين التابع للصليبيين (١) ، ويفرض عليهم مكان المعركة . وما أن بدأ زحفه إليه حتى واجهته القوات الصليبية ، ودارت بينهما معركة كانت لصالح عماد الدين ، فشنت عليهم ، وأسرامير طرابلس ريموند ، على حين فر فولك ملك بيت المقدس ملتجئاً إلى حصن بعربين (٢) . ووجد من بقي على قيد الحياة منهم عظم الكارثة ، فأتجهوا إلى مسيحيي المشرق والمغرب طالبين النجدة ضد عماد الدين زكي .

تقدم عماد الدين زكي اثر انتصاره المذكور سنة ٥٣١هـ / ١١٣٧م نحو حصن بعربين ، وحاصره حصاراً شديداً ، ومنع عنه وصول العدة والعتاد ، وعزله عن العالم الخارجي عوا تاماً ، مما جعل موقف المحاصرين وأملهم ضعيفاً في النصر ، فطلبوا الصلح ، فأجابهم إليه عماد الدين زكي لعلمه بأن نجدات عسكرية فرنجية وبيزنطية في طريقها لنجدة الحصن بقيادة الامبراطور البيزنطي حنا كومنينوس ، واشترط عليهم تسليم الحصن ، ودفع مبلغ قدره خمسون الف دينار ، مقابل اطلاق سراح امرائهم الاسرى (٣) .

١ - ويكتب ايضا باريين ، انظر خريطة رقم
٢ - ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٥٨ - ٥٩ - ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ص ١٠١
٣ - ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٥٨ - ٥٩ - ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ص ١٠١ - اما بوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ص ٤٤ - وابن الاثير : التاريخ الباهر ص ٥٩ - ٦١ - وابن قاضي شهبه : المصدر السابق ، ص ١١١ - ١١٢ فيذكر ان فتح بعربين مع خلافتي تاريخ الفتح ، اذ يد كرونسنة ٥٣٤هـ

وصل المتحالفون من صليبيين وبيزنطيين الى المنطقة ، فوجدوا ان حصن
بعرين قد سقط في يد عماد الدين زنكي ، و اراد حنا كوميئين ان لا يعود السى
بلاد دون ان يحقق شيئا ، فقرر الاستيلاء على الاملاك الزنكية في بلاد
الشام وعلى راسها حلب وشيزر وحماه وحمص . ومن اجل ذلك عقد اتفاقا
مع امير انطاكية ، ينص على تسليم امير انطاكية للإمبراطور البيزنطي مدينة
انطاكية ، مقابل اعطائه المناطق التي قرر الاستيلاء عليها في الشام (١) .

بدأ الإمبراطور البيزنطي في تحقيق ما قرره بالتقدم الى حصن براغة
القريب من حلب ، واستولى عليه . ثم انتقل الى حلب ولقى الحصار عليها ،
فجوه بمقاومة هيفة دعتة الى فك الحصار عنها . وفي طريقه احتل حصن
الاثارب ، كما استولى على معرة النعمان ، ولقى الحصار على شيزر . ولكن
صعود عماد الدين زنكي مع آل منقذ ، واخبار قرب وصول نجدات من
الامارات العربية الاسلامية المجاورة ، اضافة الى وجود خلاف بين امراء
الصليبيين حول الاهداف ، وتخوف الصليبيين من البيزنطيين أدى الى
انهاء حصار القوى المتحالفة لشيزر ، وعودتها الى انطاكية ، وفسح بذلك
المجال امام عماد الدين زنكي للاستيلاء على آلات الحصار الثقيلة ونقلها
الى قلعة حلب (٢) .

وهكذا فشل المتحالفون من بيونطيين وصليبيين في تحقيق اهدافهم .

- ١- انظر عماد الدين خليل : المرجع السابق ص ١٤٣-١٤٤
- ٢- ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٢٦٦- ابن منقذ : المصدر السابق ،
ص ٢٠٢
- ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، جز ١١ ص ٥٣- ٦٠ - التاريخ الباهر ،
ص ٥٥-٥٦ - ابن العديم : المصدر السابق ، جز ٢ ص ٢١٨-٢١٩ - ابن قاضي
شبهه : المصدر السابق ص ١٠٨- ابن خلدون : المصدر السابق ،
جز ٥ ، ص ٢٣٣

وتوحيد كلمتهم . وانتهى امرهم بالخلاف ، وادى ذلك الى تردى العلاقات بين البيزنطيين والصلبيين ، وعدم استطاعتهم القيام بعمل سريع ضد عماد الدين زنكي في المستقبل . على حين ان عماد الدين استطاع في خلال مدة ثقل عن سنتين من استرجاع كل ما احتله البيزنطيون من حصون محيطه بحلب (١) .

٢ - سقوط اماره الرها

حقق عماد الدين زنكي قمة انتصاره على الصليبيين ، حين بدأ مواجهة الجبهة الصليبية الثانية ، واقصد بذلك قضاؤه على اماره الرها . وقد كان هناك عدة اسباب تدفع عماد الدين الى القضاء على هذه الامارة ، لسن ادخل تفاصيلها ، ويكفي ان اذكر انها كانت تفصل بين املاكه في الموصل والشام ، وان امراءها كانوا يتحالفون مع بعض الامراء المسلمين ضد عماد الدين زنكي . ومن ذلك تحالف اميرها جوسلين الصليبي مع امير حصن كيفا الارمني ، فكان ذلك من الاسباب المباشرة التي دفعت الى تحقيق حلمه . وقد ساعد عماد الدين في عمله هذا عوامل متعددة منها :

أ - ضعف الامارات الصليبية في نهاية العقد الرابع من القرن السادس الهجري ، بسبب ما حل في قيادتهم من الضعف ، وما ذكر بينهم من الخلاف . ففي بيت المقدس توفي كبيرهم فولك وخلفه بلدوين الثالث الصغير . وفي الشمال كان التنافس شديدا بين امير انطاكيه وامير الرها ، ذلك التنافس الذي انقلب الى عداء . وبذلك فقد امير الرها جوسلين المساعدة من اقرب الامارات الصليبية اليه (٢) كما كان

١ - انظر ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ١ ص ٨٢ - ابن العديم : المصدر السابق ، جزء ٢ ص ٦٨ - عماد الدين خليل : المرجع السابق ص ١٤٨

٢ - عماد الدين خليل : المرجع السابق ، ص ١٥٠ نقل عن رنسيان

صليبيو الرها قد فقدوا الامل في المعونات البيزنطية (١) .

ب - لم يكن جوسلين الثاني امير الرها يماثل ابيه في شجاعته وقوته وبلائسه ضد المسلمين ، بل كان من ذلك النوع الذي يوشح الراحة والعافية ، الى جانب انه لم يكتسب قلوب رجاله من الفرنجة ، ذلك لانه كان يميل الى الارمن وغيرهم من طوائف المسيحيين الشرقيين كالسريان ، ويفضلهم على المسيحيين الغربيين ، مما سبب قلقا بين فرسانه الصليبيين ، واوجد نوعا من عدم الاستقرار داخل الرها ، وقد يكون لنشأته الاولى اثر في ذلك باعتبار ان أمه ارمنية (٢) .

ج - متانة موقف عماد الدين في شمال بلاد الشام في سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٤م ، وحصانة حدوده من الغرب ، وامكانية توجهه نحو الشرق .

د - سوء الوضع الداخلي في اماره الرها . فقد كان سكان الامارة في غالبيتهم من السريان واليعاقبة والارمن ، اضافة الى وجود بعض مدن اسلامية ضمن الامارة . ولم يعمل الفرنجة على اقامة حكومة مركزية ، بل استعاضوا عن ذلك بما شيدوه من حصون منيعة شحنتها بالجنود .

هـ - رغبة عماد الدين زنكي باستعادة الرها وعمله الدؤوب من اجل تحقيق ذلك (٣) . وما يغذى هذه الرغبة ، اهمية موقع الامارة ، فهي تتوسط

١ - انظر فيما سبق

٢ - الباز العريني : الحروب الصليبية ، ص ٥٢٣ - ٥٢٤ - عشر : الحركة الصليبية ، جزء ١ ، ص ٦٠٤

٣ - ابن القلائسي : المصدر السابق ، ص ٢٧٩ - ابن العديم : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٧٨

بين دولات اسلامية ، وتشكل خطرا كبيرا على خطوط المواصل بين دول اسلامية بين الموصل وحلب ، وبين بغداد وسلاجقة الروم فسي آسبه الصغرى (١) . وقد شعر جوسلين برفبة عماد الدين تلك ، فوضع يده في يد بني ارتق في ديار بكر للوقوف في وجه زنكي .

قرر عماد الدين زنكي مهاجمة الاراتقة ، وانتزع منهم عدة قلاع في ديار بكر . وبدوا ان اتجاء عماد الدين ضد الاراتقة كان خدعة منه ليطمئن اهل الرها ، فيأخذهم على حين غرة (٢) . وبدوا ان جوسلين الثاني خاف عماد الدين ، وانه صده . ما اعلن من ان عماد الدين جاء لتأديب الاراتقة ، وانه مشغول بهم عن مهاجمة الرها ، فترك عاصمته وعبر الفرات الى تل باشير على الضفة الغربية للفرات ، ليهاجم ممتلكات عماد الدين في منطقة بعيدة عن اماكن تجمعه (٣) .

علم عماد الدين بوضع الرها عن طريق رجاله ، فترك ما هو فيه ، وانقض عليها فورا ملقيا عليها الحصار في جمادى الاولى ٥٣٩هـ / ٢٨ تشرين الثاني نوفمبر سنة ١١٤٤م . ولم يستطع جوسلين العودة بمفرده ، فبقي في مكانه بانتظار وصول امدادات من انطاكية وبيت المقدس (٤) .

عمل زنكي جاهدا على دخول مدينة الرها بشكل سلمي ، فلم يوفق (٥)

١ - The Stevenson: The Crusaders in the east

(Cambridge 1907), p.153

٢ - ابن الاثير: المصدر السابق ، جزء ١١ ، ص ٩٨

٣ - ابن الاثير: الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ، ص ٩٨-٩٩ - التاريخ الباهر ، ص ٦٧-٦٨ .

٤ - عماد الدين خليل : المرجع السابق ص ١٥٠-١٥١

٥ - ابن الاثير: التاريخ الباهر ، ص ٦٨-٦٩

اذ رفض اهالي المدينة التسليم ، وقاوموا الحصار الذي استخدم فيه عماد الدين الآلات الضخمة ثمان وعشرين يوما ، ومالبت المدينة ان سقطت بيده في السادس والعشرين من شهر جمادى الثانية سنة ٥٣٩هـ / ٢٣ كانون الأول ديسمبر ١١٤٤م^(١) اثر نسف أبراجها بالنقب في الارض حتى اساساتها وايقاد الحطب .

عمل عماد الدين على كسب ود اهالي الرها ، فاتبع معهم سياسة حكيمة تدل على بعد نظر . فلم تكذب موجة الاضطراب التي اعقبت تدفق المسلمين داخل المدينة تنهبي ، حتى امر عماد الدين رجاله بالكف عن القتل ، وشمل الاهالي من المسيحيين المحليين بحمايته ، ومنع جنوده من الاعتداء على احد ، و اضاف بان امر جنوده برد كل ما استولوا عليه من غنائم ، واعادة كل من اسروه من الرجال والاطفال والنساء الى منازلهم^(٢) . كما سمح لمن غادر المدينة من المسيحيين الشرقيين بتأثير الاضطهاد الصليبي بالعودة الى مدعنتهم كذلك احتفظ عماد الدين لهم بكنائسهم ، في حين انه دمر كنائس الصليبيين الكاثوليك وبذلك أوجد عماد الدين لنفسه زعامة محلية تويده بوجود حمايته فقط فسي المدينة للدفاع عنها . وعادت الرها بذلك مدينة تدبر بالتبعية لاثابكيسة الموصل .

عمل زنكي بعد سقوط الرها على الاستيلاء على بقية المعاقل الصليبية شرقي

١ - ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ص ١١٥

٢ - ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ٦٩ - الكامل في التاريخ ، جز ١١ ، ص

٩٩ - ابن واصل : منج الكروب ، جز ١ ، ص ٨٨ - ابن قاضي

شهبة : المصدر السابق ، ص ١١٦ .

الفرات ، فاستولى على مسروج الحصن الهام الثاني في رجب ٥٣٩ هـ / كانون الثاني يناير ١١٤٥ م (١) ، وحاصر البيرة التي تقع على اهم مخاضة في نهر الفرات ، الا انه علم بمؤامرة تدبر ضدّه في الموصل ، وبمقتل نائبه فيها ، فاضطر الى رفع الحصار والذهاب الى الموصل لاقرار الامور فيها (٢)

مقتل عماد الدين زنكي

لم يكد زنكي يفرغ من اخماد فتنة الموصل ، حتى اعد حملة كبيرة ، وزودها بالات الحصار ، واعلن انه في صدد قتال الصليبيين دون ان يحدد وجهته . وفي اثناء خروجه ، علم بتآمر الارمن في الرها فاسرع اليها وقضى على المؤامرة ، ثم توجه الى قلعة جعبر على الفرات وهي تتبع لبني عقيل ، فحاصرها بقصد فتحها (٣) . وفي اثناء حصارها قتل فجأة على يد احد خصيائه في جمادى الثانية ٥٤١ هـ / تشرين الثاني نوفمبر ١١٤٦ م (٤) . فانصرف غالبية قيادة الجند وزعماء الموصل لتسليم الامارة الى ابن عماد الدين زنكي الاكبر المعروف بغزالي . على حين ان بعض قادة الجند كأسد الدين شيركوه رأوا اعطاء الامارة الى نورالدين محمود ، والاسراع بالسير حيثما مع حشد الشام الى حلب (٥) . وقد أدى اختلاف الآراء والمصالح حول السلطان بعد عماد الدين زنكي الى تقسيم امارته الى قسمين ، في حلب والموصل . ولم يكن هذا الانقسام نهائيا ، بل بقي التضامن والرابطة بين زعماء الزنكيين قوية . وقد بدأ اللضامن في هذه الاسرة في قضية تمتع ابناؤه الامير المتوفى بحكم مناطقهم حكما مستقلا ،

-
- ١ - ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٢٨٠ - ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ٦٩ - الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ص ٩٩ - ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٢٣٦
 - ٢ - ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ٧٠ - ٧١ - ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٢٣٦
 - ٣ - ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ص ١٠٩
 - ٤ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ص ١١٠ - ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ص ١١٩ - ٥ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ص ٤٦ - ٤٧ - ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ٨٤ - ٨٦ - ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ص ١٥ و ١١ و ١٢

وتبقى للابن الاكبر مكانة الزعامة ، ويتعاون الجميع لصد الاخطار المشتركة (١)

نتائج سقوط الرها - نور الدين محمود والحملة الصليبية الثانية

١ - نتائج سقوط الرها

كان لسقوط الرها في يد المسلمين رد فعل عنيف في الغرب الأوربي والعالم العربي الاسلامي . فقد وجد العالم الاوربي في سقوط الرها نذيراً وأيداناً بتضعف البناء الصليبي بكامله ، وتنبئها بخطر الاوضاع فسي الجزيرة والشام التي استعادت نشاطها ، مما دأهم الى ارسال حملة صليبية ثانية . كما دفع ذلك امير انطاكية الى ادراك عدم تمكنه من مجابهة عماد الدين زنكي بمفرده ، فاعلن تبعيته للامبراطور البيزنطي مقابل مساعدته ضد عماد الدين (٢) . اما نتائج هذا الفتح على العالم العربي الاسلامي ، فبدأ في شعور المسلمين بقوتهم ، وشعورهم بإمكانية القضاء على الصليبيين . فدفع هذا من جاء بعد عماد الدين لتحقيقه (٣) . وقد حقق هذا الفتح على صعيد الامارة الزنكية نتائج على درجة كبيرة من الاهمية . فقد ادى بالدرجة الاولى الى اتصال املاك الزنكيين ، وفتح الطريق للسي آسية الصغرى . واعطى لعماد الدين مكانة هامة امام السلطان السلجوقي والخليفة العباسي (٤) .

-
- ١ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٤٧ - ٤٨ - ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ٨٧ - ٨٨ .
 - ٢ - عماد الدين خليل : المرجع السابق ، ص ١٥٤
 - ٣ - ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ٦٩
 - ٤ - ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٢٨٤ - ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ٦٩ - ٧٠ .
- الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ، ص ١١٢

٢ - الحملة الصليبية الثامنة

انرسقوط الرها اتخذ القرار بارسال حملة صليبية عرفت باسم الحملة الصليبية الثامنة ، قادها كل من لويس السابع ملك فرنسا ، وكونراد الثالث امبراطور المانيا (١) ، ووافق كل منهما جيشا يتألف من سبعين الف مقاتل في مصادر ، وعشرين الفا في بعضها الآخر ، كما اتخذت هذه الحملة طريق البر دون البحر ، لثلا تعتمد على اسطول جزيرة صقلية . واجهت الحملة صعوبات في القسطنطينية واسية الصغرى لاسباب متعددة كان على رأسها :

- ١ - انعدام الثقة بين الصليبيين والبيزنطيين مما دفع البيزنطيين الى عقد صلح مع السلاجقة بعد ان كانوا على وشك الانحصار عليهم . وقد بدا ذلك في بعض الأمور منها :
- ما فعله الصليبيون من اعداء على اهالي البلاد التي مروا بها ، وما قاموا به من نهب وسلب .
- اشترط البيزنطيون لمساعدة الحملة ، تعهد رؤسائها باعلان تبعيتهم للبيزنطيين من جهة ، الى جانب تسليمهم كسل ما يستولون عليه في آسية الصغرى من السلاجقة . وكانت الصعوبة في اعلان التبعية لبيزنطية تنبع من كون زعماء الحملة من كهنة ملوك الغرب الاوربي ، وليسوا مجرد امراء محليين كما هو الحال في الحملة الاولى .

١ - زكي النقاشي : العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العسرب والا فريج خلال الحروب الصليبية ، دار الكتاب اللبناني ١٩٥٨ م ص ٤٥

رفض كونراد الثالث الاعتراف بالتبعية للامبراطور البيزنطي لذلك فانه حرم من المساعدات البيزنطية ، كما انه اخطأ باجتياز طريق اواسط آسية الصغرى ، فتعرض لهجمات شديدة من قبل السلاجقة أدت الى فشله (١) . على حين اذعن الملك لويس السابع لرغبة الامبراطور البيزنطي بتقديم يمين الولاة والتبعية ، وسلك الطريق المحاذي لساحل البحر الابيض المتوسط ، حتى انطاليا ، ومنها ركب البحر الى انطاكية .

حين وصل لويس السابع مع جنوده الى انطاكية ، وجد نفسه وسط تيارات متعارضة امام محاولة امراء الصليبيين في كل امانة جذبته الى طرفه ، لتحقيق اهداف خاصة . وافلح ملك بيت المقدس في صرف الحملة عن اهدائها التي خرجت من اجلها ، واقنع ملك فرنسا بمهاجمة مدينة دمشق والاستيلاء عليها .

لقد اتخذ هذا القرار الخاطيء الذي يدل على خيال ضيقهم خلال اثنى الصلحة الثانية لملكة بيت المقدس وزعمائها ، علما بانه لا عداوة بينهم وبين ملوك دمشق الذين لم يحاولوا التوسع على حساب الصليبيين ، بل كانوا اقرب الى العطاء ، وعلى ايديهم سلمت مدينة بانياس للصليبيين (٢) . على حين كان الزنكيون يشكلون خطرا كبيرا ، عمل قادتهم على التوسع على حساب الصليبيين ، فغضوا على امانة الرها ، وقلصوا حدود امانة انطاكية . ويبدو ان هذا القرار اتخذ للثأر والانتقام من حكام دمشق الذين نهضوا للدفاع عن مدينة بصرى بالتعاون مع نورالدين زنكي في العام السابق . اضافة الى مطامعهم في المنطقة الغنية والخصبة التابعة لامانة دمشق ، وقطع الطريق بين مصر

١ - عاشور : اوربا في العصور الوسطى ، ص ٤٤٠

٢ - انظر فيما سبق

وبلاد الشام . وفوق هذا وذلك فان اسم مدينة دمشق ورد في الكتاب المقدس
فاحتلالها تروى لجمد المسيح في سائر الانحاء .

وصل الصليبيون الى دمشق ، والقوا الحصار عليها في ربيع الاول سنة ٥٤٣ هـ
٢٤ / ١١٤٨ م (١) وعلى الرغم مما بذلوه من جهد ، فانهم
فشلوا في تحقيق اهدافهم لعدة اسباب (٢) :

١ - قوة دفاع معين الدين اثر عن المدينة ، وتهديد الصليبيين
بتسليمها للزنكيين مع استخدام السياسة ايضا بوعدهم باعطائهم
حصن بانياس اذا جلوا عنها .

٢ - خوف الصليبيين من وصول الزنكيين وانصارهم لتجدة المدينة
وهم في وضع لا يحسدون عليه ، فيقعون بين قوة المدينة وقوة
القوات الاسلامية المتحدة (٣) .

٣ - شدة الحر وقلة الماء ، بسبب سوء المعسكر الذي اتخذوه
الصليبيون وذلك بعد انتقالهم من غرب المدينة الى شرقها (٤)
٤ - انقسام الصليبيين على انفسهم حول وضع مدينة دمشق بعد
فتحها ، هل تصبح تابعة لامارة بيت المقدس ، ام تشكل امارة
مستقلة جديدة ؟

نتج عن فشل الحملة في تحقيق اهدافها ، ان قوت نفوس العرب
والمسلمين الذين كانوا يخشون دائما من وصول حملة صليبية جديدة فتعمل
على تأسيس امارات اخرى . ولكن هذا الوهم انكسر ، فوصلت الحملة ولم

١ - النقاش : المرجع السابق ص ٤١

٢ - انظر تفاصيل المعركة في : ابن القلائس : المصدر السابق ص ٢٩٧ - ٣٠١ -
ابوشامة : المصدر السابق ص ٥١ - ٥٢ - ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ٨٨ -
٨٩ - الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ص ١٢٩ - ١٣١

٣ - ابن الاثير : الباهر ص ٨٨ - ٨٩

٤ - ابن الاثير : الباهر ، ص ٨٩ - الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ص ١٣٠

تستطع الوقوف امام جزء من القوات العربية الاسلامية . وانتعشت آمال أهل الشام ووثقوا بقوتهم ، وبدأ لهم ان الاجهاز على الصليبيين كلهم لهمس — بالامر المستحيل . وبدأ نورالدين محمود امير الزنكيين في حلب يعمل على استغلال الفرقة بين الصليبيين ، لينفرد بكل دولة صليبية على حدة . اما عن الصليبيين ، فقد زرع هذا الغسل الفرقة بين صفوفهم ، وبينهم وبين البيزنطيين .

اعمال نورالدين محمود زنكي

١ - نورالدين والصليبيون

كانت المنطقة التي اصبحت من املك نورالدين من اخطر المناطق ، لا حاطتها بالا حد . الذين كانوا يترقبون الفرص للانقضاض . وقد استطاع نورالدين على الرغم من كل شي . التغلب على اكثرها . ثم تابع مسيرة والده في جهاد الصليبيين واتمام عملية التوحيد .

دق ناقوس الخطر للمرة الاولى بعد مقتل عماد الدين زنكي بسبعة ايام ، اذ نهض امير انطاكية بوهموند (١) بعد علمه بما جرى لعماد الدين . فجمع قواته بسرية تامة ، فوجه قسما منها الى حماه ، وقاد القسم الاخر باتجاه حلب ، ففاجأ الناس وهم آمنين . وكان لعنصر المفاجأة هذا وقع سيئ على الناس مما مكن بوهموند من قتل وسبي عدد كبير منهم ، وغنم غنائم كثيرة استاقها امامه (٢) .

نهض اسدالدين شيركوه الذي كان يعمل في قيادة نورالدين لسرد هذه الغارة وتخلص الاسرى ، وتمكن من تحقيق جزء من اهدافه ، واستنفذ

١ - بوهموند يعرف بالمصادر العربية باسم بيمند او بيمنت

٢ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٤٨

عدد كبير من الاسرى . ثم عرج على ارتاح ، واستاق جميع ما كان للفونج بها ،
وعاد الى حلب مظفرا (١) .

كما تلقى نورالدين محمود هجمة اخرى من قبل ابن حاكم الرها السابق
جوسلين (٢) الذي نهض من قاطنه الجديدة تل باشر محاولا استعادة
الرها . فتمكن من الاستيلاء على المدينة دون القلعة ، الا ان نورالدين محمود
قدم لانقاذها جادا في السير في زهاء عشرة آلاف فارس بعد ان طلب
الخدمة من اخيه في الموصل . وتمكن من دخول المدينة ، وهزم ابن جوسلين .
وحين وصل المدد من الموصل كان نورالدين قد قضى على هذه المحاولة
نهائيا (٣) .

كما واجه نورالدين صليبيي بيت المقدس حين استنجد به صاحب
دمشق معين الدين اتريسأله الخدمة . وملخص الوضع ان معين الدين اتر
كان على علاقة سيئة مع التوتاش (٤) نائبه في حكم صرخند وبصرى . فاستغل
خروجه من صرخند لمقابلة الصليبيين ، والاتفاق معهم ضد حكام دمشق ، فارسل
جيوشه الى المنطقة حيث منع التوتاش من العودة اليها .

حاول صليبيو بيت المقدس اعادة التوتاش الى املاكه ، فراسلوا اتر
بالتهديد والوعيد والتلطف . دون ان يرعوا من جانبهم المعاهدة بينهم
وبين امارة دمشق . وحين علم بتجمعهم للمسير اليه ، راسل نورالدين محمود
الخدمة ، فاستجاب له نورالدين مظهرا كل اعتدال في طلب الثمن اذ حصصه

١ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٤٨ - ابن القلاسي : المصدر السابق ،
ص ٢٨٨ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ، ص ١٢٢

٢ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٤٨ - ٤٩ - ابن قاضي شهبة : المصدر
السابق ، ص ٢٣ ، امان في ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ، ص ١١٤
فهو جوسلين نفسه

٣ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٤٨ - ٤٩ - ابن قاضي شهبة : المصدر
السابق ، ص ١٢٣ - ٤ - هو غلام امين الدولة كمشكين الاتابكي

باستعادة حماه فقط . واجتمع الطرفان على مقربة من دمشق لاعداد العدة لمواجهة الفرنج . ثم تقدمت جيوشهما لضرب جزء منها الحصار على بصرى ، وفي الجيش الرئيسي على مقربة من صرخد ، في الوقت الذي وصلت فيه انبساط . تقدم صليبي بيت المقدس باتجاه بصرى .

توجه نورالدين محمود ومعين الدين اثر بجيوشهما الى بصرى ، حيث اجبرا الصليبيين على الانسحاب ، ومن ثم استسلمت بصرى وصرخد الى معين الدين اثر (١) ، الذي اكلفى بهذا القدر من النصر ، ومنع جنوده من متابعة الجيش الصليبي مدعا انه يخشى ان يكون انسحابهم خدعة . وواقع الامر ان معين الدين اثر كان حريصا على توازن القوى في المنطقة ، اذ وجد في تحطيم الجيش الصليبي خطرا عليه من نورالدين نفسه . (٢) حدث هذا التعاون بين نورالدين محمود والدولة البورية ، على الرغم من ان البوريين استغلوا ظروف نورالدين محمود اثر مقتل ابيه ، فاستعادوا مدينة بعلبك (٣) .

بدأ نورالدين اعماله العسكرية الهادفة ضد الصليبيين بالهجوم على الاراضي التابعة لامارة انطاكية بقصد تحريرها ، والانتقام من الهجمات المتكررة التي كانت توجهها هذه الامارة على حلب . وقرر القضاء عليها ان استطاع ، او على الاقل ان يجعل من نهر العاصي حاجزا طبيعيا بينهما . وبدأ عمله بالهجوم في سنة ٥٤٢هـ / ١٤٧م على الحصون المحيطة بحلب ، فاستولى منها على حصون ارتاح (٤) ومابوليه وكفولانا وبصرنون (٥) .

- ١ - ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٢٩٠
- ٢ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ص ٥٠ - ٥١ - ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٢٨٨ - ٢٩٠
- ٣ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ص ٤٨
- ٤ - حصن من اعمال حلب انظر باقوت الحموي : معجم البلدان ، طبعة دار صادر بيروت ، جزء ١ ص ١٤٠
- ٥ - ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ص ١٢٢ - ابوالمحاسن - المصدر السابق ، جزء ٥ ص ٢٨٠

ولكنه ما لبث ان واجه تهديد الحملة الصليبية الثانية (١) التي خرجت في الاصل كرد فعل لسقوط الرها ، وحين انجلت خطر هذه الحملة استنجد نورالدين محمود نتائجها خيرا استغلالا ، وخاصة ما حدث من فرقة بين الامارات الصليبية . وبدأ يوسع املاكه على حسابها ، وينفرد بكل اماراة صليبية على حد ، .

بدأ نورالدين اعماله ضد اماراة طرابلس بالتعاون مع معين الدين انور اثر استنجد اميرها بهما طالبا منهما التدخل الضريح لاخذ حصن العريضة القريب من طرابلس (٢) . وكان الداعي لذلك ان برتراند ابن عم امير طرابلس ومن امراء الحملة الصليبية الثانية ، قد استولى على حصن العريضة الهام بعد فشل الحملة الثانية في تحقيق اهدافها . واخذ من موقعه هذا يهدد ابن عمه في عاصمته ، ويتهمه بقتل ابيه .

سار نورالدين وانور في ربيع الاخر سنة ٤٣٤ هـ / ايلول سبتمبر ١١٤٨ م باتجاه حصن العريضة مجددين في عسكرهما ، ونازلا الحصن حتى ملكاه . واسرا من به وقتلا عائدين (٣) .

عاد نورالدين محمود بعد ذلك لمتابعة اعماله في اماراة انطاكية (٤) . ففتح حصن انب شرقي العاصي ، ثم تقدم باتجاه انطاكية ، فضرب عليهم الحصار ، واستمد العون من امير دمشق (٥) . ونهب قاطنوا المدينة

-
- ١ - انظر تفاصيل الحملة فيما سبق
 - ٢ - ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣٠٠ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٢١ ، ص ١٣١
 - ٣ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ص ٥٥ - ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٣٠٠ - ٣٠١ - ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ص ١٣٢ - التاريخ الباهر ص ٩٠ - ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٥ ص ٢٣٩
 - ٤ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ص ٥٥ - ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٣٠٢ - ٣٠٣ - ابن قاضي شهبه : المصدر السابق ص ١٢٩
 - ٥ - ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣٠٤ - ابن قاضي شهبه : المصدر السابق ص ١٣١

بتنظيم الدفاع بجديّة عنها ريثما تصلهم المعونات الصليبية من الامارات الاخرى . وشغلوا نورالدين بالمفاوضات التي قرروا على اثرها قبولهم بالتسليم بعد هدنة مؤقتة ، وحين ينقطع املهم في الحصول على المعونة الموقّبة (١) . فوافق نورالدين على ذلك ، واستغل هذه الهدنة بفتح مدينة افامية آخر حصن للصليبيين في شرقي العاصي (٢) في ١٨ ربيع الاول من سنة ٥٤٥هـ / تموز ١١٤٩م . وكان لفتحه اهمية كبيرة بسبب تهديد يهدده لدبنتي حماه وشيزر ، ولان فتحه أدى الى دفع اراضي امانة انطاكية الى ما وراء نهر العاصي واقتصارها على الساحل . ومن ثم فان نورالدين هادن اهالي انطاكية ، وقرر معهم ان يكون ما قرب من الاعمال الحربية لنورالدين وما قرب من انطاكية للصليبيين (٣) .

اهتم نورالدين اثر ذلك مع غيره من امراء المسلمين بتصفية بقايا اراضي امانة الرها . وذلك اثر تنازل ارملة اميرها جوسلين عن ممتلكاتها الى الامبراطور البيزنطي . وكان نصيب نورالدين منها راوندان وتل باشق قاعة الامارة الجديدة ، وعنتاب واهواز وقهوس وحصن البارة وتل خالد وكفرلثا وكفرسوت وحصن بسرفوت (٤) ودلوك ومرعش ونهر الجوز ومن الرصاص (٥) .

-
- ١ - ابوشامة : المصدر السابق جزء ١ ص ٥٨ - ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٣٠٥ .
 - ٢ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ص ٦٢ - ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ص ١٤٩ .
 - ٣ - التاريخ الباهر ص ١٠٠ - ١٠١ - ابن قاضي شهبه : المصدر السابق ص ١٣١ - ابوالمحاسن : المصدر السابق ، جزء ٥ ص ٢٨٥ .
 - ٤ - ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣٠٥ .
 - ٥ - حصن من اعمال حلب في جبال بني عليم
 - ٦ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ص ٧٢ - ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ١٠٢ - ١٠٤ - الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ص ٥٤ - ٥٥ - وانظر ايضا ارنست باركر : المرجع السابق ص ٩٦ .

٢ - محاولات نورالدين لتوحيد بلاد الشام تحت امرته

أ - ضم حمص والرحبة

على الرغم من مشاغل نورالدين مع الصليبيين ، فإنه كان مهتما بتوحيد بلاد الشام تحت امرته . وكان يستغل الظروف الطارئة لمصلحته . وقد واتته الظروف حين وفاة اخيه الاكبر صاحب الموصل سيف الدين غازي الذي توفي سنة ٥٤٤هـ / ١١٤٦م ، وحل محله في امارته اخوه الاصغر قطب الدين بيسن مودود . ورأى نورالدين انه قد اصبح رأس الاسرة ، ولا بد له من ان يثبت حقه هذا ، وجني ما يمكن من مكاسب مع الحفاظ على تضامن البيت الزنكي . تقدم نورالدين الى سنجار في الجزيرة في مناورة عسكرية حيث التقى هناك باخيه قطب الدين . وانتهت هذه المناورة باتفاق الطرفين على تسوية اوضاع الامارة بحيث يأخذ نورالدين كلا من الرحبة وحمص اللتين كانتا من املاك سيف الدين غازي ، على ان يسلمه سنجار وبذل لك ازيل التداخيل بيسن املاكهما ، واعترف بنورالدين راسا للاسرة الزنكية .

ب - فتح نورالدين لمدينة دمشق

اتخذت الدولة البورية التي كانت تحكم دمشق وما يحيط بها سياسة المحافظة على املاكها من المحيطين بها من مسلمين و صليبيين وكنيسرا ما حالفت الصليبيين لتعمل على وقف تقدم الزنكيين في اراضيها (١) . ولذلك عمل الزنكيون جاهدين لضمها اليهم ، والقضاء على الدولة البورية . بدأت المحاولات من قبل عماد الدين زنكي الذي فشل في تحقيقها على الرغم مما قام به . وحين تولى الامرا ابنه نورالدين محمود سار على سياسة ابيه . ولكن الظروف اختلفت الى حد ما ، فالصليبيون قاموا بالهجوم على

عاصمة حلفائهم دمشق سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م ، واضطر معين الدين ان يترك حاكمها الى الاستعانة بنورالدين ضد هم ، وفشل الحصار (١) . مما جعل لنورالدين مكانة خاصة في المنطقة .

توفي معين الدين اثر مدبر امور دمشق ، وطادت امورها الى صاحبها مجيرالدين ابي بن محمد بن بوري . ولم يكن على قدر المسؤولية التي حملها ، وتسبب في اثارة الصراع داخل امارته ، مما اطمع فيها جيرانها من الشمال والجنوب . ولما كان مجيرالدين يخشى نورالدين اكثر مما يخشى الصليبيين ، لذلك فانه طاهد هم واتفق معهم ان يكونوا يدا واحدة على من يقصد هم من عساكر المسلمين (٢) . على حين جعل نورالدين من نفسه حاميا للمناطق المهتدة من الصليبيين ، مما اكسبه مكانة خاصة في قلوب المتدينين ، وفرض على حكام دمشق احترامه . ووصل الامر بهم حين نهض لمساعدة اهالي حوران ضد صليبي بيت المقدس (٣) ان علوا على بذل الطاعة لنورالدين ، واتاموا له الخطبة على منابر دمشق بعد الخليفة والسلطان ، ونقشوا اسمه على السكك بعد هما ايضا ، مع ابقائهم على دفع المال لحلفائهم الصليبيين (٤) . وهكذا اصبح اسم نورالدين علما في مدينة دمشق منذ اوائل سنة ٥٤٥هـ / ايارس مايو ١١٤٩م ، واصبحت دمشق تتبع له اسما . وعرفه الاهالي فاحبوه (٥) . وازاد نورالدين ان يستغل وضعه هذا بوجود انصار له في المدينة ، فتوجه في السنة التالية الى مقربة من دمشق ولكنه فشل في فتحها بسبب تحريك فرجة بيت المقدس لتجدتها ، ومقاومة مدينة دمشق له .

-
- ١ - ارتست باركر : المرجع السابق ص ٩٥-٩٦
 - ٢ - ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣٠٨
 - ٣ - ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣٠٨-٣٠٩
 - ٤ - ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣١٠
 - ٥ - ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣١٠

فانسحب (١) .

لم يكن انسحاب نورالدين نهائيا بل كان ينتظر الفرصة السانحة . وقد
وجدها بعد ثلاث سنوات من هجمته السابقة على المدينة . وكانت الاسباب
المباشرة لعمله هذا تكمن في احتلال الصليبيين لمدينة عسقلان على
الساحل (٢) مما اشعره بانهم اخذوا يحدون حدودهم بعد تقليصها . وان
الامر يتطلب السرعة لاشعارهم بان العرب المسلمين واقفون لهم بالمصاد .
ولما كانت امانة البوريين في دمشق تقف حائلا في طريقه ، لذلك قرر
فتح دمشق والقضاء على هذه الامارة (٣) .

اتخذ نورالدين في هذه الجولة كافة الاحتياطات وعلى رأسها تحطيم
الدولة البورية من الداخل ، واثارة الشكوك بين مجيرالدين واعوانه ، وبينه
وبين اهالي المدينة ليشعرهم بعجزه عن حمايتهم . ولذلك فانه اتخذ عدة
اجراءات كان على رأسها :

— التضييق الاقتصادي على دمشق . ومنع وصول غلات الشمال اليها مما
تسبب في غلاء الاسعار وتحرك الشعب ضد الحكام (٤) ، وهسي
سياسة كان لنورالدين يد فيها ليجعل من التخلص من البوريين قضية
تهم كل الناس .

— عمل على التقرب من مجيرالدين حتى وثق به ، ثم اخذ يثير شكوكه ضد

-
- ١ - ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣١٣-٣١٤
 - ٢ - ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣٢١-٣٢٢ - ابن الاثير : التاريخ الباهر
ص ١٠٦-١٠٧ - الكامل في التاريخ ، جز ١١ ص ١٨٨ - ابن قاضي شهبة
: المصدر السابق ، ص ١٤٤ .
 - ٣ - ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٠٦
 - ٤ - ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٣٢٥-٣٢٧ - ابن قاضي شهبة :
المصدر السابق ص ١٤٤

احد كبار رجاله وهو عطاء الخادم ، لانه على رأى ابن القلانسي (٢) (لن يكون له امر في دمشق مع وجود عطاء) ثم تابع عمله هذا بيث عدم الثقة بين مجيرالدين وبقية رجاله مما دفع به الى التخلص منهم واحدا بعد الآخر (٢) .

- راسل احداث البلد ووظائفه واستمالهم . ووسع شقة الخسلاف بينهم وبين مجيرالدين ، ثم استمال الغاضبين الى صفه فوعدهم بمساعدته وتسليم البلد اليه (٣) . كما احسن الى الاهالي فأحبوه (٤) .
- قام انصاره بنشر دعاية فحواها أن مجيرالدين سبب كل المساوي .
- استغل قضية تخاذل البوريين امام الصليبيين وتساهلهم مع اسراهم ، ودفعهم اموال الاهالي لاعدائهم ، مع تعرض دمشق نفسها للمخاطرهم ووقوف حكماها سدا في وجه تأديب الصليبيين ، لإثارة الاهالي ضد البوريين (٥) .

استخدم نورالدين كافة الاحتياطات لفتح مدينة دمشق دون اراقة دماء . ولذلك فانه ادعى بانه في سبيل قتال الصليبيين ، وأرسل الى مدينة دمشق قطعة صغيرة من جيشه بقيادة اسدالدين شيركوه ليوهم انها سفارة (٦) لا اكثر . وحين قابلت هذه السفارة مجيرالدين ، اتضح الخلاف الكبير بينهما ، وخرج شيركوه ليعسكر خارج دمشق في الوقت الذي وصلت فيه قوات نورالدين

-
- ١ - ابن القلانسي : المصدر السابق : المصدر السابق ص ٣٢٦ - ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ١٠٦ - ١٠٧
 - ٢ - ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ص ١٩٧
 - ٣ - ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ، ص ١٩٨
 - ٤ - ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣٢٨ - ٣٢٩
 - ٥ - ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ١٠٦
 - ٦ - ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣٢٧

وعسكرت شرقي المدينة في صفر سنة ٥٤٩ هـ / تموز ١١٥٣ م (١) . ولم يجسد جيش نورالدين كبير مقاومة لا خارج الاسوار ولا داخلها ، بل مابدا كان عكس ذلك . إذ وجد مساعدة من بعض حرفييها الذين فتحوا له البواب الشرقي (٢) ، ثم فتح له باب توما (٣) .

وهكذا دخل نورالدين مدينة دمشق على الرغم من استنجاد صاحبها بالصلبيين ، واستقبلها هاليها بالحفاوة والتكريم (٤) . وقضى بذلك نورالدين على دولة البوريين ، وأصبحت أملاكه تمتد من شمال الجزيرة السورية الى شرقي الأردن في الجنوب .

٣ - نورالدين بين ضم دمشق والسيطرة على مصر

تميز نورالدين خلال فترة العشر سنوات التي سبقت سيطرته على مصر بالحدز الشديد ، فاتخذ مع الصليبيين موقفا أقرب للدفاع منه الى الهجوم . وقد بدا موقفه هذا في عقد هدنة مع ملك بيت المقدس لمدة سنة كاملة ، تعهد له فيها بدفع ثمانية آلاف دينار صورية (٥) ، وهو نفس المبلغ الذي كان يدفعه مجيرالدين صاحب دمشق لهم . وقد هدف من وراء ذلك ابعاد شبح الخوف من مملكة بيت المقدس ، لتقف عن مهاجمته وبما يدبر أموره مع سلاجقة الروم في الشمال ، ويتم سيطرته على بقية ممتلكات الدولة البورية .

لم يثق الصليبيون بهذا الاتفاق ، وأدركوا غاية نورالدين من وراء عقد ، ولذلك فانهم لم يبخلوا باقتناس الغرض لمهاجمة الاراضي التابعة له . ومن

- ١ - ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣٢٧
- ٢ - ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ١٠٧ - الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ، ص ١٩٨
- ٣ - ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣٢٧
- ٤ - ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣٢٧
- ٥ - ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣٣٦

ذلك ما قاموا به من السطو على مواشي العرب بالقرب من بانياس، وأسس من استطاعوا من السكان (١) ثم عودتهم ثانية لنفس العمل وهزيمتهم الساحة (٢) .

نهض نورالدین لتأديبهم ، وقام بهجمة مرتدة واستطاع على اثرها فتح مدينة بانياس ودمر قلعتها ، تلك المدينة التي كانوا يهددون منها مراعي الجولان . ثم ما لبث أن تركها بعد تجمع جيوش الصليبيين فيها ، وفاجأ سكان مدينة طبرية فأوقع بهم خسائر فادحة (٣) .

أدرك ملك بيت المقدس انه لن يستطيع وحده الوقوف في وجه نورالدین ، ولذلك سعى الى ايجاد حليف خارجي له . فتحالف مع الامبراطور البيزنطي مقابل اعطائه بعض الصلاحيات في انطاكية ، وأراد ان يثبت وجوده فسارحتي داريا (٤) ، ثم ترك الجنوب الى انطاكية حيث التقى بالامبراطور البيزنطي وتوجها سوياً الى حلب .

استخدم نورالدین السياسة لتفوق صفوف الحليفين . فوعد الامبراطور البيزنطي باطلاق ستة الاف اسير مسيحي مقابل عودته فوافق (٥) . وقد تكون موافقة الامبراطور البيزنطي على ذلك لعدم ثقته بالصليبيين الذين لا يرحبون بصداقته الا حين يهددهم عدو آخر ، اضافة لما يجمع بينه وبين نورالدین من العداء المشترك ضد سلاجقة الروم . وبذلك فشل هذا التحالف . وعاد المتحالفون من حيث أتوا . وورد نورالدین بحصار قلعة حارم مرات (٦) متعددة

-
- ١ - ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣٣٧
 - ٢ - ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٣٣٩
 - ٣ - ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٣٤٠ - ٣٤١
 - ٤ - ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ص ١٥٥
 - ٥ - ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣٥٧ - ٣٥٨ - ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ص ١٥٦
 - ٦ - ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ١١٦ او ١١٧ - ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ص ١٤٩ و ١٦٠

وحصار حصن الاكراد (١) .

شغل نورالدين في تلك الفترة عن مهاجمة الصليبيين في عقر دارهم بمشاكل متعددة على رأسها محاولة مجيرالدين اثار الفتنه في دمشق ضد نورالدين ، مما اضطره الى ابعاده عن حصن حيث كان قد استقر منذ فتح نورالدين لمدينة دمشق (٢) . كما عانت دمشق من وباء انتشر فيها مات فيه الكثير من الشيوخ والشباب والصبيان (٣) . ويضاف الى هذا اضطراب اوضاع حلب بسبب موقف شيعتها من نورالدين (٤) . كما هددت الزلازل المتعددة مدن بلاد الشام بالدمار والخراب ، وصرف نورالدين وقتا وجهدا ومالا في سبيل اعادة بنائها (٥) . وفوق هذا وذاك فان نورالدين اصاب بمرض كاد يقضي على حياته ، حتى ان اشاعه بموته سرت بين الناس (٦) .

٤ - نورالدين وثوحيد مصر والشام

عانت الدولة الفاطمية آلام الموت البطيء . وحل بها منذ سقوط عقلاين بيد الصليبيين أزمة خانقة تجلت في مظاهر متعددة . فاخذ الطامعون والمتنافسون يتسابقون على ضمها لاملاكلهم . وازداد الوضع الداخلي سوءا منذ تسلم الفائز الخلافة وهو طفل صغير اثر مقتل ابيه سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م . وما لبث ان توفي سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م . فخلفه العاضد وكان صغيرا ايضا . فنهض الوزراء للتنافس على السيطرة ، على شوون الخلافة ، وتنافس العادل

- ١ - ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ١١٦ - ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ص ١٦٠ - ١٦١
- ٢ - ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ١١٨
- ٣ - ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣٣٠
- ٤ - ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣٤٩
- ٥ - ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣٣٤ و ٣٣٥ - ٣٤٢ و ٣٤٣ و ٣٤٥
- ٦ - ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣٤٩ و ٣٥٥ - ٣٥٦ - ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ص ١٥٣

بين طلائع بن زريك وشاور حاكم الصعيد عليها ، وانتهى الامر بنجاح شاور
وقتل العادل وتسلمه للوزارة سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٣م . وما لبث التنافس ان دب
بين شاور وضرغام صاحب الباب ، وادى هذا التنافس الى الاستجداد بنورالدين
زكري (١) .

لم يكن التنافس بين الوزراء ، واستجداد احد هم بنورالدين ، وضعف
الفاطمييين عن مجابهة اعدائهم هو السبب الوحيد الذي دعا نورالدين الى
دخول مصر ومن ثم ضمها الى املاكه ، بل كان لمطامع الصليبيين فيها اكبر
الاسباب . وقد بدأ ذلك منذ ان استقر الصليبيون في بيت المقدس . وفكر
اول ملوكهم غودفري بذلك . كما قام بلدوين خلفه في سنة ٥١٠هـ / ١١٦٦م
بحملة استطلاعية وصل بها حتى تنيس على شاطئ بحيرة المنزلة ، حيث
مرض . وتوفي في العرش في طريق عودته سنة ٥١٢هـ / ١١١٨م . وحاو
بلدوين الثالث احتلالها وهددها ، فدفع له الخليفة الفاطمي اتاة قدرها
٦٠ الف دينار . وسعى كذلك عموري الاول (أمريك) الى احتلال مصر بعد
ثلاث سنوات بسبب توقف الدفع (٢) . وقام بغزوها سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٣م .
ولكنهم جميعا لم يستطيعوا تحقيق هدفهم كاملا . ولا يخفى علينا ان هناك
سببا قويا ربما حرك هد نورالدين الرغبة في غزو مصر ، وأعتى بذلك العامل
المذهبي . ذلك ان الخلافة الفاطمية في مصر كانت مصدرا من مصادر الفرقة
في العالم الاسلامي ، لأنها جعلت ولا المسلمين تتقاسمه خلافتان ومنذ هبان

١ - أبشامة : المصدر السابق ، جز ١ ، ص ١٠٧ - ١٠٨ - ابن شداد :
التوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية او سيرة صلاح الدين ، طبعة
اولى ١٩٢٤م ص ٤٣ - ابن خلكان : توفيات الأعيان جز ٣ ص ٤٩٩

أحد أهم الخلافة العباسية السنية في بغداد ، والاخرى الخلافة الفاطمية الشيعية في القاهرة . لذلك كان من الطبيعي ونور الدين متعصب لسنتيه ، أن يفكر في القضاء على الخلافة الفاطمية في القاهرة (١) . ويمكن القول بأن نور الدين تمكن من ضم مصر الى املاكه اثر ثلاث حملات ارسلها الى مصر بأعداد ضئيلة قياسا الى عظمة الهدف .

أ - حملة شيركوه الأولى الى مصر :

التجأ شاور الى نور الدين زنكي اثر انتصار صاحب الباب ضرغام عليه وتسلمه للوزارة ، وأخذ في تحريض نور الدين على غزو الديار المصرية ، فوجد ذلك هوى وقبولا لدى نور الدين .

كانت الحملة الاولى الى مصر في سنة ٥٥٩هـ / ١١٦٤م بقيادة أسد الدين شيركوه ، وبصحبه شاور وصلاح الدين (ابن أخي شيركوه) (٢) ، وكان في السابعة والعشرين من عمره (٣) . وقد ارسلها نور الدين بعد ان تعهد له شاور بثلاث دخل البلاد (٤) بعد اقطاعات العسكر . وأن يتصرف بأمر نور الدين ويسمح لجيش شيركوه بالاقامة في مصر (٥) .

رأى ضرغام انه لن يستطيع مقاومة جيش نور الدين بمفرده ، لذلك لم ير بدا للمحافظة على منصبه من الاستجداء بالصليبيين ، مقابل جعل مصر تابعة لهم (٦) . ولكن مهارة شيركوه وسرعته في قطع الصحراء على الرغم من تقدم

١ - عاشور : مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ، طبعة دار النهضة بيروت

٢ - ٩٧٢م ، ص ١٣-١٤ . LANE-POOLE : OP.Cit.p.81

٣ - سعيد عبد الفتاح عاشور : مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ، ص ١٢

٤ - LANE-POOLE : OP.Cit.,p.80

٥ - ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، جز ١١ ص ٢٩٨

٦ - عاشور : الحركة الصليبية ، جز ٢ ص ٦٨٣

سنة جعله يسبق الصليبيين في الوصول الى الدلتا ، فانصرف على جيش أرسله
 ضرام ، ونجح في الوصول الى القاهرة في رجب سنة ٥٥٩ هـ / مايو ايار ١٠٦٤م^(١)
 ولم يلبث الجميع ان تخلوا عن ضرام ، الا عوان والخليفة والجيش ، فقتل أثناء
 محاولته الفرار (٢) ، وتولى شاور الوزارة (٣) .

لم يرح شاور العهود التي قطعها على نفسه لنورالدين ، فلم يكد يتولى
 الوزارة حتى تنكر لأسد الدين شيركوه ، ومطلب منه الخروج من مصر (٤) .
 وقد رد شيركوه على تصرفات شاور باحتلال بليس (٥) ، فاسقط في يده ، ولم
 يجد بدا من الاستنجاد بالصليبيين (٦) . فودع عورى الأول باعطائه
 مبلغا من المال مقابل مساعدته في اخراج جيش نورالدين من مصر ، وذلك
 بأن يدفع لهم عن كل مرحلة بين بلادهم ونهر النيل البالغة سبع وعشرون
 مرحلة ألف دينار ، وأن يقدم هدية لغرضاتهم مع نفقات العلف كاملة .

حضر عورى على رأس جيش صليبي كبير الى الدلتا ، فانضم اليه شاور
 وعلى الرغم من أن شيركوه تلقى مساعدات من عرب كنانة في الشرقية (٧) ، وقوى
 مركزه في بليس ، الا انه حوصر بها (٨) . وقد نهض نورالدين لتخفيف

-
- ١ - عمارة اليميني : النكت العصرية من ٦٨ وما بعد ها - ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ، ص ٢٩٨ .
 - ٢ - عمارة اليميني : المصدر السابق ص ٧٢ - ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ، ص ٢٩٩ .
 - ٣ - احمد بن ابراهيم الحنبلي : شفاة القلوب في مناقب بني أيوب ، وتحقيق باظم رشيد ، وزارة الثقافة والقانون في العراق ١٩٧٨ م ، ص ٢ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٣٠ .
 - ٤ - LANE-POOLE : op.cit., p.81-82
 - ٥ - LANE-POOLE : op.cit., p.83
 - ٦ - الحنبلي : المصدر السابق ص ٢٦-٢٧
 - ٧ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٢١ - الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٦٢ - عاشور : مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ١٢-١٣ -
 - ٨ - LANE-POOLE : op.cit., p.83
 - ٩ - الحنبلي : المصدر السابق ص ٢٧ -
 - ١٠ - عاشور : المرجع السابق ص ١٢
 - ١١ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص

الضغط عن شيركوه بتشديد هجماته على الصليبيين في الشام ، وجعل هدفه
الاول حصن حارم ، وتمكن من فتحه ، وسجن كلا من بوهموند امير انطاكية ،
وريموند كونت طرابلس (١) .

ادرك عموري ان مصلحته في العودة ، ولم يكن شيركوه بوضع يحسد
عليه (٢) ، ولذلك جرى اتفاق بينهما على ان ينادر كل من شيركوه
وعموري مصر . وتم ذلك فعلا في ذي الحجة سنة ٥٥٩هـ / تشرين الاول ١١٦٤
م (٣) .

لقد كان لهذه الحملة اهميتها ، ان تعرف شيركوه عن كتب على سوء
احوال الفاطميين ، وتطلع الى القضاء عليهم ، وخاصة لما رآه من ثروتهم
وغناها وضعف الدفاع عنها (٤) .

ب - حملة شيركوه الثانية على مصر سنة ٥٦٢هـ / ١١٦٦-١١٦٧م

غادر شيركوه مصر الى بلاد الشام وكان في وده العودة اليها ، لذلك
بقي مدة في بلاد الشام يعد العدة في تجهيز حملة ثانية . واستمر حتى
سنة ٥٦٢هـ / ١١٦٦-١١٦٧م يدبر الخطط بالاشتراك مع نور الدين (٥) على

- ١ - ابوشامة: المصدر السابق، جزء ١٠، ص ١٣٢ - ابن الاثير: الكامل في التاريخ،
جزء ١١، ص ٣٠١-٣٠٤ .
- ٢ - الحنبلي: المصدر السابق، ص ٧ - LANE-POOLE :op.cit., p.84
- ٣ - عاشور: المرجع السابق، ص ١٣
- ٤ - ابوشامة: المصدر السابق، جزء ١٠، ص ١٣٩ - ابن الاثير: التاريخ الباهر،
ص ١٣٠-١٣١
- ٥ - الكامل في التاريخ، جزء ١١، ص ٣٠٤-٣٠٥ - LANE-POOLE:op.cit.
p. 84

الرغم من تحفظه وخشيته من القيام بمحاولة جديدة ضد مصر في الوقت الذي كثرت اشتباكات مع الصليبيين (١) . ولكن الظروف اجبرت نورالدين على ارسال حملته الثانية حين ارسل الخليفة الفاطمي العاضد اليه ، يشكو من استبداد وزيره شاور وظلمه وسفكه للدماء (٢) .

بادر نورالدين بارسال حملة شيركوه الثانية على مصر في ربيع الثاني سنة ٥٦٢هـ / ديسمبر ونهاير ١١٦٦-١١٦٧م . وكان بصحبته في تلك المرة ايضا ابن اخيه صلاح الدين (٣) . وبيدوان شيركوه علم باستجداد شاور بالصليبيين ، فلم يشأ أن يخامر بقواته في القيام بهجوم على القاهرة ، واختار ان يعبر النيل الى الجيزة حيث عسكر في مواجهة القسطنطينية على الضفة الغربية للنيل (٤) .

اسرع عموري الاول ملك بيت المقدس ليغزو مصر بجيوشه للمرة الثالثة . فخف شاور لاستقباله عند بلبليس ، واتجه معه جنوبا حيث عسكرا على الضفة الشرقية للنيل ، في حين كان شيركوه لا يزال معسكرا على الضفة الغربية (٥) .

١ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٣٩-١٤١ - ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٣٠-١٣١
- الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ، ص ٣٠٤-٣٠٥ و ص ٣٢٢

٢ - ابوالمحاسن : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٣٤٨ - عاشور : المرجع السابق ، ص ١٤ ويورد الحنبلي أن ذلك في ربيع الاول

٣ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٤٢ - ابن قاضي شمهبة : المصدر السابق ، ص ١٦٩ .

٤ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٤٢ - ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ، ص ٢٢٤ - عاشور : المرجع السابق ، ص ١٤

LANE-POOLE : op.cit., p.85

٥ - عاشور : المرجع السابق ، ص ١٤ - حسن ابراهيم حسن : الدولة الفاطمية ، ص ١٩٢

أراد الصليبيون أن يعقدوا اتفاقية مع شاور تضم لهم أجرهم قبل أن يساعدوه في محاربة شيركوه، فتعهد لهم بدفع اربعمائة ألف دينار في حال بقائهم حتى طرد شيركوه من مصر على أن يدفع نصف هذا المبلغ مقدماً (١) . وكانت هذه الاتفاقية تجعل من الصليبيين حماة لمصر والخلافة الفاطمية ، ولذا لك فانهم رحبوا بها . وحرص عموري على اعطائها صفة رسمية ، فأرسل سفارة الى الخليفة الفاطمي زارته في قصره حيث تم اعتماد الاتفاق (٢) .

أخذت قوات عموري وشاور تستعد لعبور النيل لمهاجمة شيركوه ، فعبروا الى جزيرة الروضة ، وأراد شاور ان يجعل ساحة المعركة مكانا آخر ، فاتجه الى الصعيد حيث لحق به عموري وشاور . وكان ان دارت معركة بين الطرفين قرب الأشمونين في المنيا ، حيث عسكر في خرائب هيرومبوليس القديمة (البابين فيما بعد) (٣) . وجرت بينهما معركة البابين نسي ٢٥ جمادى الاخرى سنة ٥٦٢هـ / آذار ١١٦٧م . وقد انتهت هذه المعركة بانتصار شيركوه ، نظرا لما استخدمه من خطط عسكرية جيدة (٤) . وارتد عموري حيث عسكر على الضفة الشرقية للنيل قرب الغسقاط (٥) .

لم يسرع شيركوه لاستغلال انتصاره ودخول القاهرة ، بل تباطأ وأتمر ان يستمر على الضفة الغربية للنيل لفتح الاسكندرية . فتلقاء اهلها طائعين ورحبوا به معبرين عن استهائهم لتحالف شاور مع الصليبيين (٦) .

LANE-POOLE : op.cit., p.86

- ١ - طشور : المرجع السابق ، ص ١٤ - ١٥
- ٢ - ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ، ص ٣٢٥ - ٣٢٦ - الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٣٠ - طشور : المرجع السابق ، ص ١٥
- ٣ - الحنبلي ، ص ٣٠
- ٤ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١٥ ، ص ٤٣ - ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ، ص ٣٢٦ - التاريخ الباهر ، ص ١٣٣ - حسن إبراهيم حسن : الدولة الفاطمية ، ص ١٩٢ - طشور : المرجع السابق ، ص ١٥
- ٥ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١٥ ، ص ٤٣ - ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ، ص ٣٢٦ - ابوالمحاسن : المصدر السابق ، جزء ٥٠ ، ص ٣٤٩

ترك شيركوه صلاح الدين في الاسكندرية مع خمسمائة فارس (١) ، واتجه
بباقى قواته الى الصعيد ليتم سيطرته عليه ، وفي تلك الاثناء خرج عموري لحصار
صلاح الدين بالاسكندرية برا وبحرا ، ولم يكن مع صلاح الدين سوى الف رجل
الى جانب قلة الزاد ، وعلى الرغم من ذلك فانه صبر مع اهالي المدينة على
الحصار ، وارسل يستدجد بعمه شيركوه الذي حضر بالموهن والاموال (٢) .

استمر القتال نحو خمسة وسبعين يوما ، وهدئذ ادرك عموري انه لا
فائدة من مواصلة القتال ، وخاصة حين علم عموري بسوء موقف الصليبيين في
الشام في ذلك الوقت تحت ضغط هجمات نورالدين محمود على حصون امانة
بيت المقدس خاصة (٣) . فدارت المفاوضات بشأن عقد الصلح ، وبذل
الصليبيون والفاطميون لشيركوه خمسين الف دينار واقطاعا بحصر علس ان
يرجع هو والصليبيون كل الى بلاده (٤) ، بعد ان يتم تبادل الاسرى .

لم يغادر عموري مصر في هذه الجولة الا بعد ان اتفق مع شاور علس
ان يترك بالقاهرة حامية تحمي ابوابها ، وان يتعهد بدفع جزية سنوية
للصليبيين قدرها مائة الف دينار ذهبي سنوية (٥) ، وتعيين مندوب للملك
الصليبي في القاهرة يكون له رأى مسموع في شؤون الحكم ، وبهذا يكون عموري
قد حقق حلما كبيرا في هذه الجولة ، وهو حصوله على السيادة على الخلافة

١ - الحنبلي : المصدر السابق ص ٣٠

٢ - ابن قاضي شهبه : المصدر السابق ص ١٧١ - الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٣٠

٣ - حسن حبشي : نورالدين والصليبيون ص ٤٠ - ٤١

٤ - الحنبلي : المصدر السابق ص ٣٠ - ٣١ : op.cit; ; p91 LANE-POOIE

٥ - الحنبلي : المصدر السابق ص ٣٠ - ٣١

الفاطمية (١) .

ح - حملة شيركوه الثالثة على مصر وزارته

كان نتاج الحملة الصليبية الثانية كسبا للصليبيين ، يتمثل في جانب من جوانبه بإيجاد موضع قدم لهم . ولم يخرج عموري من مصر سنة ٥٦٢ هـ / ١١٦٧م الا مضطرا . فقد طمع بما فيها من ثروات ، كما طمع بحماية بلاد ، من ناحية الجنوب ، اضافة لما لسه من ضعف القائمين عليها (٢) . ولكنه أدرك ان هدفه لا يتحقق الا بمساعدة قوة خارجية ، بسبب وقوف نورالدين محمود موقف المدافع والحامي ، والذاب عن اراضي العروبة والاسلام ، فتحالف مع الامبراطورية البيزنطية على غزو مصر ، واستعجل الأمر . الا أن البيزنطيين طلبوا منه التمهّل في التنفيذ ريثما ينهون امورهم في البلقان .

وقد حدث ما شجع عموري على الهجوم بمفرده ، من ذلك أن جنود الحامية الصليبية في مصر كاتبوه لفتحها ، وهونوا عليه امرها (٣) . فأسرع بالتوجه اليها . ويذكر ابن الاثير وأبوشامة (٤) بأن جماعة من المصريين - كاتبوه عداوة منهم لشاور ، الى جانب طمعه بالانفراد بالصيد الثمين وحده ، دون البيزنطيين ، وعلمه بأحوال البلاد السيئة (٥) ، اضافة الى ان شاور تنكر لا لتزاماته السابقة . فقد أثقل دفع ضريبة مائة ألف دينار كاهل ميزانية

-
- ١ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١١ - ابن قاضي شهبه : المصدر السابق ، ص ١٧٢ - أبوالمحسن : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٣٤٩ - ٣٥٠ - op.cit. , p.91
 - ٢ - الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٣٢
 - ٣ - ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٣٧ - الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ، ص ٣٣٥
 - ٤ - ابن الاثير : الكامل في التاريخ الباهر ، جزء ١١ ، ص ٣٣٦ - ابوشامة :
 - ٥ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٥٤

الفاطيين . في الوقت الذي ضعفت تلك الدولة ونقصت مواردها ، الى جانب ان الرأي العام الاسلامي قد ازدهر وجود حماية صليبية تسيء الى الاهالي ، مما أشعر شاور معه بضرورة تغيير سياسته (١) .

اتصل كل من الخليفة العاضد وشاور بنورالدين (٢) وطلبنا سباهه منه للتخلص من الحماية الصليبية ، فانتظر نورالدين حتى ينهي حل بعض المشاكل مع بعض الامراء المسلمين في العراق والشام ، ثم يتوجه الى مصر (٣) .

سار عورى بجيشه الى مصر في منتصف محرم سنة ٥٦٤ هـ / اواخر تشرين الاول اكتوبر سنة ١١٦٨ م (٤) ، فلم يستطع دخول مدينة بلبس في صفر من نفس السنة الا باستخدام العنف ، مما ترك أسوأ الاثر في نفوس الناس (٥) . وزاد الالم والكراهية في قلوب الناس حين قدم اسطول قادم من الغرب الى بحيرة المنزلقوعر النيل من هذا الفرع باتجاه تيبس فدخلها وانزل بأهلها مذبحه مروعة كذلك التي حلت بأهل بلبس . وحين تقدم الجيش البري باتجاه القاهرة عمل شاور على حرق القسطنطينية احتلالها هوادخل أهلها السبي

- ١ - عاشور : المرجع السابق ، ص ١٧
- ٢ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٥٤ - ابوالمحاسن : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٣٥٠ - الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٣٣ و ٣٥
- ٣ - ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ، ص ٣٣ - ابن قاضي شهباسة : المصدر السابق ، ص ١٧٤
- ٤ - ابوالمحاسن : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٣٥٠ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٥٤ - ابن واصل : المصدر السابق ، ص ٩٩
- ٥ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٥٤ - ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ، ص ٣٣٦ - ابن قاضي شهباسة : المصدر السابق ، ص ١٧٥ - الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٣٣ - ٣٢ - ابوالمحاسن : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٣٥٠

القاهرة (١) . وأدرك عموري صعوبة الاستيلاء على مدينة كبيرة كالقاهرة ، وخشي وصول جيش نورالدين بعد أن استجد به الخليفة العاضد ، فقبل عرضاً لشاور بالعودة عن مصر مقابل ألف دينار مصرية ، على أن يعرجل البعض ويؤخر البعض . ولما لم يدفع شاور الأمانة ألف دينار وماطل بالباقي (٢) ، فان عموري لم يغادر مصر بل خرج للقاء جيش نورالدين قبل أن يتحد مع القوات المصرية .

خرج شيركوه إلى مصر في ربيع الأول سنة ٥٦٤ هـ / ديسمبر كانون الأول ١١٦٨ م ، فبلغ القاهرة بعد شهر تقريباً حيث رحب به الأهالي والتفوا حوله طالبين حمايتهم من الصليبيين ، وهكذا فان عموري فشل هذه المرة أيضاً في الاعتماد على حليف ، ووجد أن الجميع اتحدوا ضدّه . فلم يجد بداً من الانسحاب وطاق إلى فلسطين في ربيع الثاني ٥٦٤ هـ / كانون الثاني يناير ١١٦٩ م (٣) .

دخل شيركوه مدينة القاهرة فاستدعاه الخليفة العاضد إليه ، وأخذ أرباب الدولة يترددون عليه لقضاء حوائجهم ، فعلت منزلته وخافه شاور على نفسه . فأرسل خلصة إلى الصليبيين يستعصمهم لجدته ، ويطلب منهم الحضور إلى مصر عن طريق دمياط . وأخذ يماطل شيركوه للوفاء بالتزاماته نحوه كسبياً للوقت . وانتظاراً لوصول الصليبيين لجدته . وبالإضافة إلى ذلك فإنه أخذ

١ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٥٤ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ، ص ٣٣٦ - ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٥٩ - ابن قاضي شهبه : المصدر السابق ، ص ١٧٥ - الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٣٣١ .

٢ - ابن قاضي شهبه : المصدر السابق ، ص ١٧٦ - الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٣٣١

٣ - ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٦١

يدبر مؤامرة لقتل شيركوه وانصاره اثناء وليمة يدعوهم اليها . ولم تخلف
مؤامرات شاور على شيركوه وعلى الامراء في مصر ، فاجتمعوا للتشاور وارتأى
الجميع قتله وانقاذ المسلمين من شره . وتم الامر في ربيع الثاني ٥٦٤ هـ /
كانون الثاني يناير ١١٦٩م (١) . ومنح شيركوه منصب الوزارة ولقب
بالمصور (٢) . على ان شيركوه ما لبث ان توفي بعد شهرين في آذار من
نفس السنة (٣) ، فخلفه في الوزارة ابن اخيه صلاح الدين ولقب بالناصر (٤) .

-
- ١ - LANE-POOLE : op.cit.,p 96
٢ - ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ص ١٧٨-١٧٩ - الحنبلي : المصدر
السابق ، ص ٣٥ - ٤٢
LANE-POOLE:op.cit., p 96
٣ - الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٤٣ - E-POOLE:op.cit.,p 97
٤ - ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ص ١٧٩ - الحنبلي : المصدر السابق ،
ص ٦٨ وما بعدها .

الفصل الثالث

الأيوبيون : أصلهم ، علاقاتهم مع الزنكيين

أصل الأيوبيين

وزارة صلاح الدين الأيوبي للمعاضد الفاطمي

١ - أعماله في القضاء على الثورات الداخلية

٢ - أعماله ضد الصليبيين فترة وزارته

أ - صد الصليبيين عند دمياط

ب - هجوم صلاح الدين على الصليبيين

سقوط الخلافة الفاطمية

العلاقات بين صلاح الدين ونورالدين بعد سقوط الخلافة الفاطمية

الأيوبيون

أصلهم ، علاقاتهم بالزركيين

أصل الأيوبيين

ينتسب الأيوبيون إلى أيوب بن شاذي من الأكراد الروادية ، وهم بطن من الأكراد الهذليانية . وقد استقرت هذه القبيلة في بلدة دوين في آخر اندر بيجان قرب خلاط ، وبلاد الكرج (١) . وقد جعل البعض أصلهم من العرب المهاجرين من الجزيرة العربية ، ونسبوهم إلى بني أمية (٢) . ويبدو أن هذا النسب أورد ، من أراد التقرب منهم حين أضحوا ملوكاً وسلاطيناً ، ويمكن القول بأن هذه القضية لا تستحق الوقوف عليها ، لأن العروبة في أيام الأيوبيين لم تكن ذات مضمون عرقي ، ولم تعد بالتالي قاصرة على المنحدرين من قبائل عربية ، بل أضحت ذات مضمون حضاري ، وتشمل كل القاطنين في أرض الوطن العربي من الذين تكلموا اللغة العربية وتثقفوا بها .

كان لشاذي من الولد أيوب وهو الأكبر وشيركوه . قدم بهما العسراق حيث خدما شحنتها في تكريت (٣) ، وتعرفا بها بعمان الدين زكي في ربيع الآخر سنة ٥٢٦هـ / ١١٣١م اثر انهزامه إلى تكريت من قراجه الساقى (٤) . وقد ما له معونات مختلفة ، ثم التحق بخدمته في الموصل في حدود سنة ٥٣٢

١ - احمد بن ابراهيم الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٢١-٢٣ - ابوالحسن :
المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٣-٤ .

٢ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢١٠

٣ - الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٢٣

٤ - ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ، ص ٣٤١ - ابوالحسن :
المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٤

١٣٧/هـم، فأحسن اليهما، وجعل أيوب على بعليك اثر فتحها اوائل سنة
٥٣٤هـ/١٣٩١م فحفظ لعماد الدين معروفه (١)، كما قلده شيركوه قيادة
الجيش (٢) .

لم تستمر بعليك في يد أيوب، بل خضعت لنفوذ أمير دمشق الذي
استخلصها من أيوب مقابل اقطاعات كبيرة منحها له (٣) . فانقل أيوب
بعدها ليقيم مع أخيه في دمشق، حيث أصبحت من كبار أمرائها (٤) .

ولد لنجم الدين أيوب ليلة رحيله من تكريت الى الموصل سنة ٥٣٢هـ/
١١٣٧-١١٣٨م ولد اسماء يوسف، ولقب بصلاح الدين . نشأ في احضان
اسرته في بعليك . وأخذ عن أبيه أيوب براعته في السياسة وشجاعته في
الحروب . فنشأ متشبعاً بالدهاء السياسي والروح الحربية، كما تعلم علوم
عصره فحفظ القرآن ودرس الفقه والحديث (٥) .

بقي أفراد الأسرة الأيوبية في دمشق منذ سقوط بعليك، حتى اتصل
أسد الدين شيركوه بنورالدين محمود صاحب حلب، فأكرمه وجعله من أكابر
أمرائه دولته، وأقطعته حصص والرحبة، وأسند اليه قيادة الجند (٦) . وكان
لشيركوه دوراً بارزاً في ضم مدينة دمشق لنورالدين . فقد كاتب أخاه نجم
الدين أيوب فيها طالباً منه المساعدة فوافق (٧) . ولما تبعت دمشق
للتركيين أصبح شيركوه ونجم الدين أيوب من كبار أمرائه جيش نورالدين (٨) .

-
- ١ - الحنبلي: المصدر السابق ص ٢١-٢٤ - ابوالمحاسن: المصدر السابق،
جزء ٦ ص ٤-٥
 - محمد حمدي المناوي: الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي ص ٢٦٠
 - ٢ - ابن شداد: المصدر السابق ص ٦١
 - ٣ - الحنبلي: المصدر السابق ص ٢٣ - ابوالمحاسن: المصدر السابق، جزء ٦ ص ٥
 - ٤ - ابوالمحاسن: المصدر السابق، جزء ٦ ص ٥
 - ٥ - ابن شداد: المصدر السابق ص ٥-٦ و ص ٩-١٠
 - ٦ - ابوالمحاسن: المصدر السابق، جزء ٦ ص ٥
 - ٧ - ابوالمحاسن: المصدر السابق، جزء ٦ ص ٥
 - ٨ - ابوالمحاسن: المصدر السابق، جزء ٦ ص ٦

وكان ذلك ايذا بنا بجعل نورالدين لاسد الدين شيركوه قائدا لحمالاته
الثلاث التي أرسلها الى مصر ، وانتهت باعتلاء صلاح الدين الأيوبي لدمست
الوزارة .

وزارة صلاح الدين

١ - أعماله في القضاء على الثورات الداخلية

تولى صلاح الدين الوزارة بعد وفاة عمه شيركوه في جمادى الثانية سنة
٥٦٤ هـ / آذار مارس ١١٦٩ م . وتلقب بالناصر . وكان من الصعوبة بمكان ان
يحافظ صلاح الدين على منصبه في مصر بوزلك للأسباب الآتية :

- كان اختيار الخليفة الفاطمي العاضد لصلاح الدين ، لصغر سنه
وعدم خبرته ورجا أن يكون اسلمس قيادة وأطوع لأمره . ويغى من وراء ذلك أن
يجعله أداة سهلة في يده يستعين به على بقية امراء نورالدين في مصر .
ولكن أمله خاب حين نهض صلاح الدين ليثبت انه ليس العوبة بوائه يتصرف
بشركوه بنفسه وبقوة واقتدار (١) .

- كان جيش شيركوه في مصر يضم جماعة من أكابر النورية الذين تطلعوا
جميعا الى منصب الوزارة عقب وفاة شيركوه ، وامتعضوا لتعيين صلاح الدين
وزيرا ، ووقفوا منه موقفا أقرب الى العداء (٢) .

نهض صلاح الدين بأعباء الوزارة بهمة واقتدار ، فاستمال الناس اليه
بالبذل والعطاء ، وعمل على السيطرة على الجند في مصر بشكل تام ، في الوقت

١ - الخليلي : المصدر السابق ، ص ٦٧
- سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جز ٢ ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧

٢ - أبوشامه : المصدر السابق ، جز ١ ، ص ٧٣ - الخليلي :
المصدر السابق ، ص ٦٦ - ٦٧ - أبوالمحسن : المصدر
السابق ، جز ٦ ، ص ١٧ - ١٨

الذي تسلم قوة من بلاد الشام - على رأسها أخوه شمس الدين توران شاه -
أمد بهما سيده نورالدين محمود (١) . وقضى على المشاكل والموازمات التي
واجهته منذ مطلع حكمه وعلى رأسها فتنة رئيس بلاط قصر الخليفة العاضد ،
الخصي النوبي موتمن الخلافة جوهر ، زعم الجند السودانيين وقائدهم .

طمع موتمن الخلافة بمنصب الوزارة ، وساء له أن يرى سيطرة صلاح الدين
على قصر الخلافة الفاطمية ، وكان يملك ما يشجعه على التحرك ، ذلك أن الجند
السودانيين كانوا يشكلون الكثرة الغالبة في الجيش الفاطمي ، إضافة إلى
أنه يستطيع أن يجعل من الصليبيين أعوانا له لتحقيق هدفه (٢) .

حاك موتمن الخلافة خيوط الموازنة ، وأرسل خطابا إلى ملك بيت
المقدس عموري طالبا منه المساعدة . فوقع الخطاب في يد رجال صلاح الدين (٣)
الذين اطلعوه على خيوط الموازنة ، فأمهله قليلا ، ثم ما لبث أن قبض
عليه وقتله في ذي الحجة سنة ٥٦٤ هـ / ٢٠ آب أغسطس ١١٦٩ م (٤) ، وأنتزع
صلاح الدين ذلك بابعاد جميع الخدم الخصيان من السودان عن قصر
الخلافة الفاطمية ، اثر نهوض ما يزيد على خمسين الف منهم بالثورة

-
- ١ - ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٧٤ - الباز المعري : المرجع السابق ، ص ٣٥ .
 - ٢ - ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٧٤ - ١٧٥ - ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ص ١٨٣ - ١٨٤ - الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٧١ - Wiet : L'Egypte Arabe , Paris , p.300
 - ٣ - الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٧٢ - ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ص ١٨٤ .
 - ٤ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٧٨ - ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ، ص ٢٤٥ - ٢٤٦ - الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٧٢ - علي حنين : في القريبي : اتعاظ الحنفا ، جزء ٣ ، ص ٣١٢ - أن قتله كان في ذي القعدة

ضده (١٦) ، فقصى على بعضهم من المشاغبيين (١٧) ، وجعل أمر الأشراف
على القصر الى بهاء الدين قزاقوش وهو خصي أبيض من أتباع صلاح الدين (١٨)
وهكذا تخلص صلاح الدين من حاصر الخيابة ، ولم يبق أمامه إلا كسار
الأقطاعيين وملاك الأراضي الذين يدفعهم الخوف على ممتلكاتهم وضياعهم
الواسعة الى مساندة الفساد والحوص على عدم تغيير الأوضاع القائمة فتخلص
صلاح الدين منهم ، واحل محلهم في أراضيهم جماعة من رجاله من أهـل
الشام (٤) .

كان صلاح الدين في هذا الدور يقوم بأعماله بوصفه نائباً عن نور الدين
في مصر ، لا على أنه وزير للخليفة الفاطمي . وقد احتفظ صلاح الدين بذلك
بعطف نور الدين ورعايته ، فخاطبه في مكاتباته بلقب أمير . وحقيقة الأمر ان
صلاح الدين لم يكن باستطاعته حتى هذا الوقت الاستغناء عن معاونه
نور الدين ، وما زال الطريق أمامه مليئاً بالصعاب في داخل البلاد ، في الوقت
الذي كان فيه الصليبيون يتحفرون على الحدود الشرقية للبلاد (٥) .

- ١ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٧٨
- ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ، ص ٣٤٥ - ٣٤٦ - الحنبلي :
المصدر السابق ، ص ٧٢ . علي حين جاء في المقرئى : اتعاظ الحنفيا ،
جزء ٣ ، ص ٣١٢ ، أن قتله كان في ذي القعدة
- ٢ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ، ص ٣٤٦ - ٣٤٧ - المقرئى :
اتعاظ الحنفيا ، جزء ٣ ، ص ٣١٢ - ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ص
١٨٤ - ١٨٥ - الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٧٢
- Wiet: op.cit. p. 301 - عاشور : مصر والشام في عصر الأيوبيين
والمماليك ، ص ٢٠
- ٣ - المقرئى : اتعاظ الحنفيا ، جزء ٣ ، ص ٣١٢ - ابن قاضي شهبة : المصدر
السابق ، ص ١٨٤ - الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٧٢
- ٤ - المقرئى : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٣١٢ - عاشور : مصر والشام في عصر
الأيوبيين والمماليك ، ص ٢٠
- ٥ - عاشور : الحركة الصليبية ، جزء ٢ ، ص ٧٠٩

٢ - أعماله ضد الصليبيين فترة وزارته

أ - صد الصليبيين عن ديهات

شعر الصليبيون في الشام بالقلق والوعب بعد أن استقرت أمور مصر ، وأصبحت تابعة لنورالدين ، وأدركوا أنهم أصبحوا بين فكي كمشاة ، وأن القوات النورية أحاطت بمملكة بيت المقدس الصليبية من الشمال الشرقي والجنوب الغربي ، وإضافة إلى ذلك فإن الدولة النورية سلبت الصليبيين السيادة على الجزء الشرقي من البحر المتوسط لتملكها الاسكندرية وديهات وغيرها من الموانئ .

أدى هذا القلق والقلق على المستقبل بعموري إلى أن يرسل سفارة إلى الغرب الأوربي لطلب معونة عاجلة ، وشملت دعوة السفارة كل من ألمانيا وفرنسا وإنجلترا وصقلية ، ويضيف كل من أبي شامة والحنبلي دعوة الفرنج فـسـي الأندلس (١) ، لأنقاذ اخوانهم الصليبيين في الشرق . ولكن الاوضاع السياسية في غرب أوروبا عندئذ لا سيما ما يتعلق منها بالنزاع بين البابوية والامبراطورية حالت دون تحقيق أمنية عموري الأول ، وبذلك لم يبق أمام الصليبيين في الشام سوى الاتجاه للدولة البيزنطية ، طالبين مساعدتها (٢) .

لم يكن الامبراطور البيزنطي مانويل كومنينس يقل خوفاً عن عموري من اتحاد مصر والشام تحت زعامة نورالدين ، فرحب مانويل فوراً بهذا العرض متناسياً خطأ عموري السابق وتجاهله للتحالف مع مانويل حين أسرع بالهجوم

١ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٨٠ - الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٧٢ - المقرئ : اتعاظ الحنفا ، جزء ٣ ، ص ٣١٥ - ابن قاضي شهبه : المصدر السابق ، ص ١٨٦

٢ - الشيبال : تاريخ مصر الإسلامية في العصور الأيوبية والملوكي ، جزء ٢ ، دار المعارف ١٩٦٧ م ، ص ٢٢ ، نقلًا عن وليم الصوري

على مصر وحده . وأعد أسطولا كبيرا غادر الدردنيل في شوال ٥٦٤هـ / تموز
١١٦٩م قاصدا قبرص ، ومنها الى صور ثم عكا للاتفاق مع الصليبيين على الخطة
المشتركة لغزو مصر (١) . وتم الاتفاق على غزو مصر برا وبحرا عن طريق
دمياط . فأقلم الأسطول البيزنطي تجاهها ، في حين زحف الصليبيون برا
في صفر ٥٦٥هـ / تشرين اول اكتوبر ١١٦٩م (٢) من عسقلان الى الفرما
قاصدين دمياط ومعهم المنجنيقات والدبابات والات الحصار (٣) . واذا
استطاع الصليبيون نصب معسكرهم أمام دمياط ، فان الأسطول البيزنطي
لم يستطع دخول الميناء بسبب العاصر (٤) .

أصبح صلاح الدين في موقف حرج . فقد كان يخشى المؤامرات
الداخلية ضده ، كما كان لا يثق بالاعتماد على الجيش المصري (٥) ، ومن
جهة ثالثة فانه فوجئ بالقاء الجيش البيزنطي الحصار على دمياط التي لم
يهتم بتحسينها . فقد كان يظن أنهم سيقتفون اثر الحملات السابقة ،
وينزلون بلبس التي حصنها مع القاهرة والاسكندرية وغيرها من المراكز
الامامية .

ارسل صلاح الدين الى نورالدين طالبا النجدة (٦) ، فوصلته نجدات
متتالية ، فعمل على ارسال قوة الى دمياط بقيادة ابن أخيه تقي الدين عمره

- ١ - عاشور : مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك ، ص ٢١
- ٢ - الحنبلي : المصدر السابق ص ٧٣
- ٣ - ابن واصل : المصدر السابق ، جز ١ ص ١٨٠
- ٤ - هي السلاسل الحديدية الممتدة بعرض الميناء لتمنع دخول سفن الأعداء
- ٥ - ابوشامة : المصدر السابق ، جز ١ ص ١٨٠ - ابن قاضي شهبه ؛
المصدر السابق ص ١٨٦
- ٦ - المقرئ : اتعاظ الحنفا ، جز ٣٠ ، ص ٣١٥
- ٦ - ابوشامة : المصدر السابق ، جز ١ ص ١٨ - الحنبلي : المصدر السابق ،
ص ٧٣

وخاله شهاب الدين ، استطاعت دخول دمياط (١) ، وأخذ صلاح الدين يمد هذه القوة بكل ما يستطيع عن طريق النيل ، كما استغل اهالي دمياط جريان النيل من الجنوب الى الشمال ، واطلقوا على سطح الماء اوانسي فخارية متلثة بمواد شتعلة ، انزلت ابلخ الضرر بالاسطول البيزنطي ، فاضطر للابتعاد عن لسان النيل والمدينة .

وقد انتشرت شائعة بين رجال عسوري بأن البيزنطيين انما يتوهمون ان يستأثروا بدمياط لانفسهم عند سقوطها ، الامر الذي اضعف ثقـــــة الصليبيين بالبيزنطيين ويدا الانقسام في معسكر العدو ، فكان البادرة الاولى من بوادر الفشل ، ودخل الشك في نفوس الحليفين ، فاضعف قوتهم . واخيرا وجد الصليبيون ان انتظارهم طال امام دمياط دون جدوى ، فسي الوقت الذي كانت قواتهم فيها معرضة لهجوم صلاح الدين من الخلف ، ومراكزهم في الشام تعرضت لهجمات نورالدين (٢) . ولذلك فانهم قسروا رفع الحصار عن دمياط ، وعادوا الى عسقلان خائبين ، فوجدوا بلادهم خرابا واهلها بين قتيل واسير . حتى ان المؤرخ ابن الاثير وابن قاضي شهابية وصاحب الروضتين ونقل عنهم كل من سعيد عاشور وحسن ابراهيم حسن (٣) شبهوهم بالنعامة التي خرجت تطلب قرنين ، فرجعت بلا

١ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٨٠ - ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٨٣ - المقرئ : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٣١٥ - ابن قاضي شهابية : المصدر السابق ، ص ١٨٦ - ١٨٧ - الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٢٣ - Wiet:op. cit.,p. 301

٢ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٨٠ - ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٤٣ - ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ، ص ٣٥٢ - ٣٥٣ - ابن قاضي شهابية : المصدر السابق ، ص ١٨٦ - المقرئ : اتعاظ الحنفا ، جزء ٣ ، ص ٣٦

٣ - الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ، ص ٣٥٢ - الكواكب الدرية في السيرة النورية ، ص ١٨٦ - ابوشامة ، جزء ١ ، ص ١٨٦ - الحركة الصليبية ، جزء ٤ ، ص ٧١٣ - تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ١٩٩

أذ بهم . وكذلك انسحبت السفن البيزنطية ، فغرق كثير منها ، وظلت الامواج
تقدف جثث بحارتها على الشاطئ . طوال ايام متتالية (١) ، ولعل اهم
نتائج هذه الحملة انها ثبتت اقدام صلاح الدين في مصر ، وجعلت الخلافة
الفاطمية تفقد آخر أمل تبقى لها في التخلص من قبضته القوية . وكان ان ارسل
الخليفة الفاطمي - عقب انسحاب الصليبيين - الى نورالدين يرجوه سحب جند
الاتراك من القاهرة بحجة انهم بثوا الرعب في قلوب اهلها . ولكن نورالدين
ارسل اليه يعفد ر عن عدم اجابته الى طلبه . ويوضح له ان بقاء اولئك الجند
امر ضروري لحماية مصر من خطر الصليبيين (٢) . ومن نتائجها ايضا تاكيد
الصليبيين بأن نورالدين أصبح خطرا حقيقيا على امارتهم في الشام ، لأن ضم
مصر الى الشام جعل هذه الامارات الصليبية بين فكي كاشدة من الشمال
والجنوب (٣) .

ازداد موقف نورالدين قوة في تلك الفترة بجعل الموصل تحت سلطانه ،
اثر وفاة اخيه . كما سيطر على نصيبين ووادى الخابور . وليس أدل على قوة
نورالدين في العالم الاسلامي حينئذ من ان الخليفة العباسي المستنصر
أرسل اليه وهو على حصار الموصل خلعة تكريما له ، واحترافا بقدره (٤) .

ب - هجوم صلاح الدين على الصليبيين

كان انتصار صلاح الدين على الصليبيين والبيزنطيين في ديمياط ه
نقطة تحول هامة في العلاقات بين الطرفين ، كما أن ثبت أقدامه في مصر ه

١ - عاشور : الحركة الصليبية ، جز ٢ ، ص ٧١١-٧١٣

٢ - عاشور : مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ، ص ٢٢-٢٣ - الشيبال :
المرجع السابق ، ص ٢٥

٣ - الشيبال : المرجع السابق ، ص ٢٥

٤ - ابرشامة : المصدر السابق ، جز ١ ، ص ١٨٦-١٩٠ - ابن الاثير الكامل في
التاريخ ، جز ١ ، ص ٣٦٢-٣٦٤ - ابن قاضي شهبه : المصدر السابق ،
ص ١٩١-١٩٢

حتى بدأ يوجه جهوده ضد الصليبيين . ففي اوائل ربيع الأول ٥٦٦ هـ /
كانون الأول ديسمبر ١٢٠٥م خرج صلاح الدين من مصر لمهاجمة قلاع
الصليبيين على شواطئ فلسطين ، وبدأ بحصار قلعة داروم جنوب غزة ،
ثم حاول الاستيلاء على غزة نفسها . ولكن صلاح الدين لم يستطع تنفيذ
غرضه بسبب موقف عموري الحازم الذي خرج على رأس قواته لمواجهة (١) .

استعد صلاح الدين لمهاجمة الصليبيين ثانية في ١٥ ربيع الاو ل
٥٦٦ هـ / كانون الاول ديسمبر ١٢٠٥م ، وتوجه الى ايلة ، وكان بها قلعة
منيعه . وقد استعد لهذا الهجوم بحمله مراكب مفصلة على الجمال ، فألقى
المراكب المحمولة معه بعد اقامتها واصلاحها في البحر وشحنها بالرجال
والسلاح . فهاجم قلعة ايلة برا وبحرا حتى افتتحها في ٢٠ ربيع الثاني من
تلك السنة ، وسلمها لشقات من اصحابه بعد أن أسر أفراد حاميتها ونقلهم
الى القاهرة (٢) .

كما شدد نورالدين هجماته على الصليبيين ، فأرسل قوة لمهاجمة
امارة انطاكية في ذي الحجة ٥٦٦ هـ / ايلول سنة ١١٧١ ، ونفقة اخرى احتلت
قلعتي عرقه وصافيتا . في حين هاجم بنفسه امارة طرابلس . وقد قدم بهذا

- ١ - انظر ابن الاثير : الكامل في التاريخ : جزء ١١ ، ص ٣٦٥ -
المقريزي : اتعاظ الخلفاء ، جزء ٣ ، ص ٣٢٠ - ابن واصل :
المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٩٩ - ابن قاضي شهبة : المصدر
السابق ، ص ١٩٤ - ١٩٥ - ابو المحاسن : المصدر السابق
جزء ٥ ، ص ٣٨٥ - Wiet: op.cit., p.302
- ٢ - المقريزي : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٣٢٠ - ابن قاضي شهبة :
المصدر السابق ، ص ١٩٥
- الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٧٤ - ابو المحاسن : المصدر
السابق ، جزء ٥ ، ص ٣٨٥ - ٣٨٦

الهجمات الشديدة والمتابعة عقوبة للصليبيين الذين نقضوا الهدنة ،
واستولوا على مركبين للمسلمين مملوئين بالأسلحة ، ولم يدع الهجوم إلا بعد
أن أفرج الصليبيون عن السفينتين .

وقد شعر الصليبيون نتيجة لذلك بتضييق المسلمين عليهم ، وأنه أصبح
لزما عليهم أن يوزعوا قواتهم بين الشمال والجنوب لمواجهة نور الدين وصلاح
الدين . فحاول ملكهم عموري الاستعانة بالبابوية والغرب الأوربي ، إلا أن
أمله في الحصول على نجدة سريعة كان ضعيفا . ولم يكن أمامه إلا اللجوء إلى
الامبراطورية البيزنطية ، فأبحر للقاء امبراطورها مانويل كومنينوس ، وأوضح له
الحالة السيئة التي أمسى فيها الصليبيون ، وطلب منه معونة عاجلة ، وقبل
مقابلها أن يعترف بالتبعية للامبراطور البيزنطي .

سقوط الخلافة الفاطمية :

كان نور الدين يلح على صلاح الدين بالعمل على إسقاط الخلافة
الفاطمية . وكذلك كان الخليفة العباسي المستنجد بالله يرسل لنور الدين
معاتبا له على تأخير إقامة الخطبة العباسية بصرى . ومن أجل ذلك أرسل
نور الدين نجم الدين أيوب والد صلاح الدين حاثا له على الإسراع بإعلان
الخطبة (١) .

ولم يكن صلاح الدين الأيوبي أقل تحمسا للمذهب السني ، ولكنه لم يكن
يستطيع اتخاذ إجراء كهذا قبل اتخاذ الاحتياطات اللازمة بشكـل

١ - ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ، ص ٣٥٣ - ابن واصل :
المصدر السابق ، جزء ١٢ ، ص ٢٠
- المقرئ : اتعاظ الحنفا ، جزء ٣ ، ص ٣١٦ - ٣١٧ - ابن قاضي شهبية :
المصدر السابق ، ص ١٨٨
- أبو المحاسن : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٧

تدرّجى • وثلا يثير حوله النقمة وغضب الخليفة العاضد ، الذى لم يبخل في تقديم المعونة له ابان هجوم الصليبيين والبيزنطيين على دمياط (١) •
ولذلك فانه عمل على التقرب من الأهالي ، والتضييق على أنصار العاضد تدرجيا ، فأمر برفع جميع المكوس بديار مصر ، وأبطلها (٢) • ثم اخذ يهدم الأساس المعنوى الذى قامت عليه الخلافة الفاطمية بعد حرمانها من بقايا قواتها العسكرية ، وهو التشيع الفاطمي فأبطل مجلس الدعوة بالجامع الأزهر (٣) ، واخذ ببناء مدارس تدرس على المذاهب السنية • فنهض يهدم حبس المعونة وعمرها مدرسة للشافعية ، وهي أول مدرسة عمرت بمصر لالقاء العلم (٤) • كما انشأ بدار الغزل مدرسة للمالكية بجوار جامع عمرو بن العاص ، عرفت باسم المدرسة القمحية (٥) • كما جعل تقسي الدين عمر منازل العز بمصر مدرسة أخرى للشافعية ، عرفت باسم المدرسة التقوية ، ووقف عليها الأوقاف (٦) • وكذلك حول قضاة مصر من الشيعة ، وولى فيها صدرالدين عبدالملك بن درباس الشافعي قاضيا للقضاة ، وجعل اليه الحكم في جميع بلاد مصر (٧) •

-
- ١ - ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ص ١٨٦
 - ٢ - المقرئى : المصدر السابق ، جز ٣ ص ٣١٩
 - ٣ - المقرئى : المصدر السابق ، جز ٣ ص ٣١٩ - ٣٢٠ - الحنبلي : المصدر السابق ص ٧٤
 - ابن قاضي شهبة ، المصدر السابق ، ص ١٩٤
 - ٤ - المقرئى : المصدر السابق ، جز ٣ ص ٣١٩
 - ٥ - المقرئى : المصدر السابق ، جز ٣ ص ٣١٩
 - ٦ - المقرئى : المصدر السابق ، جز ٣ ص ٣٢٠ وحاشية ٣ لنفس الصفحة - الحنبلي : المصدر السابق ص ٧٤ - ٧٥ - ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ص ١٩٤ - ابوالمحاسن : المصدر السابق ، جز ٥ ص ٣٨٦ - ٣٨٧
 - ٧ - المقرئى : اتعاظ الحنفيا ، جز ٣ ص ٣٢٠ - ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ص ١٩٤ - ابوالمحاسن : المصدر السابق ، جز ٥ ص ٣٨٦ - ٣٨٧

ونهب لبيثت مركزه بالعمل على زيادة جنده وتحصين مصر ، كما حضر
اقاربه واصحابه اليها (١) ، واهتم بعمارة السور الجديد لمدينة القاهرة (٢) .
وأمر باصلاح السور والأبراج في الاسكندرية ، فعمر ما تهدم منه (٣) . وحين
وجد ان اقدامه اصبحت ثابتة ، عمل على اظهار ما يخفيه . فواعد امراء
النشايين على ان يحضوا الى بيوت الامراء المصريين في الليل ، ويقف كل أمير
منهم بجند ، على باب أمير من امراء مصر ، فاذا خرج للخدمة ، قبض عليه—
 واحتاط على داره وما فيها ، واخذها لنفسه (٤) . ولم ينتشر الضوء حتى
صار الامراء الشاميون مكان المصريين ، على حين أصبح الأخيرون أسرى ،
ولما بلغ ذلك العاضد ، شق عليه ، وأرسل الى صلاح الدين يسأله عن سبب
القبض على الامراء ، فبعث اليه بأن هؤلاء الامراء كانوا عصاة لأمرك ،
والمصلحة قتلهم واقامة غيرهم ممن يمثل أمرك ، فأرضاه بذلك (٥) .

— أقطع صلاح الدين جنود ، الاقطاعات ، وقبض على جميع بلاد العاضد ،
حتى لم يبق له شيئا وقبض على القصور وسلمها الى الطواشي بها—
قراقوش الأسيدي ، ثم أمر بتغيير شعار الفاطميين ، وأبطل ذكر اسم العاضد
من الخطبة ، واستعاض عنه بالدعوة للامام ابي محمد علي سبيل التوحيد ، على
رأى المقرئى (٦) (فتخاله العامة والروافض العاضد ، وهو يريد أبا محمد
الحسن المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين الخليفة) .

- ١ - المقرئى : المصدر السابق ، جزء ٣٠ ، ص ٣٢٠
- ٢ - أبوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٣٢١ - المقرئى : المصدر السابق ،
جزء ٣٠ ، ص ٣٢١
- ٣ - المقرئى : المصدر السابق ، جزء ٣٠ ، ص ٣٢٠ - ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ،
ص ١٤٥
- ٤ - المقرئى : المصدر السابق ، جزء ٣٠ ، ص ٣٢١
- ٥ - المقرئى : المصدر السابق ، جزء ٣٠ ، ص ٣٢١
- ٦ - المصدر السابق ، جزء ٣٠ ، ص ٣٢٢

ساعد صلاح الدين على اتمام طريقه الذي بدأه مرض العاضد الذي غلب على الظن انه لن يشفى منه . فجمع اصحابه اليه واستشارهم في ذلك فاختلّفوا (١) . وكان في مصر وقتذاك رجل أعجمي اسمه الخبوشاني (٢) . فأعلن استعدادة لاعلان سقوط الخليفة الفاطمي ، فألقى بالفسطاط أول خطبة باسم الخليفة العباسي المستضيء بنور الله في اول جمعه من المحرم سنة ٥٦٧هـ / ١٠ يوليو ١١٧١م (٣) ، ولم يحتج احد على ذلك . وكان العاضد قد اشتد به المرض فتوفي بعد ثلاثة ايام دون ان يدري بشي مما حدث . فقد منع صلاح الدين رجال العاضد من ازعاجه بهذا الخبر اثماً موضه . وبذلك سقطت الخلافة الفاطمية (٤) . واتخذ صلاح الدين بعض الاجراءات الاحتياطية ، منها انه قبض على ابناء العاضد واقاربه ونقلهم الى قلعة الجبل (٥) . وقام بازال المقامم الخلافة الفاطمية ، فنزع المناطق الفضية التي كانت بمحارب جوامع القاهرة والتي كانت تحمل اسما الخلفاء الفاطميين (٦)

- ١ - ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٥٦ - حسن ابراهيم حسن : الدولة الفاطمية ، ص ٢٩٩ - ٣٠٠ .
- ٢ - المقرئ : اتعاظ الحنفا ، جزء ٣ ، ص ٣٢٩ - ٣٣٠ - وهو نفسه في نفس الكتاب ، جزء ٣ ، ص ٣٢٣ ، يذكر ان الذي انتدب مكرري يقال له اليسع بن عيسى بن حزم ، ويذكر ابن قاضي شهبية ، ص ١٩٦ وابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ، ص ٣٦٩ على انه اعجمي يعبرف بالامير العالم .
- ٣ - ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٠١ - المقرئ : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٣٢٩ - ٣٣٠ .
- ٤ - ابن قاضي شهبية : المصدر السابق ، ص ٩٦ - ٣٠٢ ، Wiet: op. cit. , p. 302 . ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٠١ - ابن قاضي شهبية : المصدر السابق ، ص ١٩٦ - ١٩٧ ، يذكر نقلا عن ابن ابي طي ان العاضد علم بقطع الدلالة في الخطبة قبل وفاته .
- ٥ - المقرئ : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٣٤٧ - ويذكر ابن قاضي شهبية : المصدر السابق ، ص ٢٠٠ - وابو المحاسن : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٢٠ ، ذلك دون ان يذكر اسم المكان الذي نقلوا اليه .
- ٦ - المقرئ : السلوك في معرفة دول الملوك ، جزء ١ ، ص ٤٣ .

كان سقوط الخلافة الفاطمية حدثا خطيرا في تاريخ العالم العربي الاسلامي . فقد طادت وحدة الخلافة ، وأصبحت الخلافة العباسية السنية الخلافة الوحيدة التي يدعي لها المسلمون بالولاء الديني . وقد أقيمت بهذه المناسبة الاحتفالات في عاصمة العباسيين في بغداد ، تعبيراً عن شعور الفرج بذلك النصر العظيم . وأنعم الخليفة العباسي بهذ المناسبة على نورالدين وصلاح الدين . فأرسل لهما الخلع والأطهار والرايات السود .

العلاقات بين صلاح الدين ونورالدين بعد سقوط الخلافة الفاطمية .

ما أن سقطت الخلافة الفاطمية ، حتى أصبح هناك صعوبة في تحديد العلاقة بين نورالدين محمود وتابعه صلاح الدين . فقد كان صلاح الدين أيام الخلافة الفاطمية يمارس سلطانه في مصر بوصفه وزيراً للخليفة الفاطمي . في نفس الوقت الذي يتخذ فيه تعليمات نورالدين بوصفه نائباً عنه في مصر وقائداً لقواته فيها . ولكنه بعد ان عمل على اسقاط الخلافة الفاطمية ، وشعر بدورها الكبير في هذا المجال ، اراد ان لا يضيع جهده هباءً ، وان يثبت مكانته والخدمات الجليلة التي قدمها . فخطب لنفسه بعد الخطبة للخليفة العباسي وللملك العادل نورالدين . وقد يكون صلاح الدين لا يقصد بذلك الاستقلال عن سيد نورالدين ، كما انه لم يكن اول من قام بهذا العمل . ولكن الأمر اعطي هالة كبيرة لعدة أمور : اولها ان نورالدين كان يخشى من قوة صلاح الدين وصلابته ، وثانيها ان صلاح الدين كان يحكم بلاداً اكبر اتساعاً وقوة من تلك التي يحكمها سيده ، اضافة الى انها اكثر استقراراً . وثالثها ان صلاح الدين حقق في مصر أموراً متعددة بجهده الخاص ولذلك فانه لا بد وان يشعر بأنه ليس مقيداً كلياً بنورالدين .

وقد يحلو لبعض المؤرخين ان يظهروا صلاح الدين يحاول الاستقلال عن نورالدين منذ فترة مبكرة وطن رأس هو لا ابن الاثير ، وابن ابي طي . . . فقد جعل ابن الاثير من تأخر صلاح الدين في القضاء على الخلافة الفاطمية محاولة منه لجعلها ستارا بينه وبين نورالدين . فأورد (١) قوله : (وكان صلاح الدين يكره قطع الخطبة لهم (يقصد للفاطميين) ويهدى بقاها هم خوفا من نورالدين . فإنه كان يخافه أن يدخل الى الديار المصرية يأخذها منه . فكان يريد أن يكون العاضد معه ، حتى اذا قصد نورالدين ، امتنع به وبأهل مصر عليه) . كما انه جعل احجام صلاح الدين عن قتال الصليبيين على نطاق واسع في الفترة التي تلت سقوط الخلافة الفاطمية ليهبهم ستارا يفصل بينه وبين نورالدين (٢) . وقد يكون موقف ابن الاثير هذا من صلاح الدين لأنه ينتهي الى أسرة تعمل في خدمة الزنكيين ، الذي أصبحوا أعداء الأيوبيين .

أما موقف المؤرخ الاخر ابن ابي طي فقد بدا واضحا من الروايات التي وردت على لسانه في ثنايا كتاب ابن قاضي شهبه . فقد حاول تشويه موقف نورالدين باظهاره وتأكيد عدم ابتهاجه للنجاح الذي حققه الأيوبيون في مصر بقيادة أسد الدين شيركوه على شاور والصليبيين (٣) كما صور غضب نورالدين لتسلم صلاح الدين للوزارة الفاطمية فقال : (ولما استولى الملك الناصر (يقصد صلاح الدين) على الوزارة ومال اليه العاضد ، يولسغ

- ١ - ابن الاثير: الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ص ٣٦٨
- ٢ - ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ١٦١ - الكامل في التاريخ جزء ١١ ص ٤٠٢
- ٣ - ابن قاضي شهبه : المصدر السابق ص ١٨١ - ١٨٢ وانظر في الكتاب اسباب الخلاف بين الطرفين

ذلك نورالدين أعظم ذلك وأكبره ، وتألف منه وأنكره . وقال : كيف أقدم صلاح الدين أن يفعل شيئا بخير أمرى . وكتب عدة كتب ، فلم يلتفت الملك الناصر الى قوله ، الا أنه لم يخرج عن طاعته (١) . وقد يكون سبب موقف ابن ابي طي . هذا من نورالدين ، ما حلّ بأسرته من فقدان لنفوذها الديني فسي حلب بسبب موقف نورالدين المتشدد فيها من الشيعة الاثني عشرية .

وهكذا يصور لنا المؤرخين ان خلافا مبكرا نشب بين نورالدين وصلاح الدين وهما على الرغم من نزاهتهما في الكتابة التاريخية ، الا انهما كانا من اصحاب الأهواء . اما ضد الايوبيين اوضح الزنكيين . وحقيقة الأمر ان العلاقة بين الطرفين كانت طبيعية للغاية في مطلع الأمر ، ثم بدأ تخوف الطرفين من بعضهما لمحاولة نورالدين الاهتمام بالوحدة بين املاكه في الشام وأملاكه في مصر ، ومحاولة صلاح الدين الحفاظ على مكاسبه ، وخشيته من عرله من قبل نورالدين . وقد تبنت هذه الوحشية وخوف صلاح الدين من نورالدين على رأى بعض المؤرخين بما يلي :

١ - حين خرج صلاح الدين في جولتين ضد الصليبيين الى الكرك والشوبك ففي المرة الأولى كان نورالدين قد أصدر أوامره الى صلاح الدين بمهاجمة الشوبك ، فخرج اليها في مطلع سنة ٥٦٧ هـ / اواخر ايلول سنة ١١٧١ م ، وهاجم الحصن . وحين علم بسير نورالدين اليه لمساعدته ، خشي ان تكون غايته عرله عن منصبه والقبض عليه . فأسرع بالانسحاب الى مصر قبل وصول نورالدين فسي صفر سنة ٥٦٧ هـ / اواخر تشرين الأول ١١٧١ م ، معتذرا

١ - انظر رواية ابن ابي طي . في كتاب ابن قاضي شهبه : المصدر السابق ، ص ١٨١

بأنه لا بد له من الإسراع لمساعدة أخيه الذي كان يحارب بقايا اتباع
الفاطميين في الصعيد . وأن الثورة تنذر بالاشتعال في القاهرة ، مما
تطلب سرعة عودته (١) .

لم يقتنع نورالدین بذلك ، واستاء من مسلك صلاح الدين ، وعظم
عليه تصرفه ، وبدأ يستعد للزحف على مصر لتأديبه . فعقد صلاح
الدين اجتماعا من أهل بيته وأمرائه ، وقر رأى بعضهم الوقوف موقفا
صلبا من نورالدین ، وقاتله اذا حاول مهاجمة البلاد . ولكن
نجم الدين أيوب حسم الموقف بذكاء وحسن تقدير ، إذ أوضح لابنائه
بأنهم قادة لنورالدین تجب عليهم طاقته . وأنه لو أمرهم بقتله
قتلوه . وطلب من ولد صلاح الدين أن يكتب إلى نورالدین يعرب
عن ولائه ، ففعل ذلك . وارسل إلى سيد هديدا هدية ثمينة من
الحيوانات النادرة والجواهر والأقمشة والمصنوعات والعطور (٢) .
ثم جرت مفاوضات بين نورالدین وصلاح الدين على أن يخرج معا
لحصار حصن الكرك تانبة والاستيلاء عليه . وبدأ صلاح الدين
الحصار ، وحين بلغه قرب مجي نورالدین لمساعدته خشي منه ،
فترك حصار الكرك وعاد إلى مصر ، معللا عمله هذا بمرض أبيه .
نجم الدين أيوب ، الذي كان صلاح الدين قد استخلفه في مصر ، وأنه
يخشى أن توفي خروج البلاد من أيديهم (٣) . فلم يقتنع نورالدین
بهذا الاعتذار ، وبدأ يوجس خيفة من نوايا صلاح الدين .

١ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٠٣ - ٢٠٤ - ابن قاضي شهبة :
المصدر السابق ، ص ٢١٢ - ٢١٣ - ابوالمحاسن : المصدر السابق ، جزء
٦ ، ص ٢١ - ٢٢

٢ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٠٤ - ابن قاضي شهبة : المصدر
السابق ، ص ٢١٢ - ٢١٤ - ابوالمحاسن : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٢٢
٣ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ - ابوالمحاسن : المصدر
السابق ، جزء ٦ ، ص ٢٣

٢ - اتخذ البعض من حركة التوسع التي قام بها صلاح الدين في اليمن وبلاد النوبة، أنه قام بها ليهيئ لنفسه وأسرتة عن ملك جديد . حتى اذا أخرج نورالدين من مصر انتقل بأسرتة الى ملكه الجديد (١) . ولتحقيق غايته ، ارسل صلاح الدين أخاه توران شاه سنة ٥٦٨هـ / ١١٧٢ م لفتح بلاد النوبة ، فاستولى على قلعة بلدة ابريم ثم عاد لأنه وجد البلاد قاحلة جرداء لا تصلح للغاية التي توجه للفتح من أجلها . ثم قام بإرسال أخيه لفتح اليمن عوضا عن النوبة ، حيث أخضعها سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م (٢) .

هذه هي الآراء التي يوردها بعض المؤرخين كدلائل للجفوة بيين نورالدين وصلاح الدين . وهي آراء لا تصمد اذا وضعت على بساط البحث والمناقشة . فمن المعروف ان الفترة الأولى كانت فترة وثام بين الطرفين . وكان صلاح الدين يأتمر بأمر سيد ، نورالدين . فقد عين نورالدين لقضاء مصر قاضيه ابن أبي عسرون ، وارسله الى مصر وكتب له كتابا للتعيين جاء فيه مدح وامتنان لصلاح الدين وأعماله . وما جاء فيه : (٠٠٠ أنت تعلم ان مصر اليوم قد لزمتا القظر فيها ، فهي من الفتوحات الكبار التي جعلها الله تعالى دار اسلام بعدما كانت دار كفر ونفاق ٠٠٠ والآن فقد تعيين عليك وعلي أيضا ان ننظر الى مصالحها ومآلنا احد اليوم لها إلا أنت . ولا أقدر أول امورها ولا اقله ها إلا لك حتى تبرأ نمتي عند الله . فيجب عليك ونفك الله ان تشمر عن ساق الاجتهاد ، وتتولى قضاءها ، وتعمل ما تعلم أنه يقر بك الى

١ - ابن واصل : المصدر السابق ، جز ١ ص ٢٢٢-٢٢٤

٢ - ابوالمحاسن : المصدر السابق ، جز ٦ ، ص ٢٣

الله ٠٠٠ وقد كتبت هذا بخطي حتى لا يبقى علي حجة ٠ تصل انت وولسدك
عدي حتى اسيركم الي مصر والسلام بموافقة صاحبي واتفاق منصلاح الدين
وفقه الله فأنا منه شاكر كثير كثير ، جزاء الله خيرا وأبقاء ، فني بقـ...
الصالحين والأخيار صلاح عظيم ومنفعة لأهل الاسلام (٠٠٠) (١) .

وفوق هذا فان نورالدین ارسل لصلاح الدين أهله ليتقوى بهم ، كما
أرفقهم بأعداء كبيرة من الجند والمماليك ، وحين وجه نجم الدين والسد
صلاح الدين الي مصر مشاغل نورالدین الصليبيين لمنع الحاق الأذى به وبمن
معه (٢) . كما اخذ العهد من توران شاه أخي صلاح الدين ليكون في موقف
التابع من أخيه (٣) .

أما عن قضية ترك حصار الكرك والشويك من قبل صلاح الدين حين يقترب
نورالدین منه ٠ فحقيقة الأمران مصر في سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م حين خرج
صلاح الدين الي الكرك والشويك في المرة الأولى اي عقب اسقاط الخلافة
الفاطمية مباشرة ، فان الأمر لم تكن خالصة لصلاح الدين ٠ وكان انصار
الفاطميين يدبرون المؤامرات ، وازافة الي ذلك فان فكرة الخروج عن طاعة
نورالدین لم تراود صلاح الدين نفسه ، بل راودت فشة من قادة صلاح الدين
وان صلاح الدين رفضها مباشرة (٤) . اما عن عودة صلاح الدين في المرة
الثانية من حصار الكرك والشويك ، فانه كانت فعلا لمرض أبيه ووفاته ٠ وكان
أبوه في هذه الفترة نائبا عنه في مصر ، ووفاته تعني شغور مصر من قائدها ، مع
وجود انصار للفاطميين قد يستغلوا هذه الفرصة لصالحهم ٠ وقد توفي نجم الدين

١ - ابوشامة : المصدر السابق ، جز ١ ص ١٧٤

٢ - ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ص ١٨٨-١٨٩

٣ - ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ص ١٨٢

٤ - انظر الشيال : المرجع السابق ص ٣٤ نقلا عن ابن شداد

والد صلاح الدين فعلا في ١٨ ذى الحجة سنة ٥٦٨ هـ في نفس الفترة التي كان فيها صلاح الدين في غزوه الثاني للكرك (١) .

ولم تكن حملة صلاح الدين الى بلاد النوبة الا بقصد تأديب بقايا الجند الفاطميين من السودانيين بعد ثورة موثمن الخلافة جوهر ، والذين فروا الى الجنوب ، واخذوا يتجمعون في بلاد النوبة ، وبها جمون الصعيد لينطلقوا لاستعادة سلطانهم واعادة الدولة الفاطمية . ويذكر ابن قاضي شهبية (٢) في هذا المجال انه في سنة ٥٦٨ هـ (اجتمع السودان العبيد من بلاد النوبة وخرجوا في أم عظيمة قاصدين تملك بلاد مصر . وصاروا الى أعمال الصعيد ، وصنعوا على قصد اسوان وحصارها ونهب قراها وكان بها كنز الدولة . فأرسل يعلم الملك الناصر (صلاح الدين) وطلب منه نجدة . . . فلما وصل الساس اسوان وجد العبيد قد عادوا عنها بعد أن أخرجوا أرضها ، فأتبعهم الشجاع وكنز الدولة . . . فأرسل الملك الناصر اخاه شمس الدولة في صكر كثيف فوجدهم قد دخلوا بلاد النوبة ، فسار اليها ونزل على قلعة ابريسم وافتتحها بعد ثلاثة ايام (٥٥٥) .

وكذلك كان الدافع الى حملة اليمن التخلص من افسار الفاطميين فيها كالدولة الصليحية ودولة بني زريع ودولة بني مهدي . وهي مهمة سياسية تعتبر تنمة لعمله في القضاء على الخلافة الفاطمية ونهض بها صلاح الدين خيبر

١ - أبو شامة : المصدر السابق ، جزء ١ ص ٢٠٩ - ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ص ٣٩٣
٢ - المصدر السابق ص ٢١٨-٢١٩ - وانظر ايضا أبو شامة : تاريخ الروضتين ، جزء ١ ص ٢٠٨-٢٠٩ عن رواية للعماد الاصفهاني ، واخرى لابن أبي طي .

نهوض (١) . اضافة الى الفوائد الاقتصادية التي يجنيها من وراء سيطرته على منفذى البحر الأحمر . واما الأسباب المباشرة التي دفعت الى القيام بفتح اليمن فتكمن في أن والي اليمن عبد النبي بن مهدي كان قد قطع الخطبة العباسية ، وابتدع أمورا جديدة في الدين . فأمر الناس بالحج الى قبر أبيه دون مكة المكرمة ، وادعى النبوة ، بل الألوهية عند البعض . وظلم الناس وفتك بهم (٢) . ويذكر بعض المؤرخين أن أحد أخسوة عبد النبي بن مهدي استنجد بالخليفة العباسي ضد أخيه . فكتب الخليفة الى الناصر صلاح الدين طالبا منه ان يرسل عسكريه لقتاله . فأرسل صلاح الدين الى سيد نورالدين يستأذنه في ارسال هذه الحملة (٣) فاذن له . وتم ذلك في رجب سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م قبل وفاة نورالدين بأشهر قليلة (٤) على ان بعض المؤرخين المتحاملين على صلاح الدين ، وعلى رأس هؤلاء ابن الأثير ذكروا ان صلاح الدين قام بفتح اليمن لا تخاذها مركزا له فسي حال فراره من نورالدين . ولا يعقل ان نفهم هذا الأمر اذا عدنا الى ما ذكرته المصادر من انه استشار نورالدين بالفتح وأن نورالدين أذن له . ويمكن القول ان صلاح الدين اراد من هذه الحملة تأمين اقتصاده وقوته الحربية بجعل مدخل البحر الأحمر الجنوبي تحت نفوذه ، بعد ان جعل مدخله الشمالي بيده منذ وزارته للعاقد الفاطمي حين استولى على قلعة

- ١ - محمد جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب ص ١٠٥
- ٢ - ابوشامة : المصدر السابق ، جز ١ ص ٢١٦ - ٢١٧ - ابن شداد :
المصدر السابق ص ٤٦
- ٣ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جز ١١ ص ٣٩٦ - ٣٩٧ - ٣٩٨ - ابن قاضي شهبه : المصدر السابق ص ٢٢١ - ٢٢٢
- ٣ - الشيبان : المرجع السابق ص ٣٦ - ٣٧
- ٤ - ابن شداد : المصدر السابق ص ٤٧

أبلة • ويتضح ذلك بشكل أكثر حين نعلم اهتمام صلاح الدين بثقوية التجارة في مصر • وأنه من أجل هذا السبب فتح بلاد • للتجار الأيطاليين وعقد معهم معاهدات تجارية ، وخاصة مع ممثلي البندقية وجنوة وبيزا منذ سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م (١) • وقد قام التجار الأيطاليون بذلك على الرغم من قرارات البابوية بمنع التجارة مع المسلمين ، والتي اضطر إلى قصرها أخيراً على منع بيع المواد الخام التي تخدم مباشرة القوة الحربية لمصر (٢) • وكتب صلاح الدين بمعاهداته التجارية إلى الخليفة العباسي مبرراً قيامه بهذه المعاهدات (٣) • وبهذا يمكن أن ينفى أن سبب فتح صلاح الدين لليمن كان للبحث عن ملك جديد فراراً من نور الدين إذا حاول أن يهاجمه • ولكن وعلى الرغم من كل شيء • فإنه يمكن القول بأن هناك تصرفات من صلاح الدين وأسرت له لم ترق لنور الدين • ففي الوقت الذي كان نور الدين بحاجة إلى المال لقتال الصليبيين من جهة ، ولا عار ما خربته الزلازل القوية التي حدثت في الشام في تلك الفترة وخاصة في سنة ٥٦٥ هـ / ١١٧٠ م (٤) • فإن صلاح الدين لم يرسل إلى نور الدين من أموال مصر وأموال الخلافة الفاطمية بعد القضاء عليها إلا هدايا لا تسد الأموال التي أنفقت نور الدين من أجل تحقيق هدفه في مصر ، على حين أن آل صلاح الدين كانت لهم حصة الأسد من الغنمة سواء من المال أو الاقطاع • فعن المال يذكر

- ١ - Wiet: op.cit.p.307-309
٢ - شارل ديل : البندقية جمهورية أرستوقراطية • تعريب أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق أسكندر ، القاهرة ١٩٤٨ ص ٥٨
٣ - ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ٢ ص ٢١٣ - ١٥٣ Wiet:op.cit.p.15٢٣
٤ - عن الزلازل انظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ، ص ٥٤٤

صاحب الروضتين (١) عن ذلك ما يلي : (واخلى دوره ، وأغلق قصوره وسـلط
جوده على الموجود ، وأبطل الوزن والعدد عن الموزن والمعدود ، واخذ كل
ما صلح له ولأهله وأمرائه ولخواص مناليكه وأوليائه من أفاخر الذخائر وزواهر
الجواهر ، ونفائس الملابس ومحاسن العرائس وقلائد الفرائد والدارة البيئمة
والباقوتة العالية الغالية القيمة (٠٠٠) . ويستمر صاحب الروضتين في احصاء
ما اخذه صلاح الدين من النفائس ، ثم ما باعه من القصر من بقية الاشياء التي
لا يحتاج اليها . هذا عدا عما استولى عليه من قصور الامراء والقاد قوال المتنفذين
لنفسه وأسرته وأمرائه ، على حين انه اكتفى بإرسال هدية الى نورالدين (٢) .
اما الاقطاع فلن اورد الا أمثلة عنه . فقد أقطع نجم الدين والد مالا سكه روية
ود مياط والبحيرة . كما اقطع أخاه شمس الدولة ، قوص واسوان وجمد اب ، وكانت
عبرتها في هذه السنة مائتي الف وست وستين الف دينار (٣) .

لم يركن نورالدين الى الهدوء وهو يرى الأسرة الأيوبية تتمتع بوارثات
مصر وهو بحاجة اليها لقتال الصليبيين واعمار الأسوار والتحصينات التي
هدمتها الزلازل . فأعلن (أنه يريد الامدادات لمتابعة الجهاد ، وجسرد
وزيره الموفق القيسرائي الى مصر (٤) . وأمره بعمل حساب البلاد واستعلام
أخبارها وارتفاعها وأين صرفت أموالها . فإذا حصل جميع ذلك ، قرر على
صلاح الدين وظيفة يحملها له كل عام) . وفي العام التالي استقبل صلاح الدين
مبعوث سيد نورالدين ، فعمل له حسابا وعرضه عليه ، وتملص من ارسال الأموال

- ١ - المصدر السابق ، جزء ١٠ ص ١٩٤
 - ٢ - انظر فيما سبق ، وانظر البوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ص ٢٠٦ -
 - ٣ - انظر حول ذلك من ابني شامة الروضتين جزء ١ ، وابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١
 - ٤ - انظر : ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ١ ص ٢٣٢ - ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ص ٢٢٣ -
- Baldwin:op.cit., p.366

الى نورالدين بحجة ان اقليم مصر لا يضبط الا بالمال العظيم . ومما
قاله له : (أنت تعرف أكبر الدولة وعظمتها ، وأنهم اعتادوا من
السعة والدفقة على نعمائها . وقد تصرفوا في مواضع لا يمكن انتزاعها ،
ولا يسمحون بأن ينتقص ارتفاعها . فالموارد مشفوعة والشدائد مكروهة)
وبذلك اتضح ان غاية صلاح الدين من ابقاء اموال مصر فيها ، وسط
صالح الأُمراء والقادة بصحة حكمه في مصر (١) . وان نورالدين
أفكر عليه افراطه في توزيع الأموال ، واستبداده في ذلك من غير
مشاورته (٢) .

وبعد وان نورالدين لم يشأ أن يوسع شقة الخلاف بينه وبين صلاح
الدين ، وأراد ان يبقى مصر بيد صلاح الدين ظهيرا له في الشام . ولكنه
مع ذلك كان يولمه احيانا بجارح كلامه . وفي ذلك يقول صلاح الدين :
(. . . والله لقد صبرت منه على مثل حز المدى ووخز الأبره وما قددر
واحد من أصحابه أن يجد عليّ ما بعده ذنبا فلم يقدر . ولقد كان
يعتمد في مخاطباتي ومراسلاتي الأشياء التي لا يصبر على مثلها ، لعلي
أتضرر أو أغير ، فيكون ذلك وسيلة الى مبادتي ، فما أبلغته أرى
يوما قط) (٣) .

توفي نورالدين والوضع فيه بعض الغيوم بينه وبين صلاح الدين ،
أوجدها الغاضبون والحاقدون على صلاح الدين من القواد المتصلين

(١) أبو شامة : المصدر السابق جزء ١ ص ٢١٩ -

(٢) ابن قاضي شهبه : المصدر السابق ص ١٨١ عن رواية لابن أبي طي

(٣) ابن قاضي شهبه : المصدر السابق ص ١٨٢ نقلا عن ابن أبي طي .

بنورالدين ، غيوم لم يصل الى حد امتشاق السيف ، وذلك في شوال سنة
٥٦٩ هـ / منتصف ايار ١١٧٤ م (١) . ودفن بقلعة دمشق (٢) . وكانت
وفاته بعد ان غرس غرسة طيبة بين قاعدته ومواليه ، تلك هي توحيد مصر
والشام والانطلاق الى قتال الصليبيين .

١ - ابن شداد : المصدر السابق ص ٤٧ - ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ،

ص ٢٢٨ - ٢٢٩

٢ - ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ص ٤٠٢

الفصل الرابع

السلطنة الأيوبية

صلاح الدين بين وفاة نورالدين زنكي والحملة الصليبية الثالثة

النضال على أتباع الفاطميين

صلاح الدين والوحدة العربية ، قيام السلطنة الأيوبية

١ - الوضع في مصر والشام اثر وفاة نورالدين

٢ - بداية عملية التوحيد

أ - ضم مدينة دمشق وحمص وحماء

ب - ضم مدينتي حلب والموصل

موقف صلاح الدين من الصليبيين قبل المعارك الكبرى

صلاح الدين والمعارك الكبرى مع الصليبيين

١ - الموقف قبل حطين

٢ - معركة حطين

٣ - موقف صلاح الدين بعد حطين

أ - فتح مدن الساحل

ب - فتح بيت المقدس

الفصل الرابع

السلطة الأيوبية

صلاح الدين ، بين وفاة نورالدين

والحملة الصليبية الثالثة

القضاء على أتباع الفاطميين

قامت مؤامرة كبرى في وجه صلاح الدين في رمضان ٥٦٩هـ / أبريل - نيسان ١١٧٤م ، قبل وفاة نورالدين زكي بشهر واحد . فقد تجمعت القوى المعارضة لصلاح الدين والقوى المؤيدة للفاطميين ، ودبر هوﻻ . مؤامرة للقضاء عليه ، وللعمل على إعادة الخلافة الفاطمية . وكان ممن اشترك في هذه المؤامرة داخل مصر ، أعوان الخلافة الفاطمية من رجال القصر وأمرأ الجيش وجند ، من السودانيين ، ونفر ممن قطعت أرزاقهم بقطع مرتباتهم ، وأخذت اقطاعاتهم ، أو ممن أصابهم ضرر من الأضرار نتيجة للقضاء على الخلافة الفاطمية (١) . وعلى رأس هوﻻ الشاعر عمارة اليمني وعبد الصمد الكاتب والقاضي العوريس داعي دعاة الشيعة ، وابن عبد القوى (٢) . ووافقهم جماعة من أمرأ صلاح الدين وجند (٣) . وقد جعل بعض المؤرخين تحريض عمارة اليمني لتوران شاه على الخروج لفتح اليمن لضعاف قوة صلاح الدين في مصر ، ولتحقيق النجاح لهذه المؤامرة . اراد المتآمرون أن يعملوا جاهدين على نجاح ثورتهم . ولتحقيق

-
- ١ - انظر : الشيبال : المرجع السابق ص ٣٨
 - ٢ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ص ٣٩٨ - ابن قاضي شهبية : المصدر السابق ص ٢٢٦
 - ٣ - الحنبلي : المصدر السابق ص ٨٢ - ٨٣ - المقرئ : السلوك ، جزء ١ ، ص ٥٣ - عاشور : مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ٢٠
 - ٣ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ١٦ ص ٣٩٩

ذلك كان لا بد من الاستعانة بقوة خارجية . فأقدموا على الاتصال بمقدم
الاسماعيلية في الشام والصليبيين في كل من الشام و صقلية . وحددوا دور
كل جهة على حدة . فالاسماعيلية في الشام يعملون على اغتيال صلاح الدين
والصليبيون في الشام وعلى رأسهم ملك بيت المقدس يعمل على غزو مصر من
ناحية الشرق بمرأ . وأن يقوم وليم الثاني النورماندي من صقلية
بمهاجمة الاسكندرية بأساطيله ، في الوقت الذي يشعل به المتآمرون
الثورة في القاهرة والفسطاط ، فيقع صلاح الدين بذلك بين نارين (١) .
واختار المتآمرون فرصة غياب توران شاه في اليمن مودعا لتنفيذ موارثهم
حتى لا يحصل محل أخيه حين يقتل . كما عينوا أعضاء الجهاز الحكومي
الجديد ، وعينوا الخليفة والوزير ، وتقاسموا الدور والاملاك (٢) . ونظموا
طريقة التخلص من صلاح الدين بشكل دقيق وحسبوا حسابا لكافة
الاحتمالات حتى اصبح كل شيء معدا للتنفيذ (٣) .

أراد عورى الأول أن يرسم الترتيبات النهائية مع المتآمرين قبل
تنفيذ المواجهة ، فأرسل من اجل ذلك رسولا الى القاهرة يعمل في ظاهر
الامر على حمل تحيات عورى الأول لصلاح الدين ، فكشف صلاح الدين امره ،
بمراقبته عن طريق بعض اقباط مصر . ويقال بأنه عرف ذلك في اللحظة الاخيرة

- ١ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢١٩ - ابن واصل : المصدر
السابق ، جزء ١ ، ص ٢٤٤ - ٢٤٩ - Wiet:op.cit.,p.311
- ٢ - ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٠١ - ابن الاثير : الكامل في
التاريخ ، جزء ١١ ، ص ٣٩٨ - ٣٩٩ - Wiet:op.cit., p. 311
- ٣ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ، ص ٣٩٩
- ٤ - ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ، ص ٣٩٩ - ابن قاضي
شهبه : المصدر السابق ، ص ٢٢٥

بفضل الغية الواظ زين الدين علي بن نجا ، الذي أشركه المتآمرون معهم ،
فعمل على اطلاع صلاح الدين على جميع حلقات المؤامرة ، ولما تأكد صلاح
الدين من تفصيلاتها ، قبض على المتآمرين فوراً ، وصلب زعماءهم نسي
رمضان ٥٦٩ هـ / نيسان ١١٧٤ ، في حين اختفى ابن الخليفة العاضد عن
الأنظار (١) .

وفي تلك الأثناء توفي عموري الأول ملك بيت المقدس على أثر فشله نسي
تنفيذ خطة غزو مصر في نهاية ذي القعدة سنة ٥٧٠ هـ / تموز يوليو ١١٧٤ م ،
ولم يلبث ان وصل اسطول صقلية الى مياه الاسكندرية في نهاية ذي القعدة
٥٦٩ هـ ومطلع محرم ٥٧٠ هـ / تموز ١١٧٤ م (٢) ، فوجد أن المؤامرة قد
فشلت ، وعلى الرغم من ذلك ، فإنه اراد ان يستعرض عضلاته ، فشدد هجماته
على الاسكندرية محاولاً اقتحامها ودمر بعض السفن التجارية الراسية نسي
ميناء الاسكندرية ، ولكنه لم يستطع أن يفعل أكثر من ذلك بسبب ثبات
أهالي المدينة ، والرد على حرق السفن التجارية بحرق بعض من سفن
التورمان ، ثم قدم صلاح الدين من فاقوس مسرعاً لتخليص الاسكندرية ، فهاجم
التورمان وأغرقى بعض سفنهم ، وأحرق خيامهم ، وأنزل بهم الهزيمة ، فألقوا
بسفنهم خائبين (٣) .

كما قامت ثورة أخرى في وجه صلاح الدين في اسوان على حد ود النوبة ،

- ١ - ابن الأثير: المصدر السابق، جزء ١١ ص ٤٠٠ - ابن قاضي شهبة: المصدر السابق
- ٢ - ابن الأثير: المصدر السابق، جزء ١١ ص ٤١٢ - ابن كثير: البداية
والنهاية ، مكتبة المعارف ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٧٧ ، جزء ١٢ ، ص
٢٧٧ على حين يجعل ابن شداد: المصدر السابق ذلك في شهر
صفر وذلك ص ٤٩
- ٣ - ابن شداد: المصدر السابق، ص ٤٨ - ابوشامة: المصدر السابق، جزء ١ ، ص
٢٣٤ - ٢٣٥ - ابن الأثير: المصدر السابق، جزء ١١ ص ٤١٢ -
٤١٣ - ابن قاضي شهبة: المصدر السابق، ص ٢٢٧ - ٢٢٨ - الحنبلي:
المصدر السابق، ص ٨٣ - ٨٤

وقد أشعلها أحد القادة الفاطميين واسمه كزالدولة (١) ، طمعا نفسي استعادة ما كان لهم في أيام الفاطميين (٢) . جمع كزالدولة حوله بعض العناصر من الشيعة وغيرهم . وأوهمهم بأنه يريد إعادة الدولة الفاطمية ، وزحف بهم على قوص . فأرسل اليهم صلاح الدين حملة بقيادة أخيه الملك العادل سيف الدين ، استطاعت في صفر ٥٧٠هـ / أوائل ايلول ١١٧٤م أن تقضي على أولئك الجند السودان قضاء مبرما وان تستأصل شأفتهم (٣) .

صلاح الدين والوحدة العربية

١ - الوضع في مصر والشام اثر وفاة نورالدين

حين توفي نورالدين زنكي ، بويع ابنه الصالح اسماعيل بالسلطنة ، ولكنه لم يستطع السيطرة على أملاك أبيه بكاملها . فقد كانت مصر واليمن بيد الأسرة الأيوبية ، على حين أن بلاد الشام كانت موزعة الولا بين الأسرة النورية والصابيين . وقد برز دور كل مدينة كبيرة من مدن الشام على حدة ، وتنافست في سبيل ضم الصالح اسماعيل اليها .

كان الصالح اسماعيل صغيرا في السن حين تولى الحكم ، لم يتجاوز عمره الحادية عشرة (٤) ، فاراد كل من كبار القادة أن يكون الصالح اسماعيل نسي

- ١ - انظر ابن واصل: المصدر السابق، جزء ١، ص ٢٢٩ - أبوشامة : المصدر السابق، جزء ١، ص ٢٣٤ - ٢٣٥
- ابن شداد : المصدر السابق، ص ٤٧ - ابن الاثير : الكامل في التاريخ، جزء ١١، ص ١١٤ - المقرئ : البيان والاعراب طبعة المحمدية قاهرة ١١٥٦ ص ٥٠ وما بعدها . والكفر لقب منح لاول مرة الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله لملك النوبة في عهد ابوالمكارم هبة اللين الشيخ محمد بن علي وهو من قبيلة ربيعة اثر مساعدته بالقضاء على ثورة ابي ركرة . وكان آخرهم المقتول سنة ٥٧٠هـ في عهد صلاح الدين .
- ٢ - أبوشامة : المصدر السابق، جزء ١، ص ٢٣٥ - ابن شداد : المصدر السابق، ص ٤٧ - ٤٨
- ٣ - أبوشامة : المصدر السابق، جزء ١، ص ٢٣٥ - ابن شداد : المصدر السابق، ص ٤٧ - الحنبلي : المصدر السابق، ص ٨٣ - ٨٤
- ٤ - ابن الاثير : المصدر السابق، جزء ١١، ص ٤٠٥

كفنه . وقد أسفر ذلك عن تحركات كانت على الشكل الآتي :

تنافس كل من شمس الدين محمد بن المقدم في دمشق ، وشمس الدين علي ابن الداية في حلب على السيطرة على الصالح اسماعيل . وقد ساعدت الظروف ابن الداية ، ومالت كفة الميزان لصالحه حين هادن ابن المقدم الصليبيين ودفع لهم مبلغا من المال ، واطلق من عنده من اسراهم ، رغبة منه في الحفاظ على مركزه ، وحماية لمدينة بانياس التابعة له ، وذلك اثر انتهاز الفرنج فرصة موت نور الدين ، واضطراب أمور الدولة ، ومهاجرتهم لمدينة بانياس بقصد الاستيلاء عليها .

استغل شمس الدين بن الداية الوضع ، ونقل الصالح اسماعيل الى حلب ، مدعا بأنها المقر الأصلي للدولة النورية ، وأنها الأقرب الى سيف الدين غازي صاحب الموصل والجزيرة ، الطامع في املاك نور الدين (١) . ولكن الأمور لم تصف لآبن الداية في حلب ، بل نافسه فيها سعد الدين كشتكين احد كبار القادة ، فقبض على ابن الداية ، واستبد بأمر الصالح (٢) . وكانت حلب قد تعرضت لغتنة داخلية اثر وفاة نور الدين ، وذلك لأن هاضم الاثنى عشرية التي كانت كثيرة العدد في المدينة والتي خضعت للسلطة النورية ، رفعت رأسها اثر موته ، وحدث الاصطدام بينها بقيادة ابن الخشاب وبين بقية السكان والجنود بقيادة بني الداية . وأسفرت المرحلة الأولى من هذا الصدام عن انتصار أبناء الداية الذين اقصوا بالقلعة عدما هاجمهم الاثنى عشرية ، ثم انحدروا منها ، ودحروا خصومهم ، حتى وصلوا

١ - ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ١٦٣ - الكامل في التاريخ ، جز ١١ ص ٤١٥
٢ - انظر كيفية نقل الملك الصالح الى حلب في كل من اي شامة : المصدر السابق ، جز ١ ص ٢٣١-٢٣٢
- ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جز ١١ ، ص ٤١٥

الى دار ابن الخشاب فتهبونها دون أن يتمكنوا من القبض عليه (١) .

أما الموصل ، فقد كان صاحب الحكم فيها سيف الدين غازي الثاني ابن عم الملك الصالح ، الذي ما أن علم بوفاة عمه حتى أسرع الى ضم ما يليه من البلاد مثل نصيبين والخابور وحران والرها والرقه وسروج وغيرها (٢) . وقد سئحت له الفرصة بضم مدينة دمشق اليه حين استدعاه ابن المقدم ليسلمها له ، ولكنه خشي ان يكون في الأمر موهامة مدبرة ، فلم يفعل (٣) .

ومما لاشك فيه ان هذه الخلافات في بلاد الشام كانت تهدد مركز المسلمين تهديدا خطيرا في الوقت الذي كان الصليبيون يتوعدون ويتحفزون ، مما أدى بالبعض الى المناداة بتحكيم صلاح الدين ، وطن رأس هؤلاء كمال الدين بن الشهرزوري الذي قال لمن معه : (قد علمتم ان صلاح الدين صاحب مصر هو من ممالك نورالدين ، ونوابه أصحاب نورالدين ، والمصلحة ان نشاوره في الذي نفعله ولا نخرجه من بيننا ، فيخرج عن طاعتنا . . . وهو أقوى منا لأنه قد انفرد اليوم بملك مصر) (٤) .

وانذا كان الامراء في الشام قد رفضوا تحكيم صلاح الدين ، فان صلاح الدين كان يعرف ويقدر مركزه حق قدره ، فبادر هو بالكتابة الى الملك الصالح اسماعيل ، معاتبيا له على عدم استدعائه لحماية املاكه من ابن عمه سيف الدين ، كما كتب الى الامراء مبينا مركزه قائلا : (لو أن نورالدين يعلم ان فيكم من يقوم مقامه ، او يثق به مثل ثقته بي لسلم اليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولا يات . . .

-
- ١ - ابن شداد : المصدر السابق ص ٤٩
 - ٢ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ص ٢٣٢ - ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٧٥ - الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ص ٤٠٦ - ٤٠٧
 - ٣ - ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ، ص ٤١٥ - ٤١٦
 - ٤ - ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ص ٤٠٥ - التاريخ الباهر ، ص ١٩٢ - ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٣

ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد الى احد بتربية ولده ، والقيام بخدمته
غيره . وأراكم قد تفردتم بمولاي وابن مولاي دوني . وسوف أصل الى خدمته ،
وأجازي انعام والده بخدمة يظهر أثرها ، وأجازي كلا منكم على سوء صنيعه
في ترك الذب عن بلاده (١) .

وهكذا فانه يتضح ان الدوافع التي أوجبت على صلاح الدين التدخل
في أمور الشام كانت كما يلي :

١ - عدم قيام الأمراء الذين سيطروا على الصالح اسماعيل بحماية
املاكه والحفاظ عليها أمام مطامع ابن عمه سيف الدين غازي
الثاني (٢) .

٢ - اهتمام الأمراء في بلاد الشام بتحقيق مطامع شخصية وبالتنافس
بينهم من أجل تحقيقها مما أدى الى تفكك الجبهة الشامية
ثانية بعد أن جهد نورالدين في توحيدها .

٣ - ضعف القائميين في بلاد الشام عن الوقوف بحزم أمام الصليبيين
الذين أخذوا بغزو المناطق المحيطة بدمشق ، وكادوا ان
يحققوا أهدافهم لولا التنازلات التي قدمها لهم ابن المقدم ،
بدفعه لهم مبلغا من المال وفك اسراهم (٣) . وقد أغضب
تصرف ابن المقدم هذا وتخاذله أمام الصليبيين صلاح الدين
فأبدى أسفه لهذا التخاذل ، وأوضح بأنه سينهض بمقارعتهم

١ - ايشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٣١ - ابن الاثير : الكامل في
التاريخ ، جزء ١١ ، ص ٤٠٥ - ٤٠٦ - التاريخ الباهر ص ١٦٢ - ابن
واصل : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٧
٢ - انظر فيما سبق
٣ - انظر فيما سبق ، وانظر ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ،
ص ٤٠٨

والدفاع عن أملاك الصالح اسماعيل (١) .

٤ - كان صلاح الدين يريد أن يسير على نفس النهج الذي سار عليه قبله عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود ، وذلك بالعمل على توحيد بلاد الشام ومصر في جبهة اسلامية واحدة ، وتستطيع ان تقف في وجه الصليبيين ، وتستعيد منهم ما احتلوه من البلاد (٢) .

لم يعمل صلاح الدين مباشرة اثر وفاة نور الدين على التدخل في الشام ، بل ارسل الى الملك الصالح كتابا يهنئه فيه بالملك ، ويعزيه بوفاة ابيه . كما ارسل له دنانير مصرية سك عليها اسمه ، وأعلمه بأن الطاعة والخطبة له (٣) . كما بعث للأمرء المحيطين به يدعوهم للتعاقد والتآزر في وجه العدو المترص ، معلنا أنه سيكون للصالح اسماعيل كما كان لأبيه مخلصا في الخدمة . وحين لم يتخاذل الأمرء عن الدفاع عن ابن سيدهم ارسل لهم رسالة قال فيها : (أنا أحق بتربية الملك الصالح رعاية لعهد والده . ولو استمرت ولاية عهده لا القوم تفرقت الكلمة ، وطمعت الكفار في البلاد ، انا لا نؤثر للاسلام وأهله الا ما جمع شملهم وألف كلمتهم . وللبيت الاتابكي إلا ما حفظ أصله وفرعه ، أو دفع ضره وجلب نفعه) (٤) .

٢ - بداية عملية التوحيد على يد صلاح الدين

اعترض صلاح الدين اثر وفاة نور الدين بعض المشاكل اخرتها عن حماية الصالح اسماعيل وأملاكه في الشام ، على رأسها وصول اسطول صقلية الى الاسكندرية

- ١ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ، ص ٤٠٨
- ٢ - الشيبان : المرجع السابق ، ص ٤٤ - ٤٥
- ٣ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٣١ - ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٦٢ - ١٦٣
- ٤ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٣٤ - ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ١٨

وحركة الكنز (١) . الا انه بعد ان انتهى من التخلص من هذه الأخطار بنجاح منقطع النظير، ولمس ضعف القائميين في بلاد الشام على حماية الملك الصالح اسماعيل واملاكه ، والمنافسات القائمة بينهم وتخاذلهم أمام الفرنج ، قرر التوجه اليها .

أ - ضم مدينة دمشق وحصن وحماة :

خشي من بدمشق من الأمراء أن يقصد هم سعد الدين كشتكيم مؤيدا نفسه بالملك الصالح اسماعيل ، فيعاملهم كما عامل بني الداية . ولذلك راسلوا سيف الدين غازي الثاني في الموصل ليسلموها اليه فلم يجيبهم خوفا من ان يكون في الأمر مؤامرة (٢) . فحملهم الخوف على ان راسلوا صلاح الدين في مصر وأرسلوا اليه رسلا يطلبون منه الحضور ، فلم يتردد ، وتوجه مباشرة الى الشام ، حيث أعلن وهو في طريقه اليها أنه انما خرج لا نقاذ الصالح اسماعيل من أطماع المحيطين به ، وللإشراف بنفسه على تربيته وتدبير ملكه ، والقضاء على الفرقة التي أطمعت الفرنج في البلاد ، وتوحيد ممتلكات نورالدين التتسي أضحت تمتد من حلب الى اليمن ، ولم في هذا التوحيد من فائدة في تحرير بيت المقدس من الصليبيين (٤) . وقد أوضح صلاح الدين ذلك في الرسالة التي وجهها للخليفة العباسي . وقد يكون أعلمه بذلك ، ليجعل من توجهه الى الشام عملا شرعيا (٥) .

١ - انظر فيما سبق ، وانظر ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٣٤

٢ - انظر فيما سبق

٣ - ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٧٦-١٧٧ - الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ، ص ٤١٥-٤١٦

٤ - ابن شداد : المصدر السابق ص ٥٠ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٤١-٢٤٢

٥ - ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٧-٢٨ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٤١-٢٤٣

انطلق الناصر صلاح الدين ورفقته سبعمائة فارس ، فوصل بلبليس في شهر ربيع الاول من سنة ٥٧٠ هـ (١) ، بعد ان استخلف على مصر أخاه العادل . وتمكن من دخول مدينة بصرى دون اى مقاومة ، ثم تسلم مدينة دمشق من ابن المقدم في يوم الثلاثاء نهاية ربيع الاول سنة ٥٧٠ هـ / تشرين الثاني نوفمبر ١١٧٤ م ، حيث استقبل فيها استقبالا طيبا ، وكان دخوله الى المدينة تحت شعار الولاة للملك الصالح اسماعيل ، ورد املاكه التي أخذت منه في الجزيرة ، واعادتها الى سابق عهدها (٢) .

عمل صلاح الدين على استمالة قلوب أهل دمشق اليه ، فوزع عليهم الأموال الطائلة ، وأظهر الفرح والسرور ببلقائهم (٣) . وبعد أن وطد أمره بها ترك فيها أخاه سيف الاسلام طغتكين يحكمها باسم الملك الصالح اسماعيل ، وسار الى حصص حيث دخلها في جمادى الأولى سنة ٥٧٠ هـ / ديسمبر كانون الأول سنة ١١٧٤ م ، ثم استولى على مدينة حماه في اواخر الشهر نفسه (٤) .

ب - ضم مدينتي حلب والموصل

لم تفتح حلب ابوابها لصلاح الدين بنفس السهولة التي استطاع بها أن يدخل مدينة دمشق وحصص وحماه ، بل وجد في طريقه اليها صعوبات ، ومقاومة كبيرة قادها في البداية سعد الدين كشتكين ، الذي تعاون ضده

-
- ١ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٣٥-٢٣٦
 - ٢ - ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٥٠ - ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٧٦-١٧٧
 - عاشور : مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ، ص ٣٤-٣٥
 - ٣ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٣٧ - ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٥٠
 - ٤ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٢٨

مع صاحب الموصل ومقدم الاسماعيلية والصلبيين .

حين ألقى صلاح الدين الحصار على مدينة حلب أعلن انه يريد تخليص الملك الصالح اسماعيل من سيطرة سعد الدين كشتكين (١) . ولكن الأخير لجأ الى تأمين مقاومة ناجحة في حلب ضد صلاح الدين . فجمع حوله قلسوب أهل المدينة (٢) ، كما استنفر القوي المجاورة في بلاد الشام ، والتي ترى في سيطرة صلاح الدين على بلاد الشام اضافة الى مصر خطرا يهددها . فعمل على الاستعانة بالاسماعيلية والصلبيين في امارة طرابلس ، والزنكيين فسي الموصل . على أن يقوم الاسماعيلية الذين يقودهم شيخ الجبل سنان من معقله في مصياف بارسال بعض رجالهم لاغتيال صلاح الدين (٣) ، ويعمل الصليبيون من طرابلس بقيادة رموند الثالث على تهديد مؤخره صلاح الدين بالهجوم على مدينة حصص (٤) .

ويبدو ان رموند أمير طرابلس ، والوصي على عرش مملكة بيت المقدس في تلك الآونة . كان يدرك تماما أهمية تحالف الصليبيين مع أمراء حلب . كما أدرك خطورة قيام وحدة بين القاهرة ودمشق وحلب . لذلك أسرع الى نجدة أمراء حلب ليسد الطريق في وجه صلاح الدين ، ويحول دون قيام وحدة عربية في بلاد الشام ومصر (٥) .

-
- ١ - ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ، ص ٤١٧-٤١٨
 - ٢ - أبوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٣٨-٢٣٩
 - ٣ - أبوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٣٩ - ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ، ص ٤١٨-٤١٩
 - ٤ - ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ، ص ٤١٩-٤٢٠ - أبوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٣٨
 - ٥ - سعيد طاشور : المرجع السابق ص ٣٦ نقلا عن وليم الصوري

نقد ريموند ما كلف به هو توجه بقواته لمهاجمة مدينة حصن التابعة
لصلاح الدين . فوجد صلاح الدين نفسه محاصرا بين قوات حلب بقيادة
سعد الدين كمشتكين ، وبين الصليبيين في جنوبيه . فلم يجد بدا من فسك
الحصار عن مدينة حلب ، والارتداد جنوبا لرد الصليبيين هوذاك في رجب
سنة ٥٧٠هـ / اوائل شباط فبراير ١١٧٥ م^(١) . وما ان وصل صلاح الدين
الى حصن حتى قرّ الفوج عنها^(٢) ، فسار في اعقابهم حتى مدينة بعلبك
حيث فتحها مع قلعتهما^(٣) .

عاود صلاح الدين حصار حلب بعد ان طرد الصليبيين عن حمص ،
فوجد نفسه مضطرا لقتال جيش متحد مؤلف من زنكي الموصل وحلب . وقد
كان زنكي الموصل قد لبوا الدعوة التي وجهها لهم زنكيو حلب لقتال صلاح
الدين^(٤) خوفا منه وخشية على املكهم . ودارت بين الفوجين معركة عتد
قرون حماه في رمضان سنة ٥٧٠هـ / اوخر ابريل نيسان ١١٧٥م ، انتصر
صلاح الدين فيها على الزنكيين^(٥) ، وعقد معهم صلحا كانت أهم بنود ،
ان تبقى حلب وما حولها للملك الصالح اسماعيل ، وأن تكون الأجزاء الواقعة
جنوب حلب ملكا لصلاح الدين^(٦) .

استشاط سيف الدين غازي صاحب الموصل غضبا حين سمع بالصلح
بين الملك الصالح اسماعيل ، وصلاح الدين . وبعث الى ابن عمه وأمراة

- ١ - ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جز ١١ ص ٤١٩
- ٢ - ابوشامة : المصدر السابق ، جز ١ ص ٢٣٩
- ٣ - ابوشامة : المصدر السابق ، جز ١ ص ٢٤٧ - ابن الاثير : الكامل في التاريخ
جز ١١ ص ٤٢٠
- ٤ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جز ١١ ص ٤٢٠
- ٥ - ابوشامة : المصدر السابق ، جز ١ ص ٢٤٨ - ٢٤٩
- ٦ - ابوشامة : المصدر السابق ، جز ١ ص ٢٤١ - ٢٤٤

حلب يعتبر عليهم ويوخبهم على التسرع في توقيع الصلح ، وحرضهم على نقضه وتعال صلاح الدين ، وما لبث زنكيو حلب أن أذعوا له ونقضوا الصلح ، وتحالفوا ثانية مع سيف الدين غازي ، وتجدد القتال بين المتحالفين — وصلاح الدين بالقرب من حلب عند تل السلطان في شوال سنة ٥٧١هـ / نيسان ١٢٦٦م ، حيث انتصر صلاح الدين للمرة الثانية على جموع الزنكيين فسي الموصل وحلب ، واستولى على غنائم ضخمة (١) .

انتقل صلاح الدين بعد هذا الانتصار الى الاستيلاء على الحصون والقلاع المحيطة بمدينة حلب ، ليسهل عليه فتحها (٢) . فاستولى على بزافة ومنج واعرار (٣) . وقد تعرض في أثناء حصاره لقلعة اعزاز للاغتيال من قبل الاسماعيلية ، فوجا وجرح خده فقط (٤) .

اتجه صلاح الدين بعد انتصاراته في المناطق المحيطة بحلب الى القاء الحصار عليها في منتصف ذي الحجة سنة ٥٧١هـ / حزيران ١٢٦٦م . وظل على ذلك حتى مطلع سنة ٥٧٢هـ ، حيث طلب أهل حلب الصلح ، فأجابهم اليه صلاح الدين ، على ان تكون حلب وأعمالها للصلح اسماعيل ، وان يكون لصلاح الدين مصر وبلاد الشام من حماه وما يليها جنوبا . كما وهب مدينة اعزاز لابنة صغيرة لنورالدين (٥) .

وهكذا فشل صلاح الدين في هذه الفترة في ضم مدينة حلب اليه على

- ١ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٥٤ - ٢٥٥ - المقرئزي : السلوك في معرفة دول الملوك ، جزء ١ ، ص ٦٠
- ٢ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٥٦
- ٣ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٥٦ - ٢٥٧
- ٤ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٥٨ - الشيبان : المرجع السابق ، ص ٤٧
- ٥ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٥٩ - ٢٦١ - ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ، ص ٤٣١ - الشيبان : المرجع السابق ، ص ٤٧

الرغم من حصاره لها ثلاث مرات متتالية . وكان السبب في فشله هذا يعود الى اضطراره الى توزيع جهوده بين ثلاث جبهات . فالى جانب قتالهم للصليبيين في حلب والموصل ، فانه كان مضطرا الى الدخول في مناوشات وحروب محلية ضد الصليبيين اما لارهابهم او لصد عدوانهم ، وخاصة حين يستجد الزنكيون بهم . وكان عليه ايضا الا يغفل عن تحصين مصر والعمل على حمايتها ، بعد ان ظهر واضحا طمع الصليبيين فيها . ولعل هذا هو السبب الذي يجعلنا نجد صلاح الدين في هذا الدور لا يكاد يحارب الزنكيين عند حلب حتى يعقد معهم الصلح ويتجه لصد خطر الصليبيين ، ولا يكاد يدخل مع الصليبيين في حروب حتى يقبل عروضهم للهدنة ويسرع الى مصر ، ولا يكاد يقيم بعض الوقت في مصر يشرف على تحصينها حتى يبادر بالعودة الى الشام (١) .

لم ينس صلاح الدين للاسماعيلية فعلتهم ومحاولاتهم المتكررة لقتله ، فاتجه بجيشه الى املاكهم ، وحاصر حصنهم المنيع في مدينة مصيف ، وقتل العدد الكبير منهم ، وهدم الكثير من قلاعهم . وكان يصر على القضاء عليهم والاستيلاء على املاكهم ، لولا تدخل خاله شهاب الدين الجارمي صاحب حماه ووساطته وشفاعته بهم . فرحل عنهم حيث عاد الى دمشق ثم غادرها الى مصر (٢) في جمادى الاولى ٥٧٢هـ / نهاية كانون الاول ديسمبر ١١٧٦م . بعد ان تزوج من عصمة الدين خاتون بنت معين الدين اتر وأرملة نورالدين . وقد يكون فعل ذلك ليبدو وريثا لسيد (٣) .

١ - ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٧٥-٧٧ - سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، الجزء ٢ ، ص ٧٥٠ - مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ، ص ٣٨٠ .

٢ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٦١ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ، ص ٤٣٦ - الشيبان : المرجع السابق ، ص ٤٧-٤٨ .

٣ - ابوشامة : المصدر السابق ، ص ٢٦٣-٢٦٤ .

على الرغم من مشاغل صلاح الدين بتنظيم أمور المناطق التي يحكمها في مصر والشام بعد توقيعه لمعاهدة الصلح مع حكام حلب ، فإنه كان ينتظر الفرصة المناسبة لاتمام عملية التوحيد بضم مدينتي الموصل وحلب . وقد حدث بعد حوالي خمس سنوات من الصلح بعض الأحداث في المنطقة شجعت عليه لاتمام خطته ، ومن ذلك وفاة أمير الموصل سيف الدين غازي الثاني في صفر ٥٧٦هـ / آب افسطس ١٧٩م ، بعد أن أوصى بالامارة لأخيه عزالدین مسعود لصغير سن ابتداءه . كذلك توفي الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين صاحب حلب في رجب سنة ٥٧٧هـ / كانون الثاني يناير ١١١٨م وهو في التاسعة عشرة من عمره . فاستدعى الأمراء من أتباعه أيضا عزالدین مسعود لتسلمها (١) ولكن الخلاف دب بين الأخوين عزالدین مسعود وعماد الدين زنكي الثاني صاحب سنجار الذي طمع في تملك حلب ، مقابل تسليم أخيه عزالدین مسعود لسنجانر ، وهدده أن لم يفعل باستدعاء صلاح الدين وتسليم سنجانر له . ولم يجد عزالدین بدا من الموافقة نظرا لموقع مدينة سنجانر ولتهديد صلاح الدين عن طريقها لأملاك الزنكيين في حلب والموصل على السواء (٢) .

كان صلاح الدين يراقب الأمور عن كثب . ويعلم مدى خوف الزنكيين منه . ويرى وجوب القضاء عليهم لاتمام عملية التوحيد . وشجعه تحالف صاحب حران معه ، فأخذ في تثبيت أقدامه في منطقة الجزيرة ليفصل بين أملاك الزنكيين في كل من حلب والموصل لينفرد بكل منها على حدة . وفي عملية التثبيت استطاع فتح مدينة الرها وبعض المناطق الأخرى في الجزيرة ثم توجه بعد ها لحصار مدينة الموصل في سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م . وعلى الرغم من التضيق على

١ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جز ١١ ، ص ٤٧٢

٢ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جز ١١ ، ص ٤٧٤ - ٤٧٥

أهلها الا أنه لم يئل غرضه . فقد أهد عز الدين مسعود عذته للحصار ، وحشد داخل مدينته عددا ضخما من الرجال ، وكميات وافرة من الطعام والسلاح (١) . وجرت بين الطرفين مفاوضات لم تسفر عن شيء . لتثبت كل من الطرفين بنقاط لم يحد عنها . فقد تمسك عز الدين بأن يرد صلاح الدين كل ما فتحه من أملاك الزنكيين في الجزيرة ، على حين أن صلاح الدين كان يصر على بقاء هذه الأملاك تحت سيطرته ، إضافة الى تعهد عز الدين بعدم مساعدة أمير حلب في حال حربها مع صلاح الدين (٢) .

فشلت المفاوضات ، ولم يستطع صلاح الدين فتح الموصل بسبب قسطنطين الهالي سنجار طريق الامدادات . ولذلك فانه قرر فتحها ، وتم له ذلك بسرعة ، فتمكن بهذا الفتح من الفصل بين أملاك الزنكيين في حلب والموصل (٣) وأخذ من مركزه القوي يعمل على اضعاف مركز أمير الموصل ، فحرض الخليفة العباسي الناصر لدين الله ضده ، ونسب اليه التحالف مع الصليبيين (٤) ، فاكفى الخليفة بالوساطة بين الطرفين المتنازعين (٥) .

اهتم صلاح الدين بعد فتح سنجار بمدينة حلب وقرر فتحها . فالتقى الحصار عليها ، واهتم في نفس الوقت بفتح المعامل المحيطة بها مثل تل خالد وعين تباب ، وأقام المنازل على جبل جوشن ليتمكن من الاستمرار في الحصار ، فخشية صاحبها وادراكه انه لا قبل له بالمقاومة ، ولذلك فانه رفض الاستجداد بالقوى المحيطة به ، وأخذ يفكر بالمفاوضة على الرغم مما

-
- ١ - ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ١١٩ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ، ص ٤٨٤ - ٤٨٥
 - ٢ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ، ص ٤٨٦ - ٤٨٧
 - ٣ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ، ص ٤٨٧ - ٤٨٨
 - ٤ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٦٥
 - ٥ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ، ص ٤٨٨

أظهره أهالي حلب من قوة في مقاومة صلاح الدين ، فأرسل إلى صلاح الدين سرا يعرض عليه تنازله عن حلب مقابل إعطائه مدينة سنجار ، فوافق صلاح الدين وزاد ، الخابور ونصيبين والرقعة (١) ، على أن يحكمها كتابع له يلحق بسـه بجند ، حين الطلب ، وتم ذلك في ١٨ صفر ٥٢٩هـ / حزيران ١١٨٣م ، وبذلك تم فتح حلب وأصبحت بلاد الشام بكاملها بيد صلاح الدين .

اشغل صلاح الدين عقب امتلاكه لمدينة حلب بقتال الصليبيين ، ولكنه كان دائم التفكير في مدينة الموصل ، ولذلك فإنه بدأ بعزلها وجعل الأمراء المحيطين بها يدنون له بالتبعية ، ولما تأكد من ذلك التقى الحصار على الموصل للمرة الثانية في ربيع الثاني سنة ٥٨١هـ / تموز ١١٨٥م (٢) ، ونسي أثناء الحصار قام بفتح مدينة ميفارقين (٣) ، ثم عمل على تشديد الحصار على الموصل ، وبدأت بين الطرفين سلسلة من المفاوضات ، وأخذت الرسائل تتردد بينهما ، فأسفر ذلك عن توقيع صلح بين الطرفين ، اتفقا فيه على أن يبقى عوالمدين حاكما على الموصل كتابع لصلاح الدين ، يخطب له على منابـر بلاد ، ويضرب السكة باسمه (٤) ، وهي سياسة سار عليها صلاح الدين مع العديد من الأمراء في المنطقة .

وبهذا يكون صلاح الدين قد حقق الوحدة بين بلاد الشام ومصر ، وأضاف إليها الموصل ، وجعل أمراء الأيوبيين تابعين له ، فأمن بذلك ظهره ، وأصبح بإمكانه التوجه لقتال الصليبيين .

-
- ١ - ابن شداد : المصدر السابق ص ٩٨
 - ٢ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ص ٥١١ - ٥١٤ - الحنظلي : المصدر السابق ص ١١٤ - ١١٥
 - ٣ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ص ٥١٥ - ٥١٦
 - ٤ - ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ٢ ص ١٧٢ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ص ٥١٦ - ٥١٨

موقف صلاح الدين من الصليبيين قبل المعارك الكبرى :

لم يكن صلاح الدين في الفترة بين تسلمه السلطة سنة ٥٨١هـ / ١١٨٥ م • منصرفا لحرب الصليبيين ، وانما وجه جل جهده نحو توحيد الجبهة الإسلامية • ولذا كانت حروبه يغلب عليها الطابع الدفاعي • فهي ا لحماية املاك المسلمين وارضيتهم ، واما ليحول بين الصليبيين ومساعدة بعض القوى الإسلامية الانفصالية التي أعتتها شهوة الحكم عن رؤية الخطر الخارجي • وقد دأب الصليبيون في هذه الفترة على مهاجمة المناطق التي كانت في يد صلاح الدين وتحت سلطته • كما عملوا على تحصين المناطق الاستراتيجية في حوزتهم لجعلها نقاط انذار لهم في عمليات الدفاع ، ونقاط انطلاق فسي عملية الهجوم ، مستفيدين من انشغال صلاح الدين في عملية توحيد بلاد الشام ومصر • وقد استعانوا في أعمالهم تلك ، بجموع أوربية من اولئك الذين كانوا يقدمون الى البلاد للحج أو للغزو • وكان الصدام بين الطرفين فسي جهات متعددة في الجنوب والجنوب الغربي ، وفي الشرق والشمال الشرقي وفي البحر الأحمر •

بدأ صلاح الدين أول عمل هجومي بعد أن أصبح سلطانا بالقيام بغزو شغل عسقلان في اواخر جمادى الأولى سنة ٥٧٣هـ / كانون الأول ديسمبر ١١٧٦م (١) • وقد أراد بلدوين الرابع دخول مدينة عسقلان بقلعة من رجاله ، فحصره صلاح الدين بها • ومن ثم أصبحت الساحة في فلسطين خالية لصلاح الدين وجنوده ، فترك صلاح الدين بعض رجاله على أبواب عسقلان وتقدموا في فلسطين الى الجهات الواقعة بين أرسوف ونابلس • ووصل

١ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ص ٤٤٢

بعضهم الى تل الصافية ، وما ليث المسلمون ان فوجوا ببلد بين الرابعين
يشق طريقه خارج عسقلان ، حيث باغت صلاح الدين عند تل الصافية ، وعلى
الرغم من أن صلاح الدين بذل جهداً للوقوف في وجه الصليبيين ، فان اكثر
رجاله قتلوا ، ولم ينج هو نفسه الى مصر الا بشق الأنفس (١) .

أدت هذه المعركة الى تقوية معنويات الصليبيين ، وتدعيم مركزهم ،
ورفعت من شأن بلدوين الرابع الذي اخذ بعد المعركة يعمل على تحصين
مملكته ضد أي هجوم متظر . فشيّد قلعة جديدة قرب بانياس عند بيت يعقوب
عرفت باسم حصن جسر بنات يعقوب ، كما شيّد في السنة التالية حصن هوثين ،
والغاية من ذلك اغلاق الطريق من ناحية دمشق .

لم يكن صلاح الدين غافلاً عما يجري حوله ، بل كان يعمل على احكام خط
الحدود شرقي الامارات الصليبية ، ويعين أقاربه عليها ، ومنتظر الفرصة
المناسبة للانقضاض عليهم . وقد حاول الصليبيون عرقلة عمله في التوحيد ،
فهاجموا في الجبهة الشمالية مدينة حماة أكثر من مرة ، ولكن غاراتهم لم
تفلح في تحقيق أهداف كبيرة (٢) . كذلك فانهم هاجموا مدينة حارم ،
ولكنهم لم يستطيعوا فتحها (٣) . كما أغاروا على مناطق تابعة لمدينة
دمشق (٤) . وقاموا بالاعتداء على رعاة الماشية بالقرب من بانياس ، أسفر
عن اشتباك محلي ، تطور الى قتال عام . اشترك فيه من الصليبيين ملك بيت
المقدس وصاحب حصن بانياس ، ومن الجانب الاسلامي عزالدين فرخشاه .

١ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جز ١١ ، ص ٤٤٢-٤٤٣ - ابوالمحاسن :

المصدر السابق ، جز ٦ ، ص ٢٧

٢ - ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جز ١١ ، ص ٤٤٤

٣ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جز ١١ ، ص ٤٤٥

٤ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جز ١١ ، ص ٤٥٢-٤٥٣

ثم انضم اليه عمه صلاح الدين الذي كان يتمركز بالقرب من بانهاس منذ سنة ٥٧٤هـ / ١١٧٧ - ١١٧٨ م . وقد جرت بين صلاح الدين والفرنج معركة (١) في المنطقة ، انتصر فيها صلاح الدين ، وأسر مقدم الداوية ومقدم الاسبتارية وأصيب بلدوين نفسه اصابات خطيرة ، على حين توفي صاحب حصن بانهاس . وجرت بين الطرفين مفاوضات أصّر فيها صلاح الدين على هدم حصن بنسات يعقوب مقابل تعويضهم بالمال . فعرض في أول الأمر ستين الف دينار ، ثم مائة الف فلم يوافقوا . فترك المفاوضات وهاجم الحصن في أول ربيع الأول سنة ٥٧٥هـ / آب ١١٧٩ م حتى استطاع دخوله وهدمه (٢) . وتابيع صلاح الدين انتصاراته بسرعة مذهلة ، فأغار على صور وصيدا وبيروت ، وهاجم اسطوله عكا . عند ذلك طلب بلدوين الرابع منه الموافقة على عقد هدنة ، فوافق صلاح الدين على الطلب . وتفرغ لمهاجمة الامارات الصليبية في الشمال مما دفع أمير طرابلس ويموند الثالث الى عقد هدنة معه .

لم يتوقف القتال في الجبهة الشمالية الا فترة ، وطاد صلاح الدين - الجبهة الشمالية - لمهاجمة الصليبيين من هذه الجهة ، فاستولى سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢ م على قلعة الشقيف (حبيس جلدك) وهي القلعة التي تحمي مملكة بيت المقدس من هجوم مفاحي من شرقي نهر الأردن (٣) . كما أغار على منطقة الغور وحقق انتصارات ملموسة (٤) .

أما في جهات البحر الأحمر ، فقد تمثل لصلاح الدين خطر جديد في شخص فارس صليبي متهور ، امتلأت حياته بقصص الغدر والخيانة ،

- ١ - ابوشامة : المصدر السابق ، جز ٢ ، ص ١٠
- ٢ - ابوشامة : المصدر السابق ، جز ٢ ، ص ١١ - ١٣ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جز ١١ ، ص ٤٥٥ - ٤٥٨
- ٣ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جز ١١ ، ص ٤٧٩
- ٤ - ابوشامة : المصدر السابق ، جز ٢ ، ص ٢٨ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جز ١١ ، ص ٤٨١

عرف باسم أرناط في العربية ، وريجنالد احيانا وهو رينودي شاتيون . وقد جلب للملكة بيت المقدس كوارث كثيرة لما قام به من حملات غير مدروسة النتائج ، وما أطلقه من تهديدات جوفاء مخالفة لما جاء في الهدنة المعقودة بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس .

قدم أرناط من فرنسا الى انطاكية حيث سئحت له الظروف أن يتزوج من الوصية على عرش انطاكية فعلا شأنه فقام بمغامرات حربية طائشة ، فأسيره المسلمون قرابة سبعة عشر عاما ٥٥٦-٥٧٣ هـ / ١١٦٠-١١٧٧ م . وعند ما أطلق سراحه تزوج بوريثة صاحب الأردن وعاصمته طبرية اضافة الى الكرك والشويك . وكان مما يحلوا لارناط ان يعمل على السيطرة على الطريق التجارية والدنية الى مكة ، لغرض الاتاة على القوافل التي تجتاز الكرك . وقد بدأت محاولاته تلك في سنة ٥٧٧ هـ / ١١٨١-١١٨٢ م بالهجوم على واحة تيماء ، وغايته الاستيلاء على الأماكن المقدسة في الحجاز . فنهض فروخ شاه نائب صلاح الدين بدمشق بالاغارة على الكرك ، حتى اضطر ارناط الى العودة اليها لحمايتها (١) .

لم يبأس أرناط من تحقيق مشروعه ، بل عاد الى محاولة تنفيذ ثانية ، واختار في هذه الجولة طريق البحر . فبنى سنة ٥٧٧ هـ / ١١٨١-١١٨٢ م ، الأجزاء التي تتكون منها السفن ، ثم نقلها على الابل الى ساحل البحر الأحمر ، حيث جرى تركيبها وشحنها بالرجال والآلات الحرب . وعمل على حرمات أهالي العقبة من الماء ، ومضى حتى وصل الى عذاب ، حيث صادف مركبا يحمل حجاجا من جدة ، فأسرهم ثم قتلهم . كما نهب مركبين قادمين

١ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ، ص ٤٧٠

ببضائع من اليمن ، واستولى على الميرة المخصصة لأهل الحجاز (١) . وتوجه
بعدها برا إلى الحجاز .

كان الأيوبيون بالمرصاد لأرناط . فأرسل العادل على أخو صلاح الدين
ونائبه في قصر مراكب من السويس تمكنت من هزيمته (٢) ، وأسر أعدادا
كبيرة من رجاله نقلوا إلى الاسكندرية . وقد ترك لنا ابن جبير وصفا لذلك
شاهد ، بأمر منه في الاسكندرية في ذي الحجة سنة ٥٧٨ هـ / نيسان ١١٨٣ م ،
ورأى اجتماع الناس لمعاينة أسرى الروم فقال : (٥٠٠) ادخلوا البلد
راكبين على الجمال ، ووجههم إلى أذنابها (٥٠٠) . وبذلك بدأت محاولة
أرناط في الوصول إلى الأماكن المقدسة ، وقطع طريق الحاج بالقتل ، وأسفرت
عن عداوة شديدة بينه وبين صلاح الدين (٣) .

وعلى الرغم من سرعة قضاء العادل على هذا الهجوم ، فإنه أدرك محاولة
أرناط ضرب العرب المسلمين في صميم ديارهم ، ضربهم في أماكنهم المقدسة .
ولذلك فإن صلاح الدين صمم على فتح الكرك . فهاجمه في ربيع الآخر سنة
٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م آب اغسطس ١١٨٤ م والتي الحصار عليه مع قلة من أتباعه
وأمرأه المسلمين . وكان يتجح لولا تدخل ملك بيت المقدس الذي أنقذ
الحصار ، فاضطر صلاح الدين للانسحاب ، ولكنه انتقم بالهجوم على نابلس
وسهسبية وجنين (٤) .

-
- ١ - ابن جبير : رحلته ص ٥٧ - المقرئ : السلوك ، جز ١ ص ١٧٩
 - ٢ - ابوشامة : المصدر السابق ، جز ٢ ص ٢٢ - ابن واصل : المصدر السابق
جز ٢ ص ١٢٧ - ١٢٨
 - ٣ - انظر ابن جبير : رحلته ص ٥٧ وانظر أيضا ابن واصل : المصدر السابق ،
جز ٢ ص ١٢٨
 - ٤ - ابوشامة : المصدر السابق ، جز ٢ ص ٥٦ - ابن الاثير : المصدر السابق ،
جز ١١ ص ٥٠٢ و ٥٠٦ - الحنبلي : المصدر السابق ص ١١٤

صلاح الدين والمعارك الكبرى مع الصليبيين

١ - الموقف قبل حطين

بلغ صلاح الدين ذروة قوته بعد أن جعل كلاً من الموصل وحلب تابعيتين له . إذ أصبحت البلاد من طوروس حتى الثوبة تحت أمرته ، وقد أوثق الرباط بين أجزائها بجعلها في يد أبنائه من ذريته (١) ، ثم انه أصبح يملك اسطولا قويا يعسكر في مصر ، تمكن من حصار بيروت (٢) والداروم وغـزة ومـسـقـلان . كما أصبح مرهوب الجانب نفسي الداخل والخارج . ففي الداخل ، أصبح أمراء المسلمين يؤيدونه بما فيهم الخليفة ، او يطيعونه رهبة . أما في الخارج ، فقد استطاع فرض احترامه على الدول المحيطة . فعقدت الامبراطورية البيزنطية مع صلحاء ، وأنهت علاقاتها العدائية ، وسمحت له بإعادة بناء مسجد القسطنطينية (٣) ، في حين أن الصليبيين كانوا في وضع سيئ . فقد كان بلدوين الرابع ملك بيت المقدس على فراش الموت وأمر العرش في وضع قلق ، لأنه لم يكن له خلف يرثه في المملكة . ففوض في البداية جاي لوزجان (غي دي لوسينيان) زوج أخته بالصوابة على المملكة ، ثم أبعد ، لسوء سيرته ، وأعلن بلدوين الخامس ابن اخته من زوجها وليم دي مونتفرات شريكاً له في حكمها ووريثاً . وجعل ريموند الثالث أمير طرابلس وصياً عليه . فوقع بذلك خلاف بين جاي لوزجان (هي دي لوسينيان) وريموند الثالث ، تطور بينهما الى قتال بعد وفاة بلدوين

١ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ص ٥٢٣ - ٥٢٥ - الحنبلي :

المصدر السابق ، ص ١١٨ - ١١٩ -

٢ - ابوالمخاسن : المصدر السابق ، جزء ٦ ص ٣٠ - ٣١

٣ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ص ٤٨٢

٣ - الباز العريني : مصر في عصر الأيوبيين ص ٧٢ - ٧٣

الرابع ، انتهى لصالح جاي لوزجان . ولم يجد رموند أمير طرابلس بعد استبعاده بدا من الاصلح بصلاح الدين ، الذي وعد النصر على خصومه حتى يجعل منه ملكا على الفرنج قاطبة (١) .

هكذا كان حال امارتي بيت المقدس وطرابلس . ولم تكن امانة انطاكية افضل منهما . فقد أصبحت اراضي هذه الامارة في متناول صلاح الدين منذ أن سيطر على حلب وحارم . وأخذ أميرها بوهيموند الثالث باسترضاء صلاح الدين بفك أسارى المسلمين لديه . واجتمع امراء الامارات الصليبية في بيت المقدس للتداول في الأوضاع ، وخاصة أوضاع امانة انطاكية ، فأقرروا عقد هدنة مع صلاح الدين لتمكين امانة انطاكية من تقوية دفاعاتها ، مدتها أربع سنوات تبدأ من سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٥م (٢) . وقد أتاحت هذه الهدنة للصليبيين تصفية كثير من المشاكل الداخلية التي نشبت بينهم بعد وفاة بلدوين الرابع . ولكن جاي لوزجان الذي أصبح ملك بيت المقدس ، لم يكن على مستوى المسؤولية ، بل يمكن القول أنه كان ضعيفا ، فلم يستطع كسب ود أمير طرابلس ، وانهاج الخلاف بينهما (٣) ، مما أدى الى حدوث كارثة كبرى حطمت شملهم وهي معركة حطين (٤) .

٢ - معركة حطين

أدى تخبط الصليبيين في مشاكلهم الداخلية الى قوة مركز صلاح الدين ، مما دفعه الى الانقضاض على الصليبيين وقتالهم في حطين . وكان لهذه

١ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جز ١١ ، ص ٥٢٦ - ٥٢٧ - الحنبلي :

المصدر السابق ، ص ١١٨

٢ - طشور : مصر والشام في عصر الأيوبيين ، والممالك ، ص ٥٠

٣ - الباز المعري : المرجع السابق ، ص ٧٢

٤ - Lane Poole: op. cit., p. 181

المعركة أسباب متعددة بعيدة ، وأسباب قريبة مباشرة يمكن تلخيصها بما يلي :

- ١ - كانت الامارات الصليبية التي أقيمت في الشام تسير نحو الضعف -
لأمور متعددة على رأسها :
 - الخلافات بين الأمراء ومحاولة كل منهم تحقيق مكاسب شخصية ، واهتمام عدد كبير من الأمراء بالوصول الى عرش بيت المقدس .
 - حاجة الصليبيين في الشام الى مدد اثم من أوروبا ، ليعوضوا ما يفقدونه في الحروب ، واولئك الذين يغادرون المنطقة بعد أن يخبو حماسهم .
 - قلة الحملات الصليبية ، وأتصد قلة الدجعات العسكرية التي كانت تصل الى معسكر الصليبيين في تلك الفترة .
- ٢ - أهمية تخليص بيت المقدس من الصليبيين وهو ثالث الحرمين ، وقد أسرى الرسول اليه ، اضافة الى وجود ذكريات تاريخية للمسلمين لا تنسى .
- ٣ - القوة الاقتصادية في يد المسلمين كانت أكبر من تلك لدى الصليبيين .
فالمسلمون بأيديهم مناطق واسعة بوقد توحد جزء هام من هسذء المناطق تحت قيادة موحدة .
- ٤ - تدفق المسلمين حماسة لاستعادة ما سلبه الصليبيون منهم في ساعة ضعف ، وشعورهم بأنهم اصحاب حق اغتصب ولا بد من استعادته .
- ٥ - وجود قائد حكيم مقاتل شجاع محنك في الحروب وهو صلاح الدين الأيوبي (١) .

أما الأسباب المباشرة فتتلخص بما يلي :

قام أرناط في تلك الظروف السيئة بالنسبة للصليبيين - مستغلا موقع حصنه على خط التجارة بين مصر والشام والحجاز - بالانقضاء على قافلة تجارية للمسلمين متجهة من القاهرة الى دمشق سنة ٥٨٢هـ / او اخر سنة ، ١١٨٦ وأوائل سنة ١١٨٧ م ، فأخذها بأسرها ، وأسر جنودها المرافقين ، وأخذ خيلهم وهدتهم وسامهم العذاب (١) واستهزأ بدينهم قائل لهم : (فليات محمدكم ليخلصكم) .

ارسل صلاح الدين ينكو عمل صاحب الكرك ، ويطلب اليه رد ما استولى عليه من المسلمين ، واطلاق سراح الاسرى ، فامتنع وأصر على عصيانه ، فنذر السلطان وأعطى الله عهدا إن ظفربه أن يستريح دمه . وحاول جاي لوز جنان صاحب بيت المقدس أن يلزم أرناط باصلاح ما أنسده ، فلم يستجب إذ اعتبر نفسه مستقلا ، وليس بينه وبين صلاح الدين هدنة (٢) .

لم يعد امام صلاح الدين الا القيام بعمل حاسم ، ليس له صفة التأديب فقط ، فأعلن الجهاد ، ونادى بالتعبئة العامة لجميع قوى المسلمين - وموارد هم البشرية والمادية ، فجاءته الجيوش من كل اطراف الشام ومصر - وخرج من دمشق في محرم سنة ٥٨٣هـ / ٤ آذار مارس ١١٨٧ م للعمل على حماية الحجاج في عودتهم أولا ، من غدر صاحب الكرك ، ثم الشروع بمهاجمة أرناط فيها (٣) .

- ١ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ٢٠ ص ٧٥ - ابن واصل : المصدر السابق جزء ٢٠ ص ١٢٣ - ١٢٤ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ، ص ٥٢٧ - الحنبلي : المصدر السابق ، ص ١١٨
Baldwin : op. cit. p. 577
- ٢ - ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ١٨٥
- ٣ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ، ص ٥٢٩ - ٥٣٠ - الحنبلي : المصدر السابق ، ص ١١٨ - ١١٩

أنهى صلاح الدين مهمته الأولى ، فاستقبل الحجاج واطمأن عليهم ، ثم أخذ يعمل للسيطرة على الطريق بين مصر والشام للاستعانة بجيوش مصر في مهمته . فعمل على حرمان أرناط من الزاد بقطع الشجر حول الكسرك ، وفساد زروعها وكرومها هوكد لك فعل بالشويك (١) . ثم كلف بعض قواته بالاغارة على الشويك والكرك . وتوجه بعين معه ليعسكر بالقرب من بانيساس لحماية حليفه ريموند أمير طرابلس ، الذي اعتصم بمدينة طبرية قاعدة الجليل التابعة له ، وحاصر أنصار جاي لوزجنان من الجماعات الدينية . واحتجاجا على تنويج جاي لوزجنان على عرش بيت المقدس . (٢)

أحجم صليبيو بيت المقدس عن مهاجمة ريموند خوفا من جيوش صلاح الدين . وأدرك صلاح الدين أهمية دوره هذا ، وأراد أن يتأكد من التزام أمير طرابلس بتعهد له ، فطلب من ريموند أن يسمح لقوة استطلاعية من جيشه بالمرور في أراضيه إلى عكا لمهاجمتها . فلم يجد ريموند مفر من السماح للقوة بالمرور ، ولكنه أعطى تعليماته سرا لكافة المدن الصليبية الواقعة في إقليم الجليل بإغلاق أبوابها ، حتى لا يفسح للمسلمين فرصة الاستيلاء عليها . ومع ذلك فقد انتصرت هذه القوة على فرقة من الداوية اعترضت طريقها بالقرب من صفورية ، وقتل مقدم الداوية ورجاله البالغين خمسمائة إلا عددا لا يتجاوز أصابع اليدين (٣) .

كانت هذه المعركة فاتحة النصر ، ولكنها نهدت في نفس الوقت الصليبيين للخطر المحدق بهم ، وإلى ضرورة التخلص من النزاع موضح أيديهم مع

١ - الحنبلي : المصدر السابق ص ١١٩

٢ - المقرئى : السلوك ، جزء ١ ص ٩٣

٣ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ص ٥٣٠ - ٥٣١

بعضهم ، قبل أن يقضى عليهم • فبادر ريموند أمير طرابلس الى الدخول في طاعة الملك جاي لوزجان ، وانتقل من موقع الصداقة الى موقع العداوة مع صلاح الدين ، وتشكل جيش صليبي موحد عسكر في صفورية قرب عكا •

تحلل صلاح الدين مما كان بينه وبين أمير طرابلس ، وأصبح بإمكانه ان يواجه جيوش الصليبيين جميعا بكامل قوته • وسار ضمن خطة موضوعة منظمة رأى فيها أن يعمل على سحب العدو من مواقعه ، لمقاتلته في المكان الذي يحدده ، ويدأ تحرشه بهم بشن الغارات على مناطق العدو ، والزحف على مدينة طبرية هربيع الثاني سنة ٥٨٣هـ / حزيران سنة ١١٨٧م ، فتمكن من اقتحامها دون قلعته (١) •

عند زعماء الصليبيين مجلسا للحرب في عكا لبحث الموقف ، فاختلفت آراؤهم حول البقاء في معسكرهم أم السير للقاء صلاح الدين في طبرية • وكان على رأس المتسكين بالبقاء في أماكنهم أمير طرابلس ريموند الثالث ، على الرغم من أن طبرية تابعة له ، وأن زوجته محصورة في قلعته لأنه كان يقدر قوة صلاح الدين ويخشى مواجهته (٢) • وعلى الرغم من عقلانية موقفه وإخلاصه في رأيه ، فإنه اتهم بالجبن والتواطؤ مع المسلمين والتخوف منهم • وكان على رأس من اتهمه أرناط (٣) ، صاحب الكوك ، وجيرار مقدم الدلوية (٤) •

أصدر ملك بيت المقدس أوامره بالسير لمقابلة صلاح الدين ، فاستعد

١ - ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ١٨٨ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ، ص ٥٣١ - ٥٣٣ - ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٧٦ - الحنطلي : المصدر السابق ، ص ١١٩

٢ - انظر ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ، ص ٣٣ •

٣ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ، ص ٣٣ •

٤ - Baldwin: op.cit., p.611

الجيش للتحرك ، واتخذ طريقه من صفورية الى طبرية باتجاه الشمال الشرقي لينتهي على بعد ميل واحد من شمال مدينة طبرية * فتعرض في اثنا مسيره شرقا لكائن المسلمين ، كما عانى من وعورة الطريق وحرارة الشمس في شهر تموز (١) * حتى ان ريموند الثالث ومقدم الداوية طلبا من ملك بيت المقدس السماح لهما بقضاء الليل فوق الهضبة بعيدا عن خطر المسلمين *

تلقى صلاح الدين من جواسيسه نبأ تحرك القوات الصليبية ضده ، كما أعلم بالطريق الذي سيسلكونه في سيرهم اليه ، فاطمأن الى نجاح خطته في استدراج الجيش الصليبي (٢) ، فترك قوة صغيرة تحاصر طبرية، وانسحب مع جيشه الرئيسي ليعسكر في التلال الواقعة غربي المدينة حيث تقع قرية حطين ذات الماء والمرعى ، وكان يعملو تل حطين قمتان بارتفاع مائة قدم تقريبا ، مما دعا العرب الى تسميتها قرون حطين * وتعود أهمية هذا الموقع الى انه كان عند بداية انحدار الطريق الذي سلكه الصليبيون الى بحيرة طبرية * وقد أراد صلاح الدين بذلك احكام تطويق العدو المتقدم بهذا الاتجاه *

لم يستطع الصليبيون الوصول الى الماء * وكان حصار صلاح الدين لهم قويا ، وأضاف باشعال النار في الأشواب والأشواك ، ليزيد حرهم حرا ، وليضيق انفاسهم بالدخان * كما نهض المسلمون كالرجل الواحد يرشقون الصليبيين المحاصرين بسهامهم ، فزاد وضعهم حرجا ، وفرّ قسم منهم باتجاه مدينة صور ، وعلى رأس هؤلاء ريموند ، حيث أفسح له المسلمون الانسحاب عبر صفونهم ، وانسحب بقية الصليبيين صاعدين المرتفع في حالة سيئة من العطش

١ - King: The knights Hospitallers; pp 125-126 - ١

٢ - أبو شامة : المصدر السابق ، جز ٢ ص ٧٦

والحر والدخان (١) ، فوحف المسلمون اليهم وحاصروهم في القفة حيث استسلم القادة (٢) بمن فيهم ملكهم جاي لوزجان (غيدى لوسيتيان) وكذلك أرناط وغيره (٣) من امثال اوك (٤) وهنفرى (٥) وعدد كبير من البارونات والفرسان والداوية والاستبارية . وكان ذلك في ٤ ربيع الاخر سنة ٥٨٣ هـ / ٤ تموز يوليو ١١٨٧م (٦) .

أمر صلاح الدين بضرب سرادقه ، حيث نزل فيه فصلى صلاة الشكر ، ثم طلب احضار ملوك الصليبيين ومقد مبيهم . ولم يكن بنية صلاح الدين قتلهم هذا أرناط الطائش ، ولذلك فانه باذرع باعطاء ملك بيت المقدس ما ليشرب بعد أن أنهكه العطش ، ورفض أن يفعل ذلك مع أرناط ، واعترض على ملك بيت المقدس الذي اراد سقيه لنية في نفسه . ثم تم صرح صلاح الدين بتذكير أرناط بجرائمه وخيانتة ، تلك الجرائم التي يستحق القتل على كل منها . ثم ضربه بسيفه فقتله . وطمأن بقية الملوك والأمرأه على حياتهم ، وقام برعايتهم ورعاية أسرهم ، ونقلهم الى قلعة دمشق حيث جرى الاحتياط عليهم (٧) .

كانت حطين من اكبر الكوارث التي حلت بالصليبيين . فقد تمكن المسلمون من تحطيم قوتهم الضاربة ، حتى قال فيها ابن الاثير (٨) : (ما اصيب الفرنج

- ١ - ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ١٩٠
- ٢ - عماد الدين الكاتب : الفتح القسي في الفتح القدسي ، ص ٢٣ - ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٧٧ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ، ص ٥٣٧ - ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ١٩٠ - ١٩٢ - Baldwin: op. cit. , p 613
- ٣ - ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ١٩٤
- ٤ - هو صاحب جبيل
- ٥ - هو صاحب تبين
- ٦ - ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٧٥
- ٧ - ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٧٨ - ٧٩ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ، ص ٥٣٧ - ٥٣٨ - الحنبلي : المصدر السابق ، ص ١٢١
- ٨ - المصدر السابق ، جزء ١١ ، ص ٥٣٧

منذ خرجوا الى الساحل وهو سنة احدى وتسعين واربعمائة الى الان يمثل هذه الواقعة . فقد أدت من جهة الى انهيار روحهم المعنوية ، كما أضاعت غيبتهم وأظهرت انقسامهم ، وأفقدت ملك بيت المقدس مكانة الزعامة بين الصليبيين ، كما نقص عدد الفرسان بعد هزيمة ملبوسا ، وخاصة فرسان بيت المقدس بسبب كثرة من قتل منهم ومن أسر ، حتى قال ابو شامة وابن الاثير (١) (أن من شاهد القتل قال ما هناك أسير ، ومن عاين الأسرى قال ما هناك قتل) ، واذنا أضفنا الى ذلك ما يعرف سابقا عن قلق المحاربين في الامارات الصليبية ، لأدركنا واقع الأمر الذي آل اليه وضع الصليبيين ، على حين كانت حطين بالنسبة للمسلمين فاتحة خير ، ومعركة من المعارك الحاسمة ، فتحت الطريق امامهم لاستعادة اراضيهم ، كما بثت الأمل في قلوب الناس بالنصر ، وفتحت قرائح الشعراء (٢) . كما اظهرت حسن معاملة المسلمين لغيرهم ، وتمسكهم بمبادئ الأخلاق والرحمة والتسامح ، وهو الأمر الذي شهد لهم به كافة المؤرخين الغربيين والشرقيين على السواء .

٣ - موقف صلاح الدين بعد حطين :

أ - فتح مدن الساحل

أصبح الموقف الحربي بعد معركة حطين شديد الخطورة على مملكة بيت المقدس ، وأمارتي طرابلس وانطاكية ، إذ صار صلاح الدين يسيطر على اقليم الجليل تقريبا على حين ان ممالك الصليبيين فقدت المدافعيين

١ - تاريخ الروضتين ، جزء ٢ ، ص ٨٧ - الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ، ص ٥٣٧

٢ - انظر ابو شامة : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٨٣

عنها • وكان على صلاح الدين أن يستغل هذا النصر في توجيه ضربات قوية للعدو وقبل أن يصحو من النكبة التي أصابته، ولا استعداد ما ضاع من المسلمين في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي • ولم يضيع صلاح الدين الفرصة وحقق انتصارات سريعة وهامة •

لم يشأ صلاح الدين أن يتوجه لفتح بيت المقدس مباشرة بعد معركة حطين، بل أثار التوجه إلى الساحل لعوامل متعددة منها :

- أنه لم يرغب بإثارة الغرب الأوربي ضده بالأسراع بمد يد المعونة للصليبيين إذا علموا بسقوط بيت المقدس •
- أن يمنع أي مدد يأتي إلى إمارة بيت المقدس عن طريق البحر، حتى إذا هاجمها يسهل عليه فتحها مع المدن والقلاع الداخلية القريبة منها •
- تأمين خط الاتصال البحري مع مصر للحصول على المدد العسكري والمؤونة •

توجه صلاح الدين بجيوشه إلى مينا عكا • وعلى حين كان صلاح الدين يرتاد موضعاً للنزال فحسب، وقبل البدء بحصار المدينة، خرج إليه كثير من أهلها يتضرعون ويطلبون الأمان، فأمنهم على أنفسهم وأموالهم، وخبرهم بين الأقامة والرحيل، فأختاروا الرحيل • فدخل صلاح الدين والمسلمون المدينة فسي مطلع جمادى الأولى سنة ٥٨٢ هـ / تموز ١١٨٧ م واستولوا على ما فيها من الأموال والذخائر، واطلقوا سراح من كان بها من الأسرى المسلمين • ولا يمكن تعليل هذا السقوط السريع لمدينة عكا إلا بتخوفهم من قوة صلاح الدين، وما سمعوه من أخبار رحمته والتي طبقها فعلاً في عكا حيث وهب الأهالي عصمة الأنفس والأموال (١)، إضافة إلى افتقارها كغيرها إلى الفرسان، ووخازن

- ١ - أبو شامة : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٨٦ - ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٧٩
- ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ، ص ٥٣٩ - ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٠٢ - الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٢٢٢

اميرها جوسلين الثالث عن الدفاع * . ومما لاشك فيه ان سقوط عكا كان له أهمية كبيرة ، فهى مدينة غنية لأنها مظنة التجار (١) * الى جانب انها من أهم موانئ بيت المقدس على الاطلاق ، يرد هذا الحجاج في طريقهم الى بيت المقدس * .

أقام صلاح الدين في عكا موقعا حيث اتخذها مركزا لانطلاق جيوشه الى المعازل القريبة ، كالناصرية وقيسارية وحيفا وصفورية والشكيف والفولج وغيرها من البلاد المجاورة (٢) حيث استولى عليها * ثم جرى الاستيلاء على نابلس (٣) وصيدا وبيروت وسلمت جبيل اليه (٤) مقابل اطلاق سراح صاحبها الذى كان في أسره منذ معركة حطين (٥) * ثم توجه الى عسقلان * وفي طريقه اليها استولى على الرملة وحصن تبينين وبيت لحم والخليل ، واستسلمت له عسقلان في رجب سنة ٥٨٢هـ / ايلول سنة ١١٨٧م * كما فتح غزة والداروم (٧) وقيسارية وحيفا وأرسوف (٨) * كما استولى على حصون الداوية وهي غزة والنظرين وبيت جبريل * كما زحف العادل أخوصلاح الدين من مصر ، واستولى على يافا * وكذلك سقطت المدن والحصون الداخلية الواقعة جنوب بحيرة طبرية * معاد الشويك والكوك الحصنان

- ١ - أبوشامة : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٨٦ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ، ص ٥٣٩ - ٥٤٠
- ٢ - ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٠٢
- ٣ - أبوشامة : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٨٨
- ٤ - أبوشامة : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٨٩ - ٩٠
- ٥ - Baldwin: op. cit., p. 576
- ٦ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ، ص ٥٤٥
- ٧ - أبوشامة : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٩١ - ٩٢
- ٨ - أبوشامة : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٨٨ - ٨٩

الذيان بقيا على المقاومة ، وخضع له بذلك الساحل برمته من بيروت الى يافا
عدا مدينة صور ، اضافة الى خضوع عسقلان وحصن كوكب وصفد وشقيف آرنون (١) .

لقد كان للمعاملة الحسنة التي عامل بها صلاح الدين اهالي عكا
وطبرية من قبلها أكبر الأثر في سقوط المدن الساحلية متتابعة في يده . كما
أنه عمل على الحفاظ على النشاط التجاري في المدن ، مما أدى الى تقدم
أحوالها الاقتصادية ، والى تعويض أهاليها عما فقدوه سابقا .

تجمعت جيوش الصليبيين جميعا والتي خرجت من مدن الساحل في
مدينة صور بسبب ترك صلاح الدين لهم الحرية باختيار المكان الذي يريدونه ،
فقصد معظمهم مدينة صور . وسرعان ما أدرك صلاح الدين أن أمر صور
غدا صعبا لتجمع الصليبيين بها (٢) ، ولتولي قيادة من بها من الصليبيين
كتراد دي مونتفرات ، فحس أهاليها ، ومنعهم من الاستسلام لصلاح
الدين ، حين حاصرها لمدة اسبوع . وكان ذلك مؤشرا خطيرا ، اذ انتهت
هذه المدينة حركة المقاومة ضد المسلمين ، ومنها أخذوا يوجهون حملاتهم
لاسترداد ما استولى عليه صلاح الدين من ممتلكات (٣) .

ب - فتح بيت المقدس :

أمن صلاح الدين بعد سيطرته على الساحل ، عدم إمكانية ورود

-
- ١ - ابن واصل : المصدر السابق ، جز ٢ ، ٢٠٦ - ٢١٠ وانظر أسماء المدن
والقرى والقلاع التي فتحها صلاح الدين في هذه الحولة من تاريخ
أبي شامة جز ٢ ، ص ٨٨ - ٨٩ والخبلي شفاء القلوب ، ص ٢٢٤
- ١٢٥ .
 - ٢ - سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جز ٢ ، ص ٨١٧ .
 - ٣ - ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٨٢ - ٨٤ .

الامدادات الى الصليبيين ، وأصبح الوقت مناسباً لفتح القدس ، الهدف
 الأسمى . وكان قد تسلم أمر الدفاع عن بيت المقدس باليان ايلين ، ويعرف
 باسم باليان الثاني ، ويسميه العرب بايزان . وهو زوج أرملة عموري الأول .
 وكان من أسرى حطيم بيد صلاح الدين . استغل التسامح الذي عرف به
 صلاح الدين ، فاستعطفه بالسماح له بدخول بيت المقدس ليلة واحدة ،
 لأخذ زوجته واولاده منها . ولكنه ما اتم وصل اليها حتى نسي وعده ، واستغل
 أوضاع بيت المقدس المضطربة لينصب نفسه حاكماً عليها . وأخذ في تقوية
 وسائل الدفاع عن المدينة بجمع من استطاع من الفرسان وابنائهم فوق سن
 الخامسة عشر ، وكذلك الصناعات والتجار وغيرهم من أصحاب الحرف . كما
 استولى على النفائس المعدنية والأواني الفضية في كنيسة القيامة ، وقام
 بصهرها وضربها نقوداً ليستعين بها على قضا حاجات الدفاع واستتجار
 الجند .

بدأ صلاح الدين محاولاته السلمية لتحرير بيت المقدس منذ ان كان
 أمام أبواب عسقلان فقابل وفداً من رجال بيت المقدس ، وعرض عليهم الاستسلام
 على نفس الشروط التي استسلمت بها المدن الصليبية المتعددة . ولكنهم
 رفضوا بسبب روح التمرد والمقاومة التي بثها فيهم باليان . عندئذ أقسم
 صلاح الدين على أن يأخذ بيت المقدس بحد السيف .

توجه صلاح الدين لحصار المدينة المقدسة بعد فتح مدينة عسقلان ، وعلى
 الرغم من قسمه السابق فإنه عرض على أهلها الاستسلام بشروط حسنة ، فرفضوا .
 وكان صلاح الدين يقدم كل هذه التساهلات حرصاً منه على قدسية المدينة ،
 ورغبة في عدم استخدام العنف فيها مع مقدرته التامة على استخدام القوة .
 طاف صلاح الدين حول سور المدينة ليتحسس نقاط الضعف في تحصينها ،

فرأى أن يركو جهود ، وهجومه على الجهة الشمالية عند كنيسة صهيون . وبدأ هجومه عليها في ١٥ رجب سنة ٥٨٣ هـ / ايلول سنة ١١٨٧ م . فنصب المدجنقات ، وحمل المسلمون حملة رجل واحد حتى وصلوا الى سور المدينة ونقبوه عند باب العمود (١) ، وضابقوا أهلها بكثرة الرمي ضد هم . رأى مدافعو بيت المقدس شدة هجوم صلاح الدين عليهم فخشوه . كما نشب خلاف بين طوائف المسيحيين الارثوذكس والكاثوليك ، مما جعل الجميع يدركون استحالة المقاومة بوضرورة تسليم المدينة . فطلبوا الأمان بعد أقل من شهرين من الحصار . فأرسلوا جماعة من كبارهم في هذا الأمر ، فرفض صلاح الدين في البداية دخولها الا بالسيف عقابا لهم على رفضهم لعروضه السابقة . ولكنه ما لبث ان نزل عند رغباتهم ، وأعطاهم الأمان بشروطه . حفاظا على المدينة ، بعد أن هدد باليان بتدميرها وتخریب الأماكـن المقدسة ، وقتل من بها من المسلمين اذا نب اليأس بهم ، وأدركوا أنهم مأخوذین لا محالة (٢) .

اما الشروط فهي :

- ١ - ان يتسلم صلاح الدين بيت المقدس ، على أن يسمح لمن يريد الخروج مقابل فدية قدرها عشرة دنانير عن كل رجل ، وخمسة عن كل امرأة

١ - ابن شداد : المصدر السابق ص ٨١ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٩ ، ص ٥٤٧ - ٥٤٨
٢ - أنظر ماجرى بين صلاح الدين واليان من اجل الصلح في كتاب أبي شامة : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٩٧ - ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٢١٢ - ٢١٤ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ، ص ٤٨ - ٥٤٩ -

وديناران عن كل صغير ذكر او انثى (١) .

٢ - وافق صلاح الدين على أخذ مبلغ اجمالي عن سبعة آلاف من الفقراء

والمعدمين قدره ثلاثون الف دينار (٢) .

٣ - ان يتم دفع الصليبيين للمبالغ المترتبة عليهم خلال اربعين يوما .

نفذ صلاح الدين هذه الشروط بسماحته المعروفة ، فأغنى البعض من الدفع ، كما أعطى الارامل الفقيرات مالا اضافة لسماحتهم بالندية . وخن الصليبيون من بيت المقدس بكل ما يملكون دون ان يعترض عليهم معترض ، كما قدم لهم صلاح الدين الحماية حتى وصولهم الى المناطق الصليبية وذلك خشية من هجمات البدو عليهم . وفي هذا ما فيه من كرم الاخلاق .

تسلم صلاح الدين بيت المقدس في يوم الجمعة ٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ

١٢ / تشرين الاول ١١٨٧ م ، ثم تسلم القلعة . وكان بإمكانه في ذلك الوقت

ان يفعل بسكانها من الصليبيين ما يشاء ، انتقاما لما فعلوه حين دخلوا

المدينة . ولكنه عفا عنهم عفو القادر ، وتسامح مع الفقراء الذين عجزوا عن

دفع الندية ، وأطلق سراح البتاني والارامل والشيوخ ومد لهم بالمساعدات

الكبيرة ، على حين ان اغنياهم ورجال الدين منهم كانوا يخرجون بأكداس

الذهب وغيره ، ويتركون اقربائهم الفقراء خلفهم دون فداء . ومثالنا على ذلك

بطريرك بيت المقدس الذي خرج حاملا معه ما استطاع حمله من الذهب

والفضة ، ومن خلفه العربات تحمل نفائس الكيسة التي نهبها قبيل

خروجه (٣) . كما سمع للمسيحيين الشرقيين بالبقاء في بيت المقدس شرط

دفع الجزية ، مع اعفاء فقرائهم من دفعها . وأبقى اليهود فيها ، وسمح لاعداد

١ - ابن شداد : المصدر السابق ص ٨٢ - ابن الاثير : المصدر السابق جزء ١١

ص ٥٤٩

٢ - ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٢١٥ - ٢١٦

٣ - ابن شداد : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ١١٥ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ، ص ٥٤٩ - ٥٥٠

منهم بالهجرة اليها .

احتفل المسلمون بفتح بيت المقدس احتفالا لا مثيل له ، وارتفعت الأصوات بالتهليل والتكبير (١) . ونزعت الأموال بهذ ، المناسبة الكبيرة . ثم نهض صلاح الدين بعمارة المسجد الأقصى ، وبني في المدينة المدارس والبيمارستانات لمعالجة المرضى . وأرسل سفارة الى الامبراطور البيزنطي انجيلوس يعلمه بذلك . فرد عليه الامبراطور مهثئا له طالبا منه وضع كهنة القيامة وغيرها من الكنائس المسيحية تحت اشراف رجال الدين الأرثوذكس الذين تعينهمهم الحكومة البيزنطية ، مع ارسال صليب الصليبيات اليه فرفض صلاح الدين ذلك .

١ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ١١٥ - ابن الاثير :
المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٥٥١ - ٥٥٢ - الخثلي : المصدر
السابق ، ص ١٤٨ - ١٤٩

الفصل الخامس

النكسة والحمة الصليبية الثالثة

صلاح الدين أمام أبواب صور

الحمة الصليبية الثالثة وحصار عكا

١ — حصار عكا

٢ — الحمة الصليبية الثالثة

٣ — صلاح الدين وريتشارد بعد سقوط عكا

أ — ريتشارد يحتل بعض مدن ساحل فلسطين

ب — محاولة ريتشارد احتلال مدينة القدس ثانية

ج — صلح الرملة

صلاح الدين بعد صلح الرملة

وفاة صلاح الدين

الفصل الخامس

الفتكة، والحملة الصليبية الثالثة

صلاح الدين أمام أبواب صور

اهتم صلاح الدين بتحرير مدينة صور لعدة أمور ، فقد أصبحت مكان تجمع الصليبيين الذين تركوا المدن المحررة من قبل صلاح الدين ، واولئك الذين وفدوا من الخارج بقيادة كونراد دي مونتفرات الذي دعاه العرب باسم المرقيس (١) ، وأخذت بذلك تشكل خطرا على فتوحات صلاح الدين .
• إضافة الى حصانة المدينة الطبيعية لمن يغزوها من جهة البر (٢) .

ألقي صلاح الدين الحصار البري والبحري على مدينة صور، في ٢٢ رمضان سنة ٥٨٣هـ / تشرين الثاني ١١٨٧م (٣) . واستخدم في الحصار البري قواتا من أرجاء بلاد الشام ، كما استعان في الحصار البحري بالأسطول المصري . ولكن واجه ظروفًا داخلية وخارجية ، أجبرته على فك الحصار (٤) ، وعلسى رأسها :

- قيام بحارة الصليبيين بنصب كمين لاسطول المسلمين ، وأسـر خمس قطع بحرية منه .
- مواجهة الجيش البري لمشاكل متعددة
- تضايق بعض رجال الدين من كثرة الحروب ، ورغبتهم في العودة الى منازلهم .
- قدوم فصل الشتاء وصعوبة استمرار الحصار

١ - ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٤٣
٢ - انظر عن حصانة المدينة ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ، ص ٥٥٤
٣ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ، ص ٥٥٣
٤ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٨٣ - ٨٤ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ، ص ٥٥٤ - ٥٥٧

- قوة دفاع كونراد دي مونتفرات ورجاله عن المدينة -

لم يدع صلاح الدين عملية التحجير نهائيا بعد فشله أمام مدينة صور ، بل وجه أنظاره باتجاه امارتي طرابلس وانطاكية . فاستسلم له حصن هونين^(١) كما استسلم حصن الكرك في رمضان سنة ٥٨٤هـ / تشرين الثاني ١١٨٨ م ، وتبعه ، استسلام حصن الشوبك والوعر والسلع^(٢) . واستولى ايضا على مدينة صدد بالأمان في ذي القعدة سنة ٥٨٤هـ / كانون الثاني ١١٨٩ م^(٣) . وأتبع ذلك بالاستيلاء على جبلة وبناباس واللاذقية وحصن صهيون^(٤) . كما استسلم حصن بززويه ودريساك^(٥) اضافة الى عدة حصون وقلاع اخرى^(٦) .

وجه صلاح الدين اهتمامه الى هذه الحصون والقلاع التي سقطت في يده ، فأخذ يعمل على تقوية القلاع الكبيرة والهامة وهدم الضعيفة منها التي يمكن ان تفيد الصليبيين فيما لو وقعت في أيديهم .

تقلصت الامارات الصليبية الثلاث الى حد كبير بفضل قوة وهمسة صلاح الدين ، فشملت مملكة بيت المقدس بكاملها (عدا صور وحصن شقيساف آرنون ، وامارة طرابلس عدا مدينة طرابلس وطرطوس وحصن الأكراد ، وامارة انطاكية عدا مدينة انطاكية وحصن المرقب ومواقع أخرى قليلة الأهمية^(٧) . وأحس جنده بعد المجهودات الضخمة التي بذلها والحروب المستمرة التي خاضوها بأنهم بحاجة الى فترة من الراحة ، اضافة الى انتشار خراب قسرب وصول حملة صليبية جديدة ، وحاجة صلاح الدين لتنظيم فتوحاته ، مما دفع

- ١ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ص ٥٥٧
- ٢ - Baldwin: op. cit., p 585
- ٣ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ص ٥ - الحنبلي : المصدر السابق ص ١٥٣
- ٤ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ص ٧-٩ ص ١٠-١١
- ٥ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ص ١٧ - الحنبلي : المصدر السابق ، ص ١٥٧-١٥٨
- ٦ - أنظر الخريطة رقم
- ٧ - عاشور : مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ٥٧

به الى قبول عرض للصلح تقدم به أمير انطاكية لمدة ثمانية اشهر (١) .

الحملة الصليبية الثالثة وحصار عكا

١ - حصار عكا

أفج صلاح الدين الأيوبي عن جاي لوزجان (غي دي لوسينيان) ملك بيت المقدس ، الذي كان قد أسر في حطين ، بعد أن قطع على نفسه عهدا بان لا يشهر في وجه صلاح الدين سيفا أبدا ، ويكون غلامه ومملوكه طليقا ابدا (٢) .

حين خرج جاي من السجن ، أخذ يفتش لنفسه عن ملجأ يلجأ اليه ، فتوجه الى مدينة صور ليتخذها مركزا له ، فوجد ممانعة من أميرها كونراد دي مونتفرات ، الذي رفض ادخاله اليها خشية من مطامعه ، ولذلك فانه قرر أن يستعين بمن معه من الرجال ومن يستطيع جمعهم على احتلال مدينة عكا لا تخاذها مركزا جديدا له ، ونهض لتحقيق غايته ، فجمع من استطاع جمعه ، وسار بهم حتى عسكر على أبواب عكا في رجب سنة ٥٨٥هـ / آب اغسطس ١١٨٩م ، وأخذ في حصارها برا وبحرا (٣) . ولما كان أمير طرابلس يخشى مطامع جاي لوزجان في مدينته ، أراد ان يساعد في حصار عكا ليضمن استقراره فيها ، ويتخلص من شره ومطامعه ، ولذلك فانه تبعه والقى معه الحصار على المدينة (٤) .

- ١ - ابن الأثير: المصدر السابق ، جزء ١٢ ، ص ١٩ - ٢٠
- ٢ - ابن شداد : المصدر السابق ص ١٥٣ - ١٥٤ ، P. 610 Baldwin:op.cit.
- ٣ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ، ص ٣٢ - ٣٥
- ٤ - Lane Poole:op.cit.,p. 259

علم صلاح الدين بما فعله جاي لوزجان ، ولذا لك فانه سار بجيوشه حتى
عسكر في تل كيسان وتل العياضية على مقربة من جموع الصليبيين (١) ، وأخذ
في مهاجمتهم ، وتكررت هجماته الفاجحة مما جعل الصليبيين يبرون نارين ،
نار العرب المسلمين داخل عكا ، ونار قوات صلاح الدين خارجها . وشاءت
الأقدار أن يصاب صلاح الدين بوباء اضطره أن يترك الدفاع عن عكا
للاستشفاء ، فانفسح المجال امام الصليبيين ، لتحصين مواقعهم بحفر خندق
حول معسكرهم من البحر الى البحر ، ونصبوا آلات الحصار ، فانقطع الطريق
اليها على جيوش صلاح الدين . ولم يعد يصل الى سكان المدينة المحاصرة
الا تعليمات صلاح الدين التي كانت ترسل الى حامية المدينة عن طريق
العوامين في البحر وعن طريق الحمام الزاجل (٢) .

أدرك صلاح الدين خطورة موقفه ، واران ان يجعل من حصار عكا
قضية يهتم بها كل العرب والمسلمين ، علمهم بتعاونهم يستطيعون رد كيد
العدو . فأرسل طالبا النجدة من الخليفة العباسي ومن الأرائقة وأمراء
الزنكيين وغيرهم ، كما استنجد بأمرأه المغرب العربي (٣) وطلب منهم
قطع الطريق على السفن الأوربية التي تقوم بامداد الصليبيين في الشام بما
يحتاجون اليه من مؤن وامداد (٤) . ونهض بنفسه لتجنيد كافة امكانياته ،
فجند كل قوى الشام ومصر البرية ، كما عمل على الاستعانة بالاسطول المصري
الذي قدم الى سواحل عكا ، وأخذ رجاله يعملون جاهدين على مد سكان

1 - Lane Poole: Ibid., p 259

2 - Baldwin: op.cit., p 611

3 - ابوشامة: المصدر السابق، جز ٢، ص ١٧٠-١٧٣

4 - Lane Poole: op.cit., pp287-288

Baldwin: op. cit., p 611

عكا بما يستطيعون • وأظهر المسلمون في هذا الحصار صورا رائعة من صور
البطولة والفداء • ولكنهم على الرغم من ذلك لم يستطيعوا انقاذ المدينة
المحصرة •

٢ - الحملة الصليبية الثالثة

في تلك الظروف الحرجة بالنسبة للفريقين ، وصلت الحملة الصليبية
التي عرفت بالثالثة الى سواحل الشام • وتغير ميزان القوى لصالح الصليبيين •
كان وصول هذه الحملة رد فعل على فتح المسلمين لبيت المقدس •
وقد لعب بعض الصليبيين في الشام دورا كبيرا في تحريض أوروبا المسيحية
على ذلك ، ومن هؤلاء كوتراند دي مونتفوات امير طرابلس الذي ارسل
رئيس اساقفة مدينته الى البابا والى غرب أوروبا منذ سنة ١١٨٢/٥٨٣ م
مستنجدا طالبا ارسال حملة الى المشرق •

استجاب لدعوة البابا ملوك كل من إنجلترا وفرنسا والمانيا • فتحرك
في البداية امبراطور المانيا فردريك بربروسا في ربيع الاول سنة ١١٨٥ /
ايار ١١٨٩ م على رأس جيش قدر بمائة الف محارب ، متخذا طريق البحر ،
ثم تبعه كل من ملكي إنجلترا وفرنسا على رأس جيوشهما بحرا (١) •
تعرض الامبراطور الالماني فردريك لمتاعب جملة أدت الى فشله في
تحقيق أهدافه • وكان على رأسها وقوف البيزنطيين ضده بسبب تحالفهم مع
صلاح الدين من جهة ، ولتحالف امبراطور المانيا مع النورمانديين أعداء
بيزنطة التقليديين ، اضافة الى صعوبة الطريق ، وقلة الماء والرزاق ،
وهجمات التركمان في اسية الصغرى •

كانت أخبار مسير فريدريك تصل تباعا الى صلاح الدين عن طريق البيزنطيين والبنادقة في سبيل الحفاظ على مصالحهم التجارية * ونهض صلاح الدين حين علم باقتراب الجيش الصليبي باعلان الجهاد وطلب المساعدة من الدول الاسلامية المجاورة (١) ولكن الله أنقذ المسلمين من هذا الخطر بغرق فريدريك اثنا عبوره نهر في قليقية قرب أذنة ، ففرق جيشه وعاد بعض امرائه الى ألمانيا ، وبقيت فئة بقيادة ابن الامبراطور واسمه فريدريك السوابي الذي شارك طوائف الصليبيين في حصار عكا شعبان سنة ٥٨٦هـ / اوائل تشرين الأول ١١٩٠م (٢) .

وما لبث ان وصل فيليب اوغست ملك فرنسا في ٢٣ ربيع الاول سنة ٥٨٧هـ / نيسان ١١٩١م فعمل على توحيد قلوب الصليبيين تحت زعامته ، ووجه جهودهم لحرب المسلمين (٣) ، ثم وصل ملك انكلترة ريتشارد قلب الأسد الذي فتح في طريقه جزيرة قبرص في ١٣ جمادى الأولى من نفس السنة / حزيران (٤) ، ثم توجه الى عكا ، واشترك مع المهاجمين في حصار المدينة .

وقفت حامية عكا الاسلامية موقفا بطوليا ، وصمدت في وجه الخطر الصليبي الكبير (٥) . كما قام صلاح الدين بهجمات مضادة ضد الصليبيين ليفك الحصار عن عكا . ودعت الحاجة الى الابتكار عند ما ستر الفرجة ابراج الحصار عند هم بما يمنع من اشتعالها . فقام علي بن عريف النحاسين من اهالي دمشق والمختص بعمل العقاقير باختراع مادة تقوى مفعول النار ، فالتفت على

- ١ - انظر فيما سبق
- ٢ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ، ص ٤٨ - ٥١
- ٣ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٨٢ Lane Poole: op. cit. p281
- ٤ - ابن شداد : المصدر السابق ، ص ١٥٧ - ١٥٨ ، ص ١٦١ Lane Poole: op. cit. , p 282
- ٥ - ابن شداد : المصدر السابق ، ص ١٦٠ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٨١ او ١٨٤

الأبراج، وتخلص المسلمون من شرها .

لم ييأس الصليبيون بل لجأوا الى الهجوم على المسلمين في ٢٧ جمادى الاولى / ٢٢٠ حزيران في معسكراتهم والتشديد عليهم . وعلى الرغم من فشل بعض هجماتهم ، وفشل الهجمات القوية المضادة التي شنّها صلاح الدين على جيوش الصليبيين لغك الحصار عن مدينة عكا (١) . فقد استمر حصار المدينة لمدة سنتين ، غلب فيها التعب على حماة المدينة ، مما دعاهم الى تسليمها بعد اعلام صلاح الدين بعجزهم عن الاستمرار (٢) ، وتيسر لصلاح الدين بالمفاوضات على بنود اتفاقية التسليم والتي تنص على ما يلي :

- ان تسلم المدينة للفرنج بما فيها من الآلات والعدد والأسلحة .
- أن يدفع المسلمون فدية قدرها مائتي ألف دينار مقابل خروج أهالي عكا وحاميتها جميعا سالمين من المدينة .
- ان يطلق سراح الفين وخمسمائة من أسرى الصليبيين .
- رد صليب الصليبي للفرنج (٣) .

وهكذا دخل الصليبيون مدينة عكا في ١٧ جمادى الاخرى سنة ٥٨٧هـ / ١٢ تموز سنة ١١٩١م بعد حصار دام عامين تقريبا ولم يف الصليبيون للمسلمين

-
- ١ - ابن شداد : المصدر السابق ، ص ١٦٣-١٦٤-١٦٦-١٦٧ Lane Poole: op. cit., pp287, 290-291
 - ٢ - ابن شداد : المصدر السابق ص ١٦٩-١٧١
 - ابوشامة : المصدر السابق ، جز ٢ ص ١٨٦ وما بعدها
 - ٣ - ابن شداد : المصدر السابق ص ١٧٠-١٧١ - ابوشامة : المصدر السابق ، جز ٢ ص ١٨٩-١٩٠ - ابن واصل : المصدر السابق ، جز ٢ ص ٣٥٩-٣٦٠ - الشيبان : المرجع السابق ص ٨٧ .
 - Lane Poole: op. cit., p 302

بوعودهم بل أسروا من كان فيها من الأعمالي انتظارا لدفع الفدية من قبل المسلمين ، ورفض المسلمون تسليم كل المال الا اذا تأكدوا من اطلاق سراح الأسرى المسلمين ، ووافقوا على دفع نصفه قبل اطلاقهم ، والنصف الآخر بعد اطلاقهم ، فرفضوا ، ونهض الفرنج بقتل كافة اسرى المسلمين في عكا وكانوا يقاربون الثلاثة آلاف . مما أدى الى استئناف القتال بين الصليبيين وصلاح الدين (١) . وما لبث الخلاف ان دب بين الصليبيين من أجل عكا ومارتها ، فترك فيليب اغسطس الشام بعد أقل من شهر من فتحها معتذرا بمرضه ، وخلا الموقف بذلك لريتشارد قلب الأسد (٢) .

٢ - صلاح الدين وريتشارد بعد سقوط عكا

٣ - محاولة ريتشارد احتلال ساحل فلسطين

كان ريتشارد شجاعا ، ولكنه متهور قصير النظر في السياسة . بدأ عمله في عكا بقتل ثلاثة الاف مسلم من الأسرى فيها لاختلاف حول تطبيق بنود اتفاقية تسليم مدينة عكا (٣) ، ورفض صلاح الدين ان يرد على الوحشية بالمثل لتسامحه الشديد وكرم اخلاقه . ولم يشأ ان يقتل أسرى الصليبيين الذين كانوا في حوزة المسلمين على الرغم من كثرة عددهم . وكل ما فعله صلاح الدين هو أنه رد أسرى الصليبيين الود مشق ، وكان قد أحضرهم للمبادلة وأوقف باب المفاوضات من أجل صليب الصليبيوت .

١ - الشيال : المرجع السابق ص ٨٨

٢ - عاشور : اوربا في العصور الوسطى ، جز ١ ص ٢٤٨

٣ - ابن شداد : المصدر السابق ص ١٧٤

— Lane Poole: op.cit., p 306

اشتد قلب ريتشارد بالفجاء الذي حققه في عكا ، وأراد أن يتبعه—
باحتيال ساحل فلسطين ، ومن ثم دخلها (١) . فرحل باتجاه حيفا—
تسانده المراكب في البحر . وعلى الرغم من هجمات المسلمين على موشرة
الجيش ، فإنه تمكن من الاستيلاء على حيفا التي أخلتها حاميتها الاسلامية .
وتابع الصليبيون زحفهم نحو قيسارية فاستولوا عليها كاملة التخریب في رجب
٥٨٧هـ / آب اغسطس ١١٩١م ، ثم توجهوا الى أرسوف فدخلوها بعد معركة
أرسوف الحامية ، والتي اوشك فيها اصلاح الدين على القضاء عليهم (٢) ، اختس
أن ريتشارد نفسه أصيب بجروح ورضوض .

كان لمعركة أرسوف نتائج عميقة . فقد بعثت في قلوب الصليبيين—
الشعور بالثقة بالنفس . على حين حطمت قلب اصلاح الدين ، وفوقت قلوب
أمرائه عنه ، وأدت بالتالي الى سقوط عسقلان بعد أن خربها المسلمون
بأيديهم لكلا يستفيد منها الصليبيون (٣) .

ب - محاولة ريتشارد استعادة بيت المقدس

تزم ريتشارد القوى الصليبية في الشام وأراد القيام بحركة كبرى يسترد
بها بيت المقدس ، ومن ثم بعيد إمارة بيت المقدس الى سابق عهد ها—
وأدرك صلاح الدين قوة تصميم ريتشارد ، فاتخذ استعدادات قوية—
للدفاع عنها . وأخذ في تقوية استحكاماتها واعدادها للدفاع . كما أوعز
للبدو بضرب موشرة الصليبيين وقطع خطوط مواصلاتهم .

١ - انظر سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جزء ٢ ، ص ٨٧١ وما بعد ها

٢ - ابن شداد : المصدر السابق ، ص ١٨٣-١٨٦ - المقرئى : السلوك ،
جزء ١ ، ص ١٠٥

— Lane Poole:op.cit.,p 313-323

٣ - ابن شداد : المصدر السابق ، ص ١٨٦-١٨٩
— Lane Poole:op.cit.,p 327

سار ريتشارد من مدينة يافا الى الرملة (١) ، ومنها الى النطرون (٢) ثم الى أبواب بيت المقدس حيث اصطدم بمقاومة شديدة من المسلمين برئاسة صلاح الدين ، فاضطر ريتشارد ورجاله الى الانسحاب عائدين الى الرملة في ذي الحجة سنة ٥٨٧هـ / كانون الثاني يناير ١١٩٢م (٣) .

ح - صلح الرملة :

نشل ريتشارد في الاستيلاء على بيت المقدس بالقوة في سنة ٥٨٧هـ / ١١٩٢م ، وعلى الرغم من ذلك فإنه كان مصمما على تحقيق النجاح في هذا المجال ، ورأى أن يحقق بالمفاوضات ما عجز عن تحقيقه بالقوة . فبدأ مع صلاح الدين سلسلة من المفاوضات صم في اثباتها على ضرورة حماية الصليبيين للاماكن المقدسة مباشرة (٤) ، فان لم يكن ذلك فزواج بين الملك العادل أخي صلاح الدين واخته جوانا يوحد بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام تحت لواء واحد (٥) . ولكن هذا المشروع رفض . فعاود ريتشارد القتال بغية تحقيق الهدف ثانية . وقد ضم الى صفه في هذه الجولة هنري دي شامبني أمير صور الجديد الذي تزوج أرملة سلفه كونراد (٦) وتقدم هذا الجيش باتجاه بيت المقدس ، ولكنه تعرض اثناء تقدمه لمقاومة شديدة ، وعانى هجمات البدو على موخرته .

اتخذ صلاح الدين عدة لمقاومة ريتشارد ، ونهض بتهيئة أسباب

-
- ١ - ابن شداد : المصدر السابق ص ١٨٩
 - ٢ - ابن شداد : المصدر السابق ، ص ١٩١
 - ٣ - Lane Poole: op. cit., pp 328- 334
 - ٤ - ابن شداد : المصدر السابق ص ٩٥
 - ٥ - ابن شداد : المصدر السابق ص ١٩٥ - ١٩٦
 - ٦ - Lane Poole: op. cit., p 329
 - ٦ - أبوشامة : المصدر السابق ، جز ٢ ص ١٩٦
 - Lane Poole: op. cit., p 336

الحصار، فأفسد المياه ظاهر القدس، وسخر مجموعة من الفرسان الأيوبيين للقيام بالآغارة المفاجئة على معسكر الصليبيين، وأسفر ذلك عن نقص نسي العون وندرة في الماء مما أدى إلى تعرض الجيش للجوع والعطش، يضاف إلى هذا شدة الحرارة. فقرر ريتشارد التوقف عن التقدم باتجاه بيت المقدس، ولجأ إلى قطع طرق المواصلات بين مصر والشام مستغلاً سيطرته على عسقلان وقلعة الداروم، عليه يستطيع عن هذا الطريق فرض شروطه في المفاوضات المقبلة (١).

كان لتوقف ريتشارد عن الحصار رد فعل قوى في صفوف المسلمين، إذ انتعش صلاح الدين، وارتفعت الروح المعنوية لرجاله، فرفض التشاور مع ريتشارد على أساس الشروط السابقة، وبدأت بين الطرفين سلسلة جديدة من المفاوضات، أصر صلاح الدين فيها على استرجاع ميناء عسقلان (٢) وتمسك ريتشارد بحق الصليبيين في حماية الأماكن المقدسة وخاصة كيسة القيامة مع ضمان حرية الحج، مما أدى إلى فشل المفاوضات ثانية.

نهض صلاح الدين بالضغط على الصليبيين ليجعل شروط الصلح التي جانيه، فهاجم مدينة يافا وفتحها دون قلعها، إلا أن ريتشارد ما لبث أن استعادها بعد فترة قصيرة، واتبع ذلك بانتصارات محلية على صلاح الدين (٣) مما دفع الفريقين إلى توقيع صلح في ٢ شعبان سنة ٥٨٨ هـ / ٣ / سبتمبر أيلول ١١٩٢م عرف بصلح الرملة وكانت شروطه تنص على ما يلي :

- ١ - ابن شداد : المصدر السابق ص ٢١٠ و ص ٢١٣ - ٢١٥ - أبو شامة : المصدر السابق، جزء ٢ ص ١٩٦
- ٢ - انظر عن مفاوضات الصلح كل من: أبو شامة : المصدر السابق، جزء ٢ ص ٢٩٩ - ٣٠٠ - ابن شداد : المصدر السابق، ص ٢١٩ - ٢٢٢ - Lane Poole: op. cit., p 328
- ٣ - ابن شداد : المصدر السابق ص ٢٢٢ - ٢٢٧ - أبو شامة : المصدر السابق، جزء ٢ ص ٢٠١

- ١ - أن يتخلى الصليبيون لصالح الدين عن عقلا ن وغزه والداروم ، وأن يبقى الساحل بيد هم من صرالى بافا بما فيها قيسارية وحيفا وارسوف .
- ٢ - يكون للمسيحيين حرية الحج الى بيت المقدس دون مطالبتهم بأية ضريبة مقابل ذلك .
- ٣ - تبقى اللد والرملة مناصفة بين المسلمين والصليبيين
- ٤ - مدة الصلح ثلاث سنوات وثلاثة اشهر (١) .

وهكذا انتهى النزاع بين صلاح الدين وريتشارد بموجب هذا الصلح ، وبقي المسلمون بقيادة صلاح الدين بموجبه يتحكمون في دولة قوية تحيط ببقايا الصليبيين المتناثرة قرب شواطئ الشام . واستقبل الفريقان هذا الصلح بفرح شديد لما نالهم من طول الحرب . وعادت الحياة الطبيعية الى فلسطين ، وازداد النشاط التجارى ، وكثر عدد الحجاج (٢) . وارتحل ريتشارد من عكا باتجاه بلاد ، فوق اسيرا في يد امبراطور المانيا ، ولم يطلق سراحه الا بعد ان دفع فدية كبيرة . ولما عاد الى بلاد ، وقع في نزاع مع اخيه مع فيليب ملك فرنسا . ولم يلبث ان لقي مصرعه في ٢٦ اذار مارس سنة ١١٩٩ م .

صلاح الدين يعد صلح الرملة

اتخذت مملكة بيت المقدس التي أصبح مركزها مدينة عكا - اثر صلح الرملة - صفة بحرية بعد ان فقدت كل مالها من نفوذ داخل فلسطين . الأمر

- ١ - انظر ابيشداد : المصدر السابق ص ٢٣٤-٢٣٥
- ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ٢ ص ٢٠٣
- ٢ - ابيشداد : المصدر السابق ص ٢٣٥ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٠٤-٢٠٥
- ٣ - عاشور : اوريا في العصور الوسطى ، جزء ١ ص ٢٤٩-٢٥٠

الذى جعلها اكثر ارتباطا بالغرب الأوربي ، وأكثر اعتمادا على حمابسة
الأساطيل الإيطالية في الدفاع عن كيانها ، فضلا عن الانشقاق والفرقة
والبغضاء بين عناصر الصليبيين في الشام (١) .

عاد صلاح الدين اثر صلح الرملة الى دمشق (٢) ، فانتابه بعد مدة
بسيطة المرض ، وغشيتة الحمى ، وتوفي بعد ذلك في ٢٧ صفر سنة ٥٨٩هـ / ٢٢ آذار
١١٩٣م في قلعة دمشق بعد أن أخذ البيعة لابنه الأفضل . وكان صلاح
الدين حين توفي في السابعة والخمسين من عمره . وقد فن في القدم أول
الأمم ثم نقل الى مدفنه في الكلاسة (٣) . وقد صور لنا العماد الأصفهاني
وضع الناس يوم وفاة صلاح الدين فقال : (كان يوما مشهودا لم يصب الاسلام
والمسلمون بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدين . وغشي القلعة والبلد والدنيا
من الوحشة ما لا يعلمه الا الله تعالى . . . ولو قبل الغداة لغداه الناس
بالنفس) (٤) .

نال صلاح الدين ما ناله من نجاح ومحبة بسبب ما تميز به من صفات
عسكرية ، ولما اشتهر به من صفات خلقية عظيمة . فقد تمسك بمبادئ الشرف
والمروءة والسخاء والبذل والوفاء بالعهد . الى جانب كونه تقياً ورعاً ،
يوءى الصلاة بأوقاتها ، ويواظب على الصوم . كما كان شديد البأس قوى

-
- ١ - ابوشامة : المصدر السابق ، جز ٢ ، ص ٢١٢ - ٢١٤
 - ٢ - ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٢٤٧ - ٢٤٨ - ابن واصل : المصدر
السابق ، جز ٢ ، ص ٢٠١
 - ٣ - عاشور : الحركة الصليبية ، جز ٢ ، ص ٩٠٣
 - ٤ - ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٢٤٠ - ابوشامة : المصدر السابق ،
جز ٢ ، ص ٢٠٦
 - ٥ - ابوالمحاسن : المصدر السابق ، جز ٦ ، ص ١٢٦
 - ٦ - عاشور : الحركة الصليبية ، جز ٢ ، ص ٩٠٣ نقلا عن العماد الأصفهاني

المراس ورحيما في آن واحد • كان محبا للجهاد ، صابرا على قتال الأعداء ،
مصمما على متابعتهم الى بلادهم • بقي مع عساكره في اعمال حربية مستمرة
ثلاث سنوات • وعلق الرغم من ذلك لم يمل أو يرغب في الراحة بل صرح لا ين
شداد بعد سقوط بيت المقدس ، ورغبته في متابعة الصليبيين الى بلادهم
قائلا : (٠٠٠) متى ما يسر الله تعالى فتح بقية الساحل ، قسمت البلاد ،
وأوصيت وودعت وركبت هذا البحر الى جزائره ، أتبعهم فيه حتى لا أبقى على
وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت (١) .

الفصل السادس

خلفاء صلاح الدين الأيوبي

(٥٨٩ - ٦٣٥ هـ)

النزاع بين أبناء صلاح الدين

توحيد الدولة الأيوبية تحت سلطة العادل

- ١ - الملك العادل والصليبيون قبل الحملة الخامسة
- ٢ - العادل والحملة الصليبية الخامسة .
- ٣ - وفاة السلطان العادل وتولي الكامل مهمة الدفاع

سلطنة الكامل بن العادل

- ١ - الخلاف بين أفراد الأسرة الأيوبية في عهد
- ٢ - الحملة الصليبية السادسة
- ٣ - اتفاقية يافا وتسليم بيت المقدس

انحلال الدولة الأيوبية وسقوطها

- ١ - الخلافات بين أفراد الأسرة الأيوبية في عهد السلطان الكامل
- ٢ - العادل الثاني والصالح أيوب
- أ - استرداد بيت المقدس في عهد الناصر داود ثم في عهد الصالح أيوب
- ب - الصالح أيوب والخوارزمية
- ج - الحملة الصليبية السابعة

٣ - شجرة الدر وتوران شاه ، ومتابعة قتال الصليبيين

سقوط الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك

الفصل السادس

خلفاء صلاح الدين الأيوبي

٥٨٩ - ٦٣٥ هـ / ١١٩٣ - ١٢٣٨ م

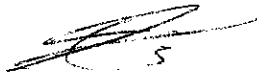
النزاع بين أبناء صلاح الدين

خلف صلاح الدين مملكة واسعة الأطراف ، وفراغا ضخما لم يستطع أحد من أبنائه السبعة عشر أو أخوته أو أبناء أخوته أن يملأه . وبدوا أن صلاح الدين كان قد غرس بيده نبتة الخلاف بين أفراد أسرته ، حين اعتبر أراضي السلطنة كالمملك الشخصي يمكن توزيعه بين الأبناء والأخوة بحسب الرغبة . ولا نستطيع أن نقول أن ذلك كان مفروضا عليه ، أو أن الظروف فرضته عليه ، لأن ما ورد في حديثه مع ابن شداد يدل على أن تقسيمه لأملاكه كان ضمن خطة رسمها لنفسه قبل وفاته . وقد ورد ذلك حين أوضح لابن شداد رغبته في متابعة الصليبيين إلى أراضيهم فقال : (. . . قسمت البلاد ، وأوصيت وودعت) (١) .

وزع صلاح الدين أملاكه بين أخوته وأبنائه في حياته ، وغير التوزيع عدة مرات ، وفي توزيعه الأخير الذي أجراه ، جعل لأبنائه المناطق الكبيرة والحساسة ، وجعل لأخوته وأقاربه مناطق الأطراف (٢) . فقد أوصى بالسلطنة لابنه الأفضل نور الدين علي ، وجعله حاكما لمنطقة دمشق ، كما جعل مصر لابنه الأصغر الملك العزيز عثمان . وأعطى حكم حلب لابنه

١ - انظر فيما سبق ، وانظر ابن شداد : المصدر السابق ص ٢٢

٢ - انظر حول ذلك زامباور : معجم الأسماء والأسرات الحاكمة ،



الظاهر غازي • وكانت منطقة الجزيرة اضافة الى الكرك من نصيب أخيه الملك العادل ، وحماه بيد ابن عمه تقي الدين عمر ، وحصن في يد حفيد عمه شيركوه (١) .

لم يكن الملك الأفضل يصلح للزعامة لضعفه وسوء سيرته ، وانشغاله عن شؤون الرعية بأموره الخاصة ، حتى سمي بالملك النوام (٢) . كما أنه لم يستطع المحافظة على ود اصحاب الأمر ، فنهد امرأه والده ومستشاريه ، ووضع كل ثقته في ضياء الدين بن الاثير ، وجعله وزيراً له (٣) مما دفع بهؤلاء الامراء الى الفرار الى مصر ، حيث التقوا حول أخيه الملك العزيز ، وأوغروا صدره على الأفضل في دمشق • وقد أسفر هذا التحريض عن نزاع بين الأخوين ، اشترك به امرأه البيت الأيوبي ، دام سبع سنوات ، وانتهى بتوحيد البيت الأيوبي تحت زعامة الملك العادل أخي صلاح الدين ، الذي كان في البداية حكماً بين أبناء أخيه •

بدأت الفتنة بخروج الملك العزيز من مصر في سنة ٥٩٠هـ / صيف سنة ١١٩٤م ، قاصداً دمشق بدعم من جند أبيه الصلاحية الفارين من دمشق • وشرع في حصار الأفضل فيها ، مما دعا الأخير الى الاستنجاد بعمه العادل لمساعدته في التخلص من الحصار (٤) .

-
- ١ - انظر عن تنظيم صلاح الدين لمملكته ابوشامة : المصدر السابق ، جز ٢ ، ص ١٩٧-١٩٨
 - ٢ - ابوالمحاسن : المصدر السابق ، جز ٦ ، ص ١٢٢
 - ٣ - ابوشامة : المصدر السابق ، جز ٢ ، ص ٢٢٨ - ابن خلكان : المصدر السابق ، جز ٥ ، ص ٣٩٠ - ٣٩١
 - ٤ - ابوشامة : المصدر السابق ، جز ٢ ، ص ٢٢٩ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جز ١٢ ، ص ١٠٩ - ١١٠

كان العادل رجلا طموحا ، ولم يكن ما حصل عليه من تركة أخيه صلاح الدين يتناسب مع مكانته وطموحه . فوجد في ذلك فرصة سانحة ، فاستجاب لنداء ابن أخيه الأفضل ، ونهض طالبا مساعدة أمراء الأيوبيين في أرجاء الشام وفي حلب وحماء وحمص وبيعلبك ، وأوغر صدورهم ضد الملك العزيز . أدرك الملك العزيز بأنه عاجز عن مجابهة قوى الأيوبيين المتحددة ضده في بلاد الشام ، فقبل المفاوضات مع عمه العادل الذي قرر باتفاق الجميع أن يحتفظ الأفضل بدمشق وطبرية وأعمال الغور ، في حين يأخذ العزيز بيت المقدس وما جاوره من أعمال فلسطين إضافة إلى مصر . وتأخذ الظاهر جيلة واللاذقية إضافة إلى حلب . وبذلك منع العادل الاقتتال هذه المرة بين أفراد البيت الأيوبي ، وأصبح الكلمة النافذة بينهم (٢) .

لم يرضو الأفضل ولم يتخذ عمه ما جرى ، واستمر مهتما بحياته الخاصة تاركا الحبل على الغارب لوزيره ابن الأثير ، مما دفع بالملك العزيز إلى اتخاذ قرار بمهاجمة دمشق للمرة الثانية ، بتحريض من القواد والعلماء (٣) ونهض في سنة ٥٩١هـ / ١١٩٥م لتحقيق ما عجز عن تحقيقه في السنة السابقة . وحين أسقط في يد الأفضل لم يجد بدا من الاستنجاد بعمه ثانية وبأمراء الشام .

قام العادل بفض أنصار ابن أخيه الملك العزيز من حوله ، حتى أجبره

-
- ١ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ، ص ١١٨
 - ٢ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ، ص ١١٠ - أبو المحاسن : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٢١
 - ٣ - أبو المحاسن : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٢٢ - ١٢٣ - أبو شامة : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٢٩

على العودة الى مصر (١) ، ثم اتخذ قراره بكيح جماحه ومهاجمته في مصر ذاتها . ولكنه أراد في هذه المرة أن يستغل الظروف لصالحه . ولذلك فانه أجرى مفاوضات مع ابن اخيه الأفضل ، فحواسها أن يترك له الأفضل دمشق ، ويساعده العادل في أخذ مصر من أخيه . وبدأ تنفيذ المهمة باستيلاء الأفضل والعادل على بيت المقدس ، ثم زحفا سوية حتى بلبس حيث القيما عليها الحصار (٢) . ولما كان العادل يخشى عدم النجاح في تحقيق أحلامه في هذه الجولة ، كما كان يخشى عدم وفاة الأفضل له ، قام بكسب ود الملك العزيز صاحب مصر ، حيث أظهر العزيز أنه مناصر له ، وراسله سرا طالبا منه الثبات أمام بلبس على أن يعمل العادل على سحب جيوشه وجيوش الأفضل عنها (٣) . وكانت غايته من وراء فعلته تلك ان يكسب ثقة العزيز ، وان يجعل من نفسه حكما موثوقا به بين الأخوين . ونفذ العزيز والعادل ما اتفقا عليه ، وعاد الأفضل الى دمشق بعد أن أصبح العادل سيد الموقف .

لم يرتدع الأفضل عن سوء تصرفه ، ولم يعمل على تقوية نفسه في مدينة دمشق ، وبدت بوادر تدمير الأهالي منومين وزيره ابن الاثير (٤) . فوجد العادل ان الفرصة أصبحت سانحة له لتحقيق أحلامه في الاستيلاء على دمشق ، وأراد ان يستعين بابن أخيه العزيز ، الذي قدم وساعده معه في حصار المدينة ، حتى سقطت بأيديهما في سنة ٥٩٢هـ / اوائل تموز بولطسوام ١١٩٦م ، فتسلمها العادل وحل محل ابن اخيه الأفضل الذي عوض بمنطقة

١ - ابوالمحاسن : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٢٣

٢ - ابوالمحاسن : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٢٤

٣ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ، ص ١١٩ - ١٢٠ - ابوالمحاسن : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٢٤

٤ - ابن خلكان : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٣٩٠ - ٣٩١ - ابوالمحاسن : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٢٥

صرخد ، في حين أصبح الملك العزيز سلطانا يحكم مصر والشام حتى بيست المقدس (١) .

توحيد الدولة الأيوبية تحت سلطة العادل

حكم الملك العزيز عثمان مصر من سنة ٥٨٩-٥٩٥هـ / ١١٩٣-١١٩٨م بعد وفاة أبيه . وكان قد حكمها قبل ذلك باسم أبيه صلاح الدين (٢) ويبدو أن مصر أصيبت في أيام سلطنته بضائقة اقتصادية تعود أسبابها إلى انخفاض فيضان النيل سنة ٥٩١-٥٩٢هـ / ١١٩٤م إضافة إلى انشغال العزيز بالنزاع مع أخيه الأفضل ، مما أدى إلى عدم السرعة في إيجاد مخرج من الأزمة (٣) . وما لبث الملك العزيز أن توفي في محرم سنة ٥٩٥هـ / تشرين الثاني نوفمبر ١١٩٨م بسبب سقوطه عن جواده أثناء خروجه للصيد ، فتولى حكم مصر ابنه المنصور محمد (٤) ، الذي لم يكن إلا صبيا لم يتجاوز العاشرة من عمره (٥) . فتولى الوصاية عليه عمه الأفضل (٦) .

أراد الأفضل أن يستغل مركزه الجديد لاستعادة ما ضاع منه من أملاك وخاصة دمشق التي أصبحت تحت سلطة عمه العادل . وأراد أن يستعين بأخيه الظاهر في حلب من أجل ذلك . ولكن العادل أفضل هذه المحاولة بحسن سياسته . إذ استمال قادة ابن أخيه إليه ، وعمل على إثارة الخلاف بين الأخرين المعظم والظاهر ، فعاد كل منهما من حيث أتى (٧) .

- ١- أبوالمحسن : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٢٦
- ٢- ابن خلكان : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٢٥١ - أبوالمحسن : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٢٠
- ٣- ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٣٥
- ٤- ابن خلكان : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٢٥١-٢٥٢ - أبوالمحسن : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٢٨-١٢٩ أو ص ١٤٦
- ٥- ابن خلكان : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٢٥١-٢٥٢
- ٦- أبوالمحسن : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٤٦-١٤٧
- ٧- ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٣٥ - أبوالمحسن : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٤٧-١٤٨

أراد العادل أن يستغل الظرف ، ويؤدب ابن أخيه الأفضل لئلا يفكر بمثل ذلك ثانية . فجهز جيشه ولحق بالأفضل الى مصر ، حيث أنزل به الهريمة قرب بلبليس ، وتابعه حتى القاهرة ، حيث أعلن الأفضل استسلامه لعمه في ربيع الآخر ٥٩٦ هـ / شباط فبراير ١٢٠٠ م (١) مقابل اعادته الى اقطاعه في حوران (٢) . ولكن الأفضل لم يرتدع بل قام بمحاولة ثانية لاستعادة دمشق الا أنه فشل ثانية (٣) ، وخسر اقطاعه في حوران ، وأبعد الى الجزيرة حيث تسلم حكم سيمساط (٤) .

اصبح العادل ل اثر انتصاراته المتكررة على ابن أخيه الأفضل ، وابعاده الى الجزيرة ، رأس الأسرة الأيوبية بجدارة ودون منازع . فجعل من نفسه في البداية وصيا على حفيد أخيه المنصور محمد . ولكنه ما لبث ان رغب بالسلطنة لنفسه . ولما كان يريد أن يجعل عمله شرعا ، أراد أن يستصدر حكما فقهيا لصالحه . ولذلك جمع الفقهاء وقال لهم : (هل يجوز ولاية الصغير على الكبير ؟ فقالوا : الصغير مولى عليه . قال : فهل يجوز للكبير ان يغوب عن الصغير ؟ قالوا لا . لأن الولاية من الأصل اذا كانت غير صحيحة فكيف تصح النيابة) .

اعتبر العادل هذه الفتوى الفقهية بمثابة اعلان على عدم صحة سلطنة المنصور محمد . ولذلك فانه قطع الخطبة له ، وأقطعته جماء وأعمالها ، وخطب

- ١ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جز ١٢ ، ص ١٥٥ - ١٥٦
- ٢ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جز ١٢ ، ص ١٥٥ - ١٥٦
- ٣ - ابوالمحاسن : المصدر السابق ، جز ٦ ، ص ١٥٠ - ١٥١
- ٤ - المقرئ : السلوك ، جز ١٠ ، ص ١٥٩ ، علق حين يرى ابن الاثير جز ١٢ ، ص ١٥٦ انه اخذ ميا فأرقيين وحائي وجبل طور

في مصر لنفسه ولا يبدئه الكامل من بعده (١) في ٢١ شوال سنة ٥٩٦هـ / آب
اغسطس ١٢٠٠م وهر خلعته للسلطان قائلا : (انه قبيح بي أن أكون أتابك
صبي مع الشيخوخة والتقدم ، والملك ليس هو بالارث ، وانما هو لمسيح
غلب) (٢) .

١ - الملك العادل والصلبييون قبل الحملة الخامسة

أصبح العادل سلطانا على مصر والشام منذ ١٢ شوال سنة ٥٩٦هـ / آب
اغسطس ١٢٠٠م ، فتوحدت الجبهة الاسلامية ثانية . وترتب على السلطان
الجد يد الوقوف بوجه الصليبيين الذين ما فتوا يرسلون الجيوش والتجديات
الى المشرق .

كان الغرب الاوربي متحمسا لارسال حملة جديدة الى الشرق منذ وفاة
صلاح الدين ، وخاصة وان الصلح (صلح الرملة) الذي عقده ريتشارد مع
صلاح الدين مدته ثلاث سنوات وثلاثة اشهر تنتهي في ذي القعدة سنة ٥٩١
هـ / كانون الأول ديسمبر ١١٩٥م .

كان على رأس المتحمسين لارسال الجيوش الى المشرق هنري السادس
بن فريدريك بربروسا امبراطور المانيا ، الذي دفع بجموع من الصليبيين
الالمان الى بلاد الشام منذ سنة ٥٩٣هـ / ١١٩٧م دون ان يأتي بنفسه ،
أو يرسل أحد كبار الأمراء على القيادة (٣) فوقع هولا في عداة مع صليبيي

١- ابوالمحاسن : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٥١-١٥٢

٢- انظر الشيبال : المرجع السابق ، ص ٩٥

٣- انظر ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ٢٥ ، ص ٢٣٣

عكا . كما أنهم هاجموا الأراضي الإسلامية وقتلوا بعض المسلمين في اطراف القدس ، مما أوقع أمير عكا بمأزق مع المسلمين ، في الوقت الذي كان يحرض فيه على استمرار الصلح معهم .

لم يكن الملك العادل حين حدث هذا الاعتداء سلطانا ، ولكنه كان الرجل الأيوبي الذي يعتمد عليه ولذلك فانه اسرع لصد اعتداءات الصليبيين فطلب النجدة من أمراء بني أيوب في الشام ومصر ، وشكل جيشا موحدا أحاط بالصليبيين الألمان قرب عكا ذاتها (١) . ولم يجد أمير عكا هنري دي شامبني بدا من حشد القوى الصليبية ، التي لقيت المسلمين قرب غزة عند تل العجول . فحلت الهزيمة ، وقتل المسلمون منهم جماعة هواسسروا أخرى ، ورجعوا بغنائم كثيرة (٢) . وزحف المسلمون الى يافا ودخلوها على الرغم من دفاع الصليبيين عنها .

توفي الملك هنري دي شامبني في هذه الفترة الحرجة من العلاقات بين المسلمين والصليبيين في ذي القعدة سنة ٥٩٣ هـ / ١٠ ايلول سنة ١١٩٧م فتولى عرش الامارة عموري الثاني لوزجان ملك قبرص الذي جمع بين عرش مملكة بيت المقدس وعرش قبرص .

لم يستطع عموري الثاني لوزجان استعادة يافا من المسلمين ، فاستعاض عنها بالاستيلاء على مدينة بيروت في ذي الحجة سنة ٥٩٣ هـ / تشرين الأول ١١٩٧م (٣) ومن ثم صيدا . وقد شجع هذا الاستيلاء أمير أنطاكية بمحاولة الاستيلاء على اللاذقية وجبله ، ففشل ، لان الملك الظاهر

١ - عند رأس الماء بمرج عكا .

٢ - ابن واصل : المصدر السابق ، جز ٣ ص ٧٤

٣ - أبوشامه : المصدر السابق ، جز ٢ ص ٢٣٢-٢٣٣

كان قد أخذ الحبيطة والحذر .

فكر الصليبيون بالاستيلاء على بيت المقدس عقب استيلائهم على بيروت ، ولكنهم توقفوا عند حصن تبين حيث لقوا مقاومة عنيفة من المسلمين . فقد انضم للملك العادل امراء الأيوبيين في مصر وغيرها ، مما أدى إلى انسحاب الصليبيين . وبذلك فشلت الحملة الألمانية في تحقيق أهدافها ، وتوفي الامبراطور هنري السادس في الغرب (١) . وكل ما فعلوه هو إثارة الحرب ثانية بين المسلمين والصليبيين ، حتى ساعدت الأوضاع بينهما على عقد صلح جديد في رمضان سنة ٥٩٤ هـ / اوائل تموز يوليو ١١٩٨ على أنفسهم (٢) أسس صلح الرملة ، مع احتفاظ المسلمين والصليبيين بفتوحاتهم الجديدة وذلك لأن عموري الثاني ارتأى ان لا يقوم بحروب مع المسلمين حتى تصل الحملة الصليبية المرتقبة . وليس معنى ذلك ان الحروب توقفت نهائيا بين العادل والصليبيين ، بل قامت بعض الغارات بين الطرفين ولكنها لم تنتع بسبب تسامح العادل الى اقصى حدود التسامح (٣) .

حين اعتلى السلطان العادل عرش السلطنة ، ظهر بشكل واضح ، ان له سياسة جديدة مع الصليبيين تختلف عن سياسة اسلافه . اتسمت بطابع التسامح والبعد عن التعنت ، في الوقت الذي كان فيه الغرب الأوربي يتحمس للقيام بحملة جديدة . وكان ينظر الى جهود العادل في توحيد الجبهة الاسلامية بعين القلق ، ويوجهون انظارهم باتجاه مصر بعد ان

١ - انظر ابوشامة : المصدر السابق ، جز ٢ ، ص ٢٣٣

٢ - عاشور : مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ٧٠

٣ - عاشور : مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ٦٩ - ٧٠

أدركوا أهميتها بوصفها القاعدة الكبرى التي اعتمد الأيوبيون عليها - ففي نشاطهم الداخلي والخارجي ، ولذلك ظهرت الدعوة في الغرب الأوربي في أوائل القرن السابع الهجري ، وأوائل القرن الثالث عشر الميلادي لارسال حملة كبيرة ضد مصر (١) ، فكانت الحملة الصليبية الرابعة - إلا ان هذه الحملة لم تسر بالطريق الذي رسم لها ، بل انحرفت وهاجمت القسطنطينية - واستولت عليها سنة ٥٠٠هـ / ١٢٠٤م (٢) .

حدث في تلك الفترة تغيرات في مملكة بيت المقدس الصليبية - أدت الى زيادة حدة التوتر بين الطرفين - فقد توفي عموري الثاني لوزج - ان (لوسينيان) ، وكانت وريثة العرش دون سن الرشد ، فوضعت تحت وصاية حنا الأول حاكم بيروت الذي عرف باسم حنادي برين - ولم يلتزم الصليبيون في عهد الوصاية بالمعاهدة المعقودة في عهد عموري الثاني ، بل قاموا ببعض الاعتداءات على الاراضي الاسلامية وبيعوا بعض أعمال القرصنة في البحر - فقد هاجم بعض قراصنة الصليبيين في جزيرة قبرص عدة سفن من اسطول مصر - واسروا من فيها (٣) ، وانتهى الأمر بمظاهرة عسكرية من قبل العادل أدت الى اعادة الأسرى (٤) - كما قام الاسبتارية بهجمات على مدينة حصص وما دعا العادل الى تأديبهم ، فاستدعى افراد أسرته بجيوشهم حيث قصد حصن

-
- ١ - عاشور : مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ٦٩
 - ٢ - انظر عن ذلك اسمت غنيم : الحملة الصليبية الرابعة ومسؤولية انحرافها ضد القسطنطينية ، دار المجمع العلمي جدة ٩٧٨م ص ٦٩ - ٩٠
 - ٣ - ابن الاثير : الكامل في التاريخ : جز ١٢ ص ٢٧٣ - ٢٧٤ - عاشور : قبرص والحرب الصليبية ص ٣٩
 - ٤ - ابوشامة : ذيل الروضتين ، ص ٥٠

الأكراد مركزاً استراتيجياً في سنة ٦٠٤هـ / حزيران ٢٠٧م ، فنزله وأسـر خمسمائة رجل ، ثم استولى على برج اعزاز الى الجنوب الشرقي من حصن الاكراد ، فأسـر حاميته ، ونـم منه أموالاً ضخمة ، ثم زحف الى حصن القليعات شمال عرقة حيث خربه وأطلق سراح صاحبه ، ثم حاصر مدينة طرابلس في سنة ٦٠٤هـ / ٢٠٧م ، ونصب عليها المجانيق وضيق على أهلها ، وقطع الماء عليهم ، فأسرع بوهيموند الرابع صاحب طرابلس الى طلب الصلح ، وقدم برهانا على حسن نيته باطلاق سراح ثلاثمائة اسير وتقديس الأموال والهدايا (١) .

وقف الداوية ايضاً موقفاً متشدداً ، وأخذوا يقومون ببعض الأعمال الاستفزازية مما أدى الى اهتمام العادل بالأمر لا يقانهم عند حد همهم . فقام بإنشاء قلعة قوية على جبل الطور تشرف على اقليم الناصرة ، وتحيط اقليم الجليل من أية غارة مقبلة من جانب الصليبيين ، فارتدع الداوية وأقنروا الصلح مع المسلمين .

في تلك الأثناء قدم من الغرب الأوربي بعض الصليبيين المتحمسين لقتال المسلمين ، ومن هؤلاء بعض الهنغار والألمان تحت زعامة ليوبولسد السادس دوق النمسا ، واندريه الثاني ملك هنغاريا ، وانضم اليهما خيسو ملك قبرص . ونهض هؤلاء مع من تجمعوا اليهم من الصليبيين في المشرق سنة ٦١٤هـ / ٢١٧م بجعل هدفهم الاستيلاء على قلعة جبل الطور التي شيدها العادل . وبدأ الصليبيون بالهجوم على بيسان للسيطرة على اقليم

١ - ابن الأثير: الكامل في التاريخ ، جزء ١٢ ، ص ٢٧٣-٢٧٤

الجليل ، فدخلوها لخلوها من كل وسائل الدفاع ، ثم استولوا على المنطقة المحيطة بها ، وغنموا غنائم وفيرة . (١)

ولم يكف هؤلاء بما قاموا به ، بل عبروا نهر الأردن في رمضان ٦١٤ هـ / تشرين الثاني سنة ١٢١٧ م وأرغلوا حتى وصلوا الى نوى ، وحاصروا نسي طريقهم بانياس ، ثم عادوا بعد أن غنموا وسبوا وقتلوا واحرقوا كل ما وصل الى أيديهم ، ثم اخذوا بحصار قلعة جبل الطور في ٦١٤ هـ / نهاية سنة ١٢١٧ م لمدة سبعة شهور وما هاجموا هجوما عفيفا . وعلى الرغم من ذلك ، فلم يفلحوا في دخولها ، فعادوا أدراجهم الى عكا (٢) ، ثم قرر ملك هنغاريا ترك المنطقة والعودة الى اوربا ، وانتهت هذه الحملة دون أن تحقق أهدافها .

٢ - العادل والحملة الصليبية الخامسة

تعتبر الحملة الصليبية الرابعة نقطة تحول خطيرة في تاريخ الحروب الصليبية . إذ كان من المقرر ان تتجه في سنة ٦٠٠ هـ / ١٢٠٤ م الى مصر بالذات ، باعتبار ان الصليبيين لن ينعموا بحياة آمنة في بلاد الشام ، ان لم يسيطروا على مصر . ولكن المطامع والمصالح الاقتصادية والتجارية لبعض المدن الأوربية ، أخذت تحتل المكانة الأولى ، وغلبت على الاندفاع الديني ، مما جعل هذه الحملة تتحرف وتتوجه ضد القسطنطينية ، حيث أسقط الصليبيون الامبراطورية البيزنطية ، وأقاموا امبراطورية لاثينية مكانها . وقد أسفر ذلك عن ازدياد العداوة بين الكويستين الشرقية والغربية ،

١ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جز ١٢ ، ص ٣٢٢-٣٢٣ - ابوشامة :
ذيل الروضتين ص ١٠١-١٠٢

٢ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جز ١٢ ، ص ٣٢٢-٣٢٣

وجعل موقف الصليبيين في الشام ضعيفا ، ودفع البابا أنوسنت الثالث ومن بعده هونوريوس الثالث بالدعوة لحملة صليبية خاصة (١) لتحقيق ما فشلت في تحقيقه الحملة الرابعة الأ وهو احتلال مصر لأنها مفتاح الشام عامة ، وبيت المقدس خاصة ، وعدا عن ذلك فإن مصر بعد احتلالها تصبح مصدر ثروة لهم ويحرم العالم الإسلامي من موارد ها البشرية والمالية الضخمة . وقد أدرك المؤرخون المسلمون المعاصرون هذه الحقيقة ، ونسروا في ضوءها اتجاه الحملات الصليبية ضد مصر منذ القرن الثالث عشر الميلادي . جرت الاستعدادات في الغرب الأوربي للحملة المنتظرة ، وأخذت مجموعات منهم تتجه إلى مدينة عكا ، مما دفع بحنا دي برين ملك بيت المقدس أن يستغل تلك الجموع الصليبية التي وفدت على بلاد الشام بعد سفر ملك هفغاريا - بالقيام بحملة على الدلتا . ووجد تأييدا لرغبته من الدانمبية والاستبارية ، فضلا عن الصليبيين في قبرص (٢) .

خرج حنا الأول من عكا بعد أن ترك بها حامية قوية لصد هجمات المسلمين في غيابها على رأس ما استطاع جمعه من السفن والرجال في صفر ٦١٥ هـ / أيار مايو ١٢١٨ م (٣) قاصدا دمياط لقرنها أولا من مراكزهم ، ولا تخاذ النيل معبرا لهم يتم الطريق البحري حتى القاهرة ، ضاربين حائطا التجربة الصليبية الأولى التي قام بها عموري الأول ، والتي أثبتت أن الوصول إلى القاهرة أمر سهل عن طريق الصحراء الشرقية .

١ - عاشور : مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ٧٣

٢ - عاشور : مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ، ص ٧٣

٣ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جز ١٢ ص ٣٢٣

وصلت الحملة الى دمياط ، ونصب الصليبيون معسكرهم على الضفة الغربية للنيل المواجهة لمدينة دمياط . وقد وجد الصليبيون المدينة محصنة تحصينا قويا ، ان كانت تمتد بعرض مجرى النيل مآصر (١) ، كما يحيي المدينة خندق عميق وسور ضخيم مكون من ثلاثة جدران . هذا بالإضافة الى برج السلسلة وهو بمثابة حصن بناء المسلمون وسط مجرى النهر لحماية المدينة ودفع أي عدوان يقع عليها .

سار الكامل - نائب أبيه العادل على مصر - بجيوشه ، ونزل في جنوبي دمياط عند منزلة العادلية (٢) ، ليكون على اتصال بالمدينة من ناحية يمين الصليبيين من العبور اليها من ناحية ثانية . وقد أضع الصليبيون ممددة أربعة أشهر في مهاجمة برج السلسلة حتى تمكنوا بعد ذلك من تملكه (٣) . تمكن المسلمون خلالها من جمع قواتهم لمواجهة الخطر . وقد حاول الكامل وضع عائق متعددة في النيل لئلا يتخذ الصليبيون طريقا ، فاستطاعوا تخطيها ، ووصلوا الى بورة مقابل العادلية حيث أقام الكامل (٤) .

على حين كانت الأمور تسير على هذا المنوال في مصر ، فان العادل حاول تخفيف الضغط عليها بالعمل على مهاجمة املاك الصليبيين في الشام ، فأرسل ابنه الملك الأشرف لمهاجمة بعض المناطق الصليبية قرب طرابلس ، فأغار على حصن صافيتا ، وحصن الأكراد ، وانتصر الملك المعظم على فريق من الداوية وسجن قسما منهم . وكذلك فقد سار الى قيسارية فدخلها ، واتجه

١ - انظر تعريفها فيما سبق ص

٢ - ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١٢ ص ٣٢٤

٣ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ص ٣٢٤ - ذيل الروضتين ، ص ١٠٩

٤ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ص ٣٢٤

الى عتليت فلم يتمكن من اخضاعها • وببدو أن المعظم على الرغم من انتصاراته السابقة على الصليبيين في الشام ، كان يخشى ان ينجحوا في مصر ، ولذا لكفانه اسرع الى تدبير عدة حصون قوية في فلسطين ، كما فكر في هدم مدينة بيت المقدس ، وشرع فعلا في هدم أبراجها وسورها في ٦١٦هـ / آذار ما رس سنة ١٢١٩م حتى لا يحصل الصليبيون منها على أية فائدة اذا سقطت في أيديهم (١) .

٣ - وفاة السلطان العادل وتولي الكامل مهمة الدفاع

توفي السلطان العادل في ١٧ جمادى الاخرى سنة ٦١٥هـ / ٢٣١ ب أغسطس ١٢١٨م ، والبلاد في خطر داهم ، والعدو يعمل على استغلال الفرصة • وخلفه ابنه الملك الكامل في حكم مصر هو ابنه الملك المعظم في حكم دمشق • وقد حاول الكامل صد الصليبيين ، فعبر النيل اليهم ، وباغتهم بالهجوم ، ولكنهم صمدوا له وهزموا جنده ، في شعبان ٦١٥هـ / ٩ تشرين الأول ١٢١٨م دون أن يستطيعوا عبور النيل الى الضفة الشرقية (٢) .

سأه موقف الكامل في مصر بسبب موامرة قامت ضد له صالح اخيه الفاتح (٣) اضافة الى نزوح قبائل بدوية من سيناء والشرقية للنهب والسلب (٤) ، فآثر أن يتسلل من معسكره الى شموه طنجاح ، ولحق به جنده تاركين خلفهم كل ما معهم من مؤن وسلاح (٥) ، فسنحت الفرصة بذلك للصليبيين لعبور النهر الى الضفة الغربية ، وأن يستولوا على غنائم كثيرة من معسكر العادلية نسي

- ١ - عاشور : الحركة الصليبية ، جزء ٢ ، ص ٩٦٩ - ٩٧٠
- ٢ - عاشور : الحركة الصليبية ، جزء ٢ ، ص ٩٧١
- ٣ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ، ص ٣٢٥
- ٤ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ، ص ٣٢٦
- ٥ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ، ص ٣٢٥

ذى القعدة سنة ٦١٥هـ / كانون الثاني ١٢١٩م . وفي تلك الأثناء وصل الملك المعظم الى مصر ، فاستطاع مع أخيه من القضاء على المعز مرة (١) ، وتقدم الجيش الأيوبي من جديد ، واحتل موقعه عند فارسكور جنوبي العادليسة . ليتمكن المسلمون من مهاجمة الصليبيين من الخلف اذا هاجموا دمياط . كما ارسل الكامل والمعظم بطلب التجدات من كل أنحاء العالم الاسلامي ، وخاصة الخليفة العباسي .

وصل الى الصليبيين نجدات قوية من فرنسا وقبرص وبرفقتهم المنذوب البايوى بلاجيوس ، اضافة الى امدادات وموئن ، تمكنوا بواسطتها من احكام الحصار على مدينة دمياط . على حين كانت الأنبياء تقوى للمسلمين عن تقدم جيوش جنكيزخان وتهديد الدولة الخوارزمية ، مما أثار مشكلة الدفاع عن الجبهة الشرقية للعالم الاسلامي ضد المغول (٢) ، فدفع ذلك العادل الى أن يعرض على الصليبيين عرضا سخيا يشمل بموافقته على احياء مملكة بيت المقدس الصليبية باستثناء حصن الكرك ووادي عربة ، مقابل جـلـاء الصليبيين عن مصر . ولكن العرض رفض من المنذوب البايوى بلاجيوس الذي أصر على مهاجمة معسكر الكامل في فارسكور مع حصار دمياط . وكانت النتيجة فشل الهجوم ، وفرار الصليبيين ووقوع بعضهم في الأسر .

ظن الكامل بعد هذا الدجاج الذي حققه ضد الصليبيين انهم سيقبلون عرضه بتجديد امانة بيت المقدس مع الكرك والشوبك ، فأعاد عرضه عليهم ثانية ، فأبوا الا ان تكون الكرك والشوبك ضمن العرض (٣) .

١ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جز ١٢ ، ص ٣٢٥

٢ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جز ١٢ ، من ص ٣٢٩ - ٣٩٨

٣ - عاشور : الحركة الصليبية ، جز ٢ ، ص ٩٧٦

ويحار المؤرخ في تفسير الأسباب التي دعت الكامل الى تقديس هذه العروض المغرية والى التساهل مع الصليبيين لدرجة لا يمكن تصورها ، إذ تعني ان الكامل مستعد للتنازل عن كل مكاسب صلاح الدين الايوبي ، ويمكن تفسير ذلك على ضوء سوء الوضع العام في الخلافة العربية الاسلامية ، وهجمات المغول ، وضعف مصر الاقتصادية في تلك السنة بسبب انخفاض النيل ، وانتشار الوباء ، ورغبة الملك المعظم في العودة الى بلاد الشام مع سوء وضع حامية دمياط ، ووصول نجدة قوية من الانكليز والفرنسيين الصليبيين . صمدت دمياط في وجه الحصار الصليبي تسعة اشهر كاملة ثم استسلمت في ٢٧ شعبان ٦١٦ هـ / ٥ تشرين الثاني نوفمبر ١٢١٩ م للصليبيين الذين قاموا كعادتهم بالغدر بالسكان ووضعوا السيف فيهم ونهبوا وسلبوا ، وجعلوا جامعها كنيسة . ثم نشبت المنازعات بينهم حول ملكيتها .

كان الأسى عميقا في قلوب المسلمين لسقوطها ، كما خشي امرؤهم من أن يكون نجاح الصليبيين في دخول دمياط بداية لمد صليبي جديد ، ولذلك فانهم اتخذوا بعض الاجراءات التي رأوا انها ضرورية . فقد اتجه الملك المعظم الى الشام لاستئناف تدبير تحصينات بيت المقدس وغيرها من القلاع ، واعداد دمشق للدفاع . ثم عاد ومعه أخوه الأشرف موسى صاحب خيالات الجزيرة على رأس جنودهما لمساعدة الكامل (١) .

اقام الصليبيون في دمياط حتى النصف الأول من عام ٦١٨ هـ / ١٢٢١ م في ركود تام بانتظار الامبراطور فردريك الثاني على رأس حملة صليبية كبيرة ،

وأصدر بلاجيوس أوامره أثناءها بحد النشاط البحري للصليبيين بين دمياط وعكا . فاستغل المسلمون ذلك الوضع للسيطرة على مياه البحر بين دمياط وعكا . كما قامت السفن الإسلامية باغراق واحراق عشر سفن للحجاج الصليبيين بين الاسكندرية وقبرص وعكا ودمياط . وجدد الكامل اثر ذلك عرضه للمسيرة الثالثة بتسليم كل ما استولى عليه صلاح الدين اثر حطين ماعدا الكرك فقط . فرفض بلاجيوس ذلك ، وطلب ٣٠٠ الف دينار كعويض عن تخريب تحصينات بيت المقدس (١) .

قرر بلاجيوس التحرك باتجاه القاهرة بعد أن وصل الى دمياط لوبس دوق بافاريا على رأس قوة جديدة . وارسل يطلب حنا الاول من عكا ، والذي كان قد غادر دمياط بعد فتحها . كما قام الأيوبيون بكل ما في وسعهم لاقبال هذا الزحف وابتغاه . فجمعوا من الجند كل ما يمكن جمعه من مصر والشام واجتمع الأخوة الكامل والمعظم والأشرف في المنصورة استعدادا لمواجهة الأخطار . وجدد الكامل عرضه على الصليبيين للمرة الرابعة ، فزادوا في غيهم وأكثروا في الطلب .

تقدم الجيش الصليبي وسط مثلث تحيط به المياه من ثلاث جهات ، بحيرة المنزلة شرقا ، وقرع دمياط غربا ، والبحر الصغير جنوبا (٢) . ووقفت السفن الإسلامية في النيل لتسد الطريق في وجه السفن الصليبية ، وتحول دون الصليبيين والاتصال بقاعدتهم في دمياط ، ودون وصول الميرة اليهم . ولما وصل الصليبيون الى رأس الجزيرة ، قطع المسلمون السدود ، فغرق المثلث الذي تقدم فيه الصليبيون بالما ، بحيث لم يبق سوى ممر ضيق يستطيعون العودة

١ - ابرم الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ، ص ٣٢٩

٢ - انظر خريطة رقم

عن طريقه الى دمياط . فوجدوه وقد أغلق بألقي فارس معهم آلاف من
العربان (١) .

سأه موقف الصليبيين ، فإرسلوا بدورهم الى السلطان الكامل في ٧ رجب
سنة ٦١٨هـ / ٢٨ آب اغسطس سنة ١٢٢١م يعرضون استعدادهم لتترك
دمياط ، والجللاء عن البلاد مقابل السماح لهم بالخروج من المأزق السدي
وقعوا فيه ، وتركهم يعودون الى بلادهم سالمين . فوافق الكامل على ذلك .
وطلب منهم رهائن من ملوكهم يبقون معه حتى يسلموا دمياط . وتم جـ...لاه
الصليبيين عنها في ١٩ رجب سنة ٦١٨هـ / ٧ ايلول سنة ١٢٢١م (٢) فقد خلفها
الملك الكامل في اليوم التالي ، وأضاف بعقد هدنة مع حنا الأول لمدة ثمان
سنوات من ٦١٨-٦٢٦هـ / ١٢٢١-١٢٢٩م شرط اطلاق الأسرى لسدي
الطرفين .

سلطنة الكامل بن العادل

١ - الخلاف بين أفراد الأسرة الأيوبية في عهده

دجح الأيوبيين في صد الحملة الصليبية الخامسة بسبب تعاونهم—
ووقوفهم صفا واحدا أمام هجمتهم الشرسة على دمياط (٣) . واكتسب الملك
الكامل نتيجة لهذا النجاح من النفوذ والسلطان ما جعله يفرض سيطرته على
أمراء الشام . ولكن الأيوبيين ما لبثوا— كعادتهم حين يزول خطر العدو—
أن عادوا الى ما درجوا عليه من صرف قوتهم في المنازعات الداخلية ، لتحقيق
مطامع اقليمية (٤) .

- ١ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ، ص ٣٢٩ - ٣٣٠
- ٢ - ابوشامة : دليل الروضتين ، ص ١٣٠
- ٣ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ، ص ٤٦٣
- ٤ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ، ص ٤٦٣

بدأ الخلاف بين السلطان الكامل واخيه المعظم منذ سنة ٦٢٠هـ /
١٢٢٣م . ويعود الخلاف الى اطماع المعظم عيسى وجشده ، ورغبته في
جعل المناطق المحيطة به في بلاد الشام تحت امرته . ولتحقيق ذلك
هاجم حماه واستولى على بعض اعمالها مثل المعرة وسلمية ، وكانت لابن عمه
الناصر صلاح الدين قلع ارسلان . ولكن الكامل باعباره سلطانا للابويبيين ،
فرض على اخيه الملك المعظم ترك ما احتله ، فكان ذلك بداية الخلاف
بينهما (١) .

٢ - الحملة الصليبية السادسة

أدى الخلاف بين السلطان الكامل ومظالمهم في التوسع على
حساب بعضهم بعضا وتعرض بعض املاكهم لهجمات الخوارزمية الى خلافات
شديدة تسببت مع جملة أسباب أخرى في قدوم الحملة الصليبية السادسة .
فقد حدث في هذه الفترة الحرجة ازدياد سلطة الخوارزمية الذين باتوا
يهددون الدولة الأيوبية في الجزيرة وبشكل خاص املاك الملك الأشرف .
وهرع الأخير الى اخيه المعظم في دمشق سنة ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م طالبا منه
العمل بسرعة لتوحيد جبهة البيت الأيوبي أمام خطر الخوارزمية (٢) . ولكن
المعظم صاحب دمشق اراد ان يستغل الفرصة التي أتاحت له لصالحه
الشخصي . فقبض على اخيه الأشرف في دمشق ، ولم يطلق سراحه الا بعد
أن تعهد له بمساعدته في الاستيلاء على حصن وحماه ، ثم مهاجمة اخيهما

١ - ذيل الروضتين ٨ ص ١٣٣ - ١٣٤ - ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، جزء
١٢ ص ٤٦٣ - المقريزي : السلوك ، جزء ١ ، ص ١٤٤ - يوسف كرويش
غواتمة : أضواء جديدة على الملك الناصر داود وتحرير بيت المقدس ،
مجلة دراسات تاريخية العدد الرابع ، ص ٢٦٢ -

٢ - ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١٢ ، ص ٤٦٤

الكامل في مصر . وقد تعهد الأشرف بذلك لينال حريته ، ثم نقض ما اتفقا عليه ، لأنه تعهد به مكرها . وانضم بذلك إلى أخيه الكامل ضد الملك المعظم (١) .

انقسم البيت الأيوبي بذلك على نفسه إلى فريقين ، عمل كل منهما على الاستعانة بقوة خارجية . فاستجد الملك الكامل بالامبراطور فريدريك الثاني (٢) طالبا مساعدته ضد أخيه ، مقابل اعطائه بيت المقدس وجميع فتوح صلاح الدين بالساحل (٣) . تلك الأملاك التي لا تتبع له من جهة لأنها من أملاك المعظم ، ولا يملك حق التنازل عنها . ووصلت رسالة الكامل إلى الامبراطور فريدريك ، فرد على السلطان بسفارة معاملة ، تحمّل رده بالموافقة ، وهدية تليق به . كما اتفق الملك المعظم مع جلال الدين الخورازمي ضد أخيه الأشرف ، وحرضهم ضد ، فحاصروا عاصمته خلات في ذي القعدة سنة ٦٢٣ هـ / تشرين الثاني نوفمبر ١٢٢٦ م (٤) .

لم يلبث الملك المعظم ان توفي سلخ ذي القعدة سنة ٦٢٤ هـ / ١١ تشرين الثاني نوفمبر ١٢٢٧ م (٥) ، فخلفه في ممتلكاته ابنه الناصر داود . وهو شاب لم يتجاوز الحادية والعشرين من عمره (٦) ، ولم يكن على حظ من

١ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جز ١٢ ، ص ٤٢١ - ٤٢٢ - انظر أيضا الروضتين ، ص ٢٣٣ - يوسف غوانمة : أمانة الكرك الأيوبية ص ٢١١ - ٢١٢ Wiet: op. cit. , p 352

٢ - هو ملك الامبراطورية الجرمانية المقدسة ، والذي سعى إلى توسيع سيطرته على ايطاليا وصقلية ، ووعد البابا بالقيام بحملة صليبية إلى المشرق ، بعد فشل الحملة الصليبية الخامسة ، وتزوج من بولا نديث بيت المقدس برواية حنا دي برين . انظر سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا في العصور الوسطى ، جزء ١ ص ٣٨٠ - ٣٨٦

٣ - انظر الشيال : المرجع السابق ص ١١٥ - ١١٦ Wiet: op. cit. , p 352

٤ - الشيال : المرجع السابق ص ١١٤

٥ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جز ١٢ ، ص ٤٧١ - يوسف د رويش غوانمة : اضاء جديدة على الملك الناصر داود ص ٩٨

٦ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جز ١٢ ، ص ٤٧٢ - يوسف د رويش غوانمة : المرجع السابق ص ٩٨

التجربة والخبرة ، فوجد السلطان الكامل في وفاة المعظم وتولية الناصر داود فرصة طيبة لتحقيق أهدافه ، وضم المنطقة التابعة لابن أخيه— وجعلها تحت سلطته المباشرة . فتوجه بعساكره في رجب سنة ٦٢٥هـ / ٢٠ تموز يوليو سنة ١٢٢٨م إلى بلاد الشام ، حيث استولى على بيت المقدس ونابلس .

لم يجد الناصر داود بدا من الاستنجاد بعمه الأشرف موسى ، الذي قدم بناءً على طلبه ولمساعدته ، ولكنه ما لبث أن اتفق مع أخيه الكامل على الاستيلاء على دمشق في نهاية سنة ٦٢٥هـ / ونهاية سنة ١٢٢٨م (١) ، وادعى الكامل أنه قام بهذا العمل كي لا تقع البلاد في أيدي الصليبيين ، في نفس الوقت الذي كان ينتظر فيه وصول الإمبراطور فريدريك الثاني الذي كان طريقه إلى فلسطين (٢) .

في الوقت الذي عمل فيه الكامل والأشرف على القضاء على دولة الملك المعظم بعد وفاته، وصل فريدريك الثاني إلى الشرق بالحملة الصليبية— السادسة ، ملياً نداء الملك الكامل الذي كان قد أرسله إليه ، وتحت ضغط البابا الذي أوقع به قرار الحرمان لعدم تنفيذ ما وعده حين تزوج يسولاند وريثة مملكة بيت المقدس ، ولثلا يظهر أمام المسيحيين في صورة المسيحي العاق (٣) .

- ١ - Wiet: op.cit., p 355
٢ - ابن الأثير: المصدر السابق، جز ١٢، ص ٤٨٠ وص ٤٨٢ - ابن واصل :
المصدر السابق، جز ٤، ص ٢٢٧
الذهيبي: دول الإسلام وتحقيق فهم شلتوت ومحمد مصطفى إبراهيم ،
القاهرة ١٩٧٤، جز ٢، ص ١٣٢
٣ - أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جز ٦، ص ٢٣٣ - يوسف غوانمه : امارة
الكرك، ص ٢١
ابن واصل: المصدر السابق، جز ٤، ص ٤٠٤ - انظر عاشور: أوروبا في العصور
الوسطى، جز ١، ص ٣٨٥
- يوسف غوانمه: أضواء جديدة على الملك الناصر، ص ١٠٧

كانت حملة فردريك الثاني من أغرب الحملات الصليبية . جاءت التي
المشرق دون أن تحظى بعطف البابوية ، وكانت قيادتها لامبراطور
محروم من الكنيسة . ولم يحضر مع قائدها من الصليبيين سوى خمسمائة
فارس (١) . بمعنى أن هذه الحملة كانت من الضعف بحيث لا تشكل خطراً
على الكامل محمد خاصة وبلاد الشام عامة . وموت أخيه المعظم عيسى قد أنهى
حاجته إلى حليف خارجي ، وجعله أقوى من كل من يمكن أن يخرج عليه .
ومع ذلك جبن الكامل محمد عن الوقوف بحزم أمام فردريك مدعياً أنه أراد
الوفاء بوعده لما عرف عنه من تسامح ديني (٢) . ولكن ما فرط به الكامل من
حقوق المسلمين لا يدل على تسامح ديني بقدر ما يدل على تخاذل وتهاون
أمام الأعداء . ويعزو بعض المؤرخين إلى النشأة العلمية المشابهة لكل
من فردريك والكامل ، والتوافق في الميول والطباع أدى إلى التفاهم ، ودفع
بالكامل إلى تسليم بيت القدس (٣) . ولا أظن أن الثقافة تعني التساهل ،
والجهل يعني حب الوطن والتمسك به ، بل كلما اتسعت ثقافة الإنسان ،
كلما كان أقدر على التلاؤم مع الظروف وأقدر على فهم الحق والواجب .

كان فريدريك يخطط لحملة قبل قدومها ، ويعمل على إرسال وفود إلى
حكام المنطقة ليسبر قوتهم وتساهلهم . فقد أرسل وفداً إلى المعظم عيسى
صاحب دمشق قبل وفاته يطلب منه التنازل له عن بيت المقدس الذي كان
من أملاك المعظم . ولكن المعظم رفض ذلك بلهياً وشتم ، ولوح في جوابه ،
للامبراطور تساهل الكامل في حقوق المسلمين ، فقال : (قل لصاحبك ما أنا
مثل الغير ، ماله هدى سوى السيف) (٤) . ولما وجد فريدريك أن أموره لن

١ - انظر عاشور : أوروبا في العصور الوسطى ص ٣٨٥ - يوسف غوانمه : المرجع
السابق ، ص ٩٩

٢ - انظر عاشور : مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ٨٦ - ٨٧ -
الشيال : المرجع السابق ، ص ١٤١

٣ - عاشور : المرجع السابق ص ٨٦

٤ - يوسف غوانمه : المرجع السابق ص ٩٩

تحل عن طريق الوفود قرر الاتجاه الى المشرق .

مر فريدريك في طريقه من صقلية الى الشام بجزيرة قبرص ، ليجعل تبعيةها الفعلية مع النظرية للامبراطورية الرومانية المقدسة ، فعين فيها نائبا صقليا عنه ، كما بث الحاميات في مختلف انحاء الجزيرة ، وعين موظفين ماليين لجمع الدخل والضرائب وأبحر في رمضان سنة ١٢٢٥ هـ / ايلول سبتمبر ١٢٢٨ م من فاماغوستا بقبرص قاصدا عكا ، فوصلها بعد اربعة ايام .

حين وصل فريدريك الى الشام كان سبب استدعائه قد زال . فالملك المعظم قد توفي ، واملاكه وزعت باتفاق الاقربين الأشرف والكمال ، واستقر الوضع بين ابناء البيت الأيوبي بالشام ، ولم يعد الكامل محتاجا الى مساعدته (١) . اما فريدريك الثاني فقد كان يرى في مسألة بيت المقدس مستقبل عرشه في الغرب الأوربي ، وقوة لموقفه أمام البابا الذي أخذ يرسل الرسائل والخطابات الى السلطان الكامل يحرضه على عدم تسليم بيت المقدس للامبراطور (٢) .

تلكا الكامل في تسليم بيت المقدس الى فريدريك الثاني لأن الظروف قد تغيرت ، فاستخدم فريدريك سلاح المفاوضة والاستعطاف واستخدم الوسائل الدبلوماسية للوصول الى غرضه . فبادر بارسال سفارة من رسوليين الى السلطان الكامل محملين بالهدايا النفيسة ، مطالبين الكامل بتحقيق وعده وتسليم بيت المقدس . فأجاب السلطان بأن السبب الذي من أجله وعد قد زال ، وان التفريط في بيت المقدس ، سيؤذي شعور المسلمين

١ - ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٢٣٤

٢ - عاشور : المرجع السابق ، ص ٨٨

عامة • ولكن الاستعطاف الذي قام به فردريك أفلح في التأثير على الكامل ، إضافة الى وضع المنطقة بشكل عام ، وخوف الكامل من اقتراب الخوارزمية والمعول ، جعله يعقد مع فردريك اتفاقية يافسا وقد أوضح المقرئ تلك الأسباب بقوله : (وقد خاف غائلته عجزا عن مقاومته) (١) •

٣ - اتفاقية يافسا وتسليم بيت المقدس

عقد الكامل مع فردريك اتفاقية في سنة ١٢٢٥ هـ / ١٢٢٨ م خالف فيها روح العصر مخالفة كبيرة ، وكانت بنودها كما يلي :

- ١ - أن تسلم مدينة القدس للصليبيين على ما هي عليه من الخراب وتبقى بأيديهم على وضعها لا تجدد أسوارها ولا يقام فيها حصونا أو قلاعاً ، وتبقى سائر القرى حولها للمسلمين •
- ٢ - أن يبقى في أيدي المسلمين من المدينة منطقة المسجد الأقصى ، على أن لا يحمل المسلمون فيها سلاحاً •
- ٣ - أن يطلق الكامل سراح من عنده من الأسرى •
- ٤ - أن يعطى للصليبيين أيضاً بيت لحم والناصرية ، فضلاً عن تبيين وصيدا بأكملها إضافة الى طريق الحاج من بيت المقدس إلى يافسا على الساحل •
- ٥ - أن يتعهد فردريك بمحاربة الكامل ضد جميع أعدائه ، حتى ولو كانوا مسيحيين صليبيين ، وأن يضمن عدم وصول امدادات صليبية الى امارتي انطاكية وطرابلس •

٦ - مدة هذه المعاهدة عشر سنوات . (١)

أدى تسليم بيت المقدس للصليبيين بتلك السهولة الى اثارة موجة عامة من السخط والأسى في العالم الاسلامي ، واعتبرها الجميع وصمة في جبين السلطان الكامل وعصره . وقد استغلها ابن أخيه الناصر داود ، وأمر خطيب المسجد الأموي بالوعظ ضد تصرف عمه هذا . وبعثه المرءوخون بالخيانة والتقصير ، واعتبروا ذلك العمل وصمة في الدين (٢) . وقد أحس الكامل بذلك ، فحاول ان يبرر مسلكه بمبررات لم يقتنع الناس بها . كما قابل الصليبيون تلك الاتفاقية بالغضب والاستياء لحصول فردريك على بيت المقدس عن طريق الاستجداء لا السيف ، ولا احتفاظ المسلمين بكثير من حقوقهم فيها ، ولأنه لا تتوفر لها شروط الأمن من خارجها ، ولعدم بحث الاتفاقية وضع الكوك والشوك .

دخل فردريك الثاني مدينة بيت المقدس عقب عقد صلح يافا ، في يوم السبت ربيع الثاني سنة ٦٢٥ هـ / ١٧ آذار مارس سنة ١٢٢٩ م ، ثم دخل في اليوم الثاني كنيسة القيامة وتوج نفسه بيده بعد ان رفض رجال الكنيسة تتويجه ، وأعلن للمسيحيين فيها انه يرفض أن يتصرف أحد منهم بما يسيء للإسلام ومسجدهم . ثم غادرها عائدا الى الغرب (٣) .

١ - انظر ابن الاثير : المصدر السابق ، جز ١٢ ، ص ٤٨٢ - ٤٨٣ - الشيال : المرجع السابق ، ص ١١٦ - يوسف غوانمة : المرجع السابق ، ص ١٠٢

٢ - ابن واصل : المصدر السابق ، جز ٤ ، ص ٢٤٣

٣ - المقرئزي : السلوك ، جز ١ ، ص ٢٣٠ - عاشور : المرجع السابق ، ص ٩٢

* انحلال الدولة الأيوبية وسقوطها :

١ - الخلافت بين افراد الأسرة الأيوبية في عهد السلطان

الكامل :

اتضح انحلال الدولة الأيوبية منذ توقيع معاهدة يافا بين السلطان الكامل محمد وفريدريك الثاني • عزاد وضوحا اثر وفاة السلطان الكامل في رجب سنة ٦٣٥هـ / مارس آذار ١٢٣٨م (١) • وكان لهذا الانحلال مظاهر متعددة على رأسها :

- نشوب حروب بين أمراء الأيوبيين كادت تكون مستمرة •
- زوال فكرة السلطان الأكبر الذي كان يعترف به وسلطته جميع أمراء الأيوبيين ، ويعتبرون أنفسهم تابعين له فزال بذلك التضامن العائلي • وتبع ذلك محاولة كل أمير الحفاظ على امارته ولو بالاستعانة بالأعداء من صليبيين وغيرهم ، بعد ان كانت فكرة قتال الصليبيين واخراجهم واجب الأسرة الرئيسي •

وقد تجلت الخلافت العائلية بأجلى صورها في محاولة الناصر داود العودة الى ملكه السابق في دمشق في جمادى الأولى ٦٢٦هـ / نيسان ابريل ١٢٢٩م ، وفشله امام تحالف عميه الأشرف والكامل ضده • ومن ثم فانه قنع بالكرك والسلط والبلقاء ، حيث شكل بها امارة الكرك الأيوبية ، على حين أعطى الكامل مدينة دمشق لأخيه الأشرف ، مقابل تنازله له عن جهات الجزيرة (٢) •

١ - ذيل الروضتين ص ١٦٦
٢ - الذهبي : دول الاسلام ، جز ٢ ص ١٣٣ - ابن واصل : المصدر السابق ، جز ٤ ص ٢٥٧ •

لم تتوقف الخلافات العائلية في سلطنة الكامل عند هذا الحد . بل ان ما بدا للعيان انشقاقها الى فريقين . فقد انشق الأشرف على أخيه الكامل وتحالف مع اقربائه في حمص وحماء وحلب ، على حين بقيت إمارة الكرك تمثل مركزاً لتوازن القوى بين الفريقين المتنازعين . ويعبر اليونيني (١) عن ذلك حين يذكر حد يثلاً أحد الأمراء مع السلطان الكامل يقول له فيه : أنت وأخوك - الأشرف موسى - مثل الميزان لا يرجح عليك ولا ترجح عليه . وقد بقي بينكما الملك الناصر داود ، فالى أي جهة مال ترجحت . وكسادت تقع حرب بين الفريقين لولا وفاة الأشرف موسى في محرم سنة ٦٣٥ هـ / اغسطس آب ١٢٣٧ م (٢) . وانتقال ملك دمشق بعده ، إلى أخيه الصالح اسماعيل بعهد منه .

استمر الصالح اسماعيل كسلطان الأشرف في تحالفه مع اقربائه ضد السلطان الكامل ، مما دفع بالسلطان الى الخروج الى دمشق بعد أن استمال اليه ابن أخيه الناصر داود صاحب الكرك وعده بالأمس . فاضطر الصالح اسماعيل تحت ضغط هذه القوة الى التنازل عن دمشق مقابل بعلبك والبقاع وعصرى .

٢ - العادل الثاني والصالح أيوب :

توفي السلطان الكامل في مدينة دمشق بعد دخولها بمدة قصيرة . فبايع كبار رجال دولته ابنه الأصغر العادل الذي عرف بالثاني (٦٣٥ - ٦٣٧ هـ / ١٢٣٨ - ١٢٤٠ م) متجاهلين ابنه الأكبر الصالح أيوب الذي كان يحكم أملاك والده في الشمال من قاعدة سنجار . كما جعلت دمشق

١ - الذيل على مرآة الزمان ، مطبعة دار المعارف العثمانية ، الهند ١٩٦١ م ،

جزء ١ ، ص ١٣٨
٢ - ذيل تاريخ الروضتين ص ١٦٦

للملك الجواد - زوج ابنة الأشرف موسى - .

لم يرق هذا العمل للصالح نجم الدين أيوب ، وشعر بأن توزيع أملاك أبيه الكامل لم يكن عادلا ، وأن الذين قاموا بهذا العمل ، كانت غايتهم ابعاد ، عن المناطق الرئيسية ، ليجعلوا السلطان العادل الثاني الذي كان طفلا غرا ، وليس له خبرة وتجربة في الحكم تحت سيطرتهم المباشرة . فنهض الصالح أيوب للمطالبة بحقه في عرش أبيه ، ولما لم يكن يستطيع اثبات ذلك إلا باستخدام القوة ، فانه سار باتجاه دمشق ، حيث ملكها من صاحبها مقابل اعطائه املاكا في الشمال في سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م .

ادى تحرك الصالح أيوب للمطالبة بحقه الى وقوع العداة بينه وبين أخيه الملك العادل الثاني . واران كل منهما أن يثبت حقه بالقوة ، واستعان الصالح بالجنود الخوارزمية ، على حين استعان العادل الثاني ببعض ابنساء البيت الأيوبي . وتقدم الصالح أيوب الى مصر بعد أن ترك ابنه نائبا عنه في دمشق . وسنحت له الفرصة بدخول القاهرة في نى القعدة سنة ٦٣٧ هـ / ١٩ حزيران يونيو ١٢٤٠م اثر موامرة دبرها ضد أخيه فيها (١) . وبذلك انتهى دور العادل الثاني ، وترجع الصالح أيوب على عرش السلطنة .

كان الصالح أيوب شخصية قوية ، وقد شهد عصره أحداثا داخلية وخارجية هامة ، من ذلك أن أقاربه نهضوا للعمل ضده ، فقد استرد عنه الصالح اسماعيل مدينة دمشق ، وسجن ابن الصالح أيوب ونائبه فيها . ثم تحالف ضد ، مع الناصر د اود وصاحب حمص ومع الصليبيين ، وتوجه الجميع نحو الجنوب باتجاه مصر . كما سار اليهم الصالح أيوب ، والتقى الفريقان في معركة عند مدينة غزة ، حيث انتصر الصالح أيوب على هذا التجمع ، ووطد سلطته

في الداخل .

١ - استرداد بيت المقدس في عهد الناصر داود ثم في عهد الصالح أيوب

لم يحاول الأيوبيون استعادة بيت المقدس منذ تسلمه فريدريك الثاني حتى سنة ٦٢٧هـ / ١٢٣٩م ، على الرغم من بقائها غير محصنة حسب اتفاقية يافا بين السلطان وفريدريك الثاني ، ويعود سبب عدم تحصينها الى الظروف السيئة التي كان يعيشها الصليبيون في تلك الفترة ، اما عن الاسباب التي دفعت الأيوبيين الى الركوب مع الصليبيين ، وعدم استعادة بيت المقدس ، فتعود بالدرجة الاولى الى الخلافات التي نشبت بين افراد الأسرة الأيوبية (١) ، والتي تعرضهم الى هجمات عدد من القوى على رأسها الخوارزمية . فقد هدد هؤلاء الخلافة العباسية في بغداد ، ثم هاجموا بعض المناطق التابعة للملاجقة والأيوبيين ، فاستولوا على خلاط فسى جمادى الاولى سنة ٦٢٧هـ / نيسان ابريل سنة ١٢٣٠م (٢) ، وقد اتهمت هجبة الخوارزمية حكام المسلمين في المنطقة ، فتناسوا خصوماتهم وصلوا يد واحدة للقضاء عليهم . فقد تحالف الأيوبيون مع سلاجقة الروم وصلوا معا على استرداد خلاط (٣) ، ولم يلبث سلطان الخوارزمية أن قتل وتمزقت دولته على يد المغول ، الذين أصبح خطرهم قاب قوسين أو أدنى من املاك الأيوبيين في الجزيرة (٤) . كما تعرض الأيوبيون لخطر جيوشهم سلاجقة الروم ، أحلافهم بالأمس ، الذين طمعوا بملكية خلاط والرها وحران .

وعلى الرغم من هذه الظروف السيئة التي كانت تحيط بالأيوبيين ، والتي يمكن تلخيصها بالتعزق الداخلي ، والآفة المتربصين بهم على الحدود .

- ١ - انظر فيما سبق
- ٢ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٤٨٧-٤٨٨ - الذهبي :
- ٣ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ١٣٣
- ٤ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ، ص ٤٤٥ - ٥٠٤

فان الناصر داود نهض في سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م لتحرير بيت المقدس وساعده
في تحقيق هدفه الامور الاتية :

- رغبته الكاملة في تحرير بيت المقدس

- وفاة عمه السلطان الكامل محمد الذي سلم بيت المقدس لقمة سائغة

للسليبيين *

- قيام السليبيين بتعزيز وجودهم في المدينة المقدسة ، مخالفين بذلك

بنود اتفاقية يافا ، فأعادوا بناء بعض أسوار القدس ثم عمروا في غربيه

قلعة جعلوا برج داود من أبراجها (١) ، وشحنوها بالجند والعتاد *

حشد الناصر داود قواته ، وسار باتجاه القدس مستغلا انشغال

السليبيين بالاحتفال في يوم عيد عم الأكبر * وكان قدوم الناصر داود بجيشه

مفاجأة للسليبيين الذين لم يكونوا يتوقعون هذا الهجوم ، سيما وان الخلاف

والانقسام بين الأيوبيين كان على أشده * فحاصر الناصر داود بيت المقدس ،

بعد ان نظم قواته ، وقسمها الى فرق ، ووضع كل فرقة في مكان اظه لها * ثم نازل

القلعة ونصب عليها المجانيق * واجتاحت قوات الناصر داود القدس فسي

جمادى الأولى من السنة المذكورة ، كانون الأول ديسمبر ١٢٣٩م ، وظهر ومن

الفرنج (٢) * ثم استسلم حماة القلعة بعد حصار سبعة وعشرين يوما ، وسمح

للفرنج بمغادرة القدس (٣) *

بقي بيت المقدس في يد الناصر داود حتى سلمه الصالح اسماعيل صاحب

دمشق ثانية للسليبيين ، مقابل مساعدتهم له عسكريا ضد ابن اخيه الصالح

١ - البيهقي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٤١ - ابن واصل : المصدر السابق
جزء ٥ ، ص ٢٤٦

٢ - هاملتون جب : صلاح الدين الأيوبي ، ترجمة يوسف ابيش ، بيروت ١٩٧٣م
ص ٢٢٢

٣ - يوسف د رويش غوانمه : اضواء جديدة على الملك الناصر داود وتحرير بيت
المقدس : مقال في مجلة دراسات تاريخية ص ١٠٢ - ١٠٣

نجم الدين أيوب صاحب مصر (١) ، ثم عمل الصالح أيوب بمساعدة جنوده من الخوارزمية على استعادته في سنة ٦٤١هـ / تموز يوليو سنة ١٢٤٤م .

ب - الصالح أيوب والخوارزمية

كان الصالح أيوب قد حالف الخوارزمية منذ كان في شمال بلاد الشام في سنجار للوقوف امام اعدائه من جيوانه . وكان جنود الخوارزمية قد شردوا من المغول بعد ان قضوا على دولتهم ، فتقدموا يعرضون خدماتهم الحربية على كل من يريد لها من ملوك الدول الاسلامية المجاورة (٢) . فضم الصالح أيوب بعض هؤلاء اليه ، يشكل منهم فرقة كبيرة استعان بها لمجاهدة تحالف الأيوبيين مع الصليبيين ضده ، وكانوا سببا في الانتصار الذي حققه على هذا الحلف في معركة غزة . كما ساعد هؤلاء الصالح أيوب في استعادة بعض المدن على ساحل فلسطين ، اضافة الى طبرية و نابلس و بيت المقدس .

كان الخوارزمية يأملون أن يكافئهم الصالح أيوب بالسماح لهم بالاستقرار في مصر ، فخاب أملهم فانقلبوا ضده ، فسار اليهم وقاتلهم وانتصر عليهم . ثم استغل وجوده في بلاد الشام ، فدخل مدينة دمشق ، كما فتح مدينة عسقلان (٣) .

وعكذا تمكن الصالح أيوب من ان يعمل على تقليص الأراضي التابعة للصليبيين حتى أبواب يافا ، كما عمل على توحيد الدولة الأيوبية ثانية تحت سلطته حتى مدينة دمشق مع بيت المقدس . وأذن له كافة ملوك الأيوبيين في الشام بالطاعة .

١ - ابن واصل : المصدر السابق ، جز ٥ ص ٣٣٣

٢ - الشيال : المرجع السابق ص ١٢١

٣ - عاشور : مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ١٠٤

ح - الحملة الصليبية السابعة

أدى استرداد بيت المقدس على يد الناصر دأود ، ومن ثم على يد الصالح أيوب إلى قدوم حملة صليبية سابعة ، بزعامة لويس التاسع ملك فرنسا المعروف بالقديس لورعه وتقراء ، وقد أراد أن يسبع على حملته صفة دينية ، فارتدى ثياب الحجاج السوداء ، واقتدى به القادة والجنود ، وقد أبحر هذا الجيش من فرنسا في ٤ جمادى الأولى سنة ٦٤٦هـ / أواخر آب أغسطس سنة ١٢٤٨م على ألف وثمانمائة سفينة تحمل ثمانين ألف مقاتل مع عدهم وسلاحهم إلى جزيرة قبرص حيث حصل على الراحة والمؤونة والمساعدات البشرية (١) .

أتاح تأخر لويس التاسع في قبرص الفرصة للصالح أيوب للاستعداد ، وحين وصل لويس إلى دمياط وجدها مدينة محصنة تحصينا جيدا ، وأمامها الجيش الأيوبي ، يحول دون نزول القوات الصليبية إلى البر ، فارتأى لويس التاسع أن يترك مدينة دمياط ، وينزل على الضفة الغربية للنيل المواجهة لدمياط في جمادى الأولى سنة ٦٤٧هـ / حزيران يونيو ١٢٤٩م ، وتصدى الجيش الأيوبي للصليبيين ، ودارت معركة على رمال الشاطئ بين الفريقين انتصر فيها الصليبيون .

استولى الخوف على أهل دمياط ، فتركوا مدینتهم هارين بعمد أن أشعلوا النار في سوقها ، دون أن يقطعوا الجسر الذي يربط دمياط بالضفة الغربية للنيل ، فدخلتها جيوش لويس التاسع في ٦ حزيران ١٢٤٩م دون قتال ، واستولوا على ما فيها من أسلحة وآلات حربية ، وعملوا على تحويلها إلى مدينة فرنجية . وبقي لويس التاسع خمسة أشهر فيها ، ففسح بذلك المجال للجيش الأيوبي ، لكي يعيد تنظيم نفسه ، على الرغم من مرض الصالح أيوب .

شجرالدردور و توران شاه و متابعة قتال الصليبيين

زحف الفرنج باتجاه القاهرة على الضفة الشرقية للنيل في شوال ٦٤٧ هـ / ٢٠ تشرين الثاني ١٢٤٩ م . وفي تلك الفترة الحرجة من تاريخ مصر ، تونسسي السلطان الصالح أيوب ، فقامت امراته شجرالدردور بارز . فقد أخفت خبر وفاة زوجها ، وأخرجت الكتب والمراسيم باسم السلطان . كما أخذت البيعة من المماليك لتوران شاه بن الصالح أيوب المقيم في حصن كيفا ، وأرسلت لا حضاره .

أقامت الجيوش الأيوبية في المنصورة عند التقاء فرع دمياط ببحر اشمووم ، وأخذت في ضرب الصليبيين بهجمات سريعة في عدة أماكن ، حتى وصل الجيش الصليبي الى بحر اشمووم ، فوجد نفسه في مكان حصين محصوراً ومحاط بالنيل من طرفين . وارتكب الجيش الصليبي خطأ أدى الى هزيمته ، ان عبرت قواتهم الى المنصورة ، فحمل المسلمون عليهم وهزموهم ، واستعد الجيش الأيوبي لقتال بقية الجيش الصليبي الذي اجتاز النيل ، وانقطعت بذلك طرق مواصلاته الى دمياط . فأخذ لويس يفاوض توران شاه على تسليمه دمياط ، مقابل بيت المقدس ، ورفض لعلمه بسوء احوال الصليبيين . ودارت بين المسلمين والصليبيين المتراجعين باتجاه دمياط معركة أدت الى وقوع الجيش الصليبي بأجمعه قريبا بين قتل وأسرى . وكان لويس التاسع نفسه بينهم حيث سجن في المنصورة . وجرت مفاوضات بين الطرفين كانت لصالح الأيوبيين وعقد على اثرها معاهدة كان من شروطها أن يدفع الصليبيون للأيوبيين مبالغ ضخمة من المال مقابل فداء الجيش الفرنسي ، وأن يدعوا دمياط فداء لملكهم لويس التاسع . وأن يكون هناك صلح مدته عشر سنوات .

على أن توران شاه ماليت أن قتل قبل أن يتم تنفيذ الاتفاقية
السابقة مع الصليبيين ، وأدى هذا الى سقوط الدولة الأيوبية في مصر ،
وقيام دولة المماليك في ٢٩ محرم سنة ٦٤٨هـ / ٤ مايس مايو ١٢٥٠م .

الفصل السابع

دور الزنكيين والأبويين الحضاري

١ - الحياة العلمية والفكرية

- أسباب بناء المدارس

- المؤسسات التعليمية

أ - المدارس

ب - المساجد

ج - الأربطة والخوانق

- التدريس

- أعضاء الهيئة التعليمية

أ - المدرسون

ب - المعيدون

ج - الطلاب

- ثقافة العصر العامة

- المدارس المحدثة في عهد الدولة الزنكية والأبوية

٢ - الحياة الاقتصادية

- الزراعة

- الصناعة

- التجارة

- النقود

٣ - الحياة الاجتماعية

٤ - الجيش البرى والبحرى

- الجيش البرى

أ - فى عهد الوتكيين

ب - فى عهد الأيوبيين

- الجيش البحرى



الفصل السابع
دور الزنكيين والأيوبيين الحضاري
في تاريخ بلاد الشام ومصر والتاريخ العربي الاسلامي

الحياة العلمية والفكرية

أسباب بناء المدارس :

اهتم الزنكيون ومن ثم الأيوبيون بالعلم والعلماء ، ونهضوا بفتح المدارس حتى زاد عددها في تلك الفترة زيادة تلت النظر في بلاد الشام أولا ثم في مصر والشام ثانيا . وقد عجب ابن جبير الذي زار بلاد الشام في سنة ٥٨٠ هـ / ١١٨٤م من نهضتها العلمية وسر لكثرة دور العلم والمساجد فيها ، وفضلها في هذا المجال على بلاد المشرق عامة ، ونصح نشأة المغرب بالتغريب في طلب العلم ، ودخول بلاد الشام للنهول من علومها ومعارفها ، حيث يجدون الأمور المعينات . كما قرر أن الغرباء من طلبة العلوم فيها لا يدخلون تحت حضر^(١)

ومما لا شك فيه أن ازدياد عدد المدارس كانت له أسباب قوية أهمها :

- ١ - كان بناء المدارس في العهد الزنكي ضمن اطار حركة الحياة السني ، ولدع هذا المذهب في وجه العقائد الفاطمية والباطنية عموما ، والتي كانت لها السيطرة في المنطقة قبل دخولها تحت طاقة السلاجقة والزنكيين ثم الأيوبيين . واهتم بنوزنكي بنشر المذهب السني عامة والحنفي خاصة (٢) . وتتضح غاية نورالدين من فتحه للمدارس حيين

١ - ابن جبير : رحلته ، ص ٢٠٠

٢ - يذكر ابن كثير : البداية والنهاية ، جز ٢ ص ٢٧٨ أن نورالدين كان حنفي المذهب وفقهيا - نعمت اسماعيل غلام : فنون الشرق الأوسط في العصور الاسلامية ، دار المعارف بصر ، ص ١٢٦

نعلم ما قاله لجماعة من العلماء اجتمع بهم : (نحن ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم ودحض البدع من هذه البلدة ، واطهار الدين) (١) . كما شجع الأيوبيون بناء المدارس لنفس الغرض (٢) . فقد كان بناء صلا الدين للمدارس ضمن خطة موضوعة لهدم المذهب الشيعي ، وطريقة مرسومة للقضاء على الأفكار التي أتت بها الفاطميين الاسماعيلية (٣) .

٢ - الاهتمام الكبير الذي حظي به العلماء والمدرسون . فقد وفر لهم نور الدين ومن بعده ، صلاح الدين والأيوبيين عموماً سبيل الرعاية والتشجيع ، كما وفروا لهم الدخول الكبير والمساكن حتى يتفرغوا للعلم ونشره (٤) . ومن شدة اهتمام نور الدين بالعلم ، فإنه كان يعمل على انتقاء المدرسين بنفسه ، ويستقدمهم من أماكن بعيدة ، ويفتح المدارس الكثيرة من أجلهم . وكان يكفي وجود عالم من العلماء في مدة من السواد كدافع لبناء مدرسة ليقوم بالتدريس فيها ، فقد بنى نور الدين مدرسة لشرف الدين بن أبي عمرو في دمشق ، وفوض إليه التدريس فيها ، وسمح له بأبي يوليها من شاء . وبنى لقطب الدين النيسابوري مدرسة لم يتمها (٥) .

-
- ١ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٣
 - ٢ - نعمت اسماعيل غلام : المرجع السابق ، ص ١٣٦
 - ٣ - عمر رضا كحالة : دراسات اجتماعية في العصور الاسلامية ، ص ٩٣
 - ٤ - عبد الغني محمود عبد العاطي : التعليم في مصر زمن الأيوبيين و الماليك ، رسالة ماجستير ، ص ٦٦
 - ٥ - كحالة : المرجع السابق ، ص ٩٩

- ٣ - كانت العناية من بناء المدارس وسيلة لتخريج موظفين واساتذة متعلمين بالمذهب السني ، كما يتولوا الوظائف الحكومية (١) .
- ٤ - همه كل من نور الدين وصلاح الدين العالية في نشر الأمن والوقوف بحزم أمام الأعداء . فوثق الناس بحكامهم في الحفاظ على حياتهم وانصرفوا للنهول من العلم . ولنا فيما كتبه ابوشامة اكبر دليل على ذلك . فقد تحدث عن نور الدين فقال : (فأما فكره ففي اظهار شعار الاسلام وتأسيس قاعدة الدين من بناء المدارس والربط والمساجد ، حتى ان بلاد الشام كانت خالية من العلم وأهله ، وفي زمانه صارت مقرالعلماء والفقهاء والصوفية ، لصرف عنته الى بناء المدارس والربط وترتيب امورهم والناس آمنون على أموالهم وأبدانهم) (٢) .
- ٥ - كانت المدارس تدرس العلوم الدينية ، لذلك قصد السلاطين والأمرء والأغنياء من تأسيسها التقرب إلى الله وكسب الثواب .

المؤسسات التعليمية :

تتوزع أماكن التعليم في ذلك العهد في مصر وتتعدد في المدارس والمساجد والخوانق والربط كلها أماكن لتلقي القرآن والعلوم الدينية وطوم اللغة العربية وغيرها .

١ - المدارس

كانت المدارس على نوعين ، أحدها كان في أصله منزل ، ولذلك لا يطابع خالص له . والاخر بني خصيصا للتدريس . وكانت المدرسة في العصر

- ١ - باقوت الحصري : معجم الأديب ، جزء ٥ ، ص ٤١ - شلبي : تاريخ القريضة الإسلامية ، ص ١٩٥ - ١٩٦ : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٤
- ٢ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٤
- انظر امين بيطار : التعليم في دمشق في القرن السادس الهجري ، مجلة ابن صاكر في ذكر مرور تسميات منطوق ولا دته بوزارة التعليم العالي في دمشق ١٧٩٦ م ، ص ٢٣٧ - ٢٣٨

٣ - كانت الغاية من بناء المدارس تخريج موظفين واساتذة متعمقين بالمذهب السني ، كما يتولوا الوظائف الحكومية (١) .

٤ - همة كل من نور الدين وصالح الدين العالية في نشر الأمن والوقوف بحزم أمام الأعداء . فوثق الناس بحكامهم في الحفاظ على حياتهم ، وانصرفوا للنهمل من العلم . ولنا فيما كتبه ابوشامة اكبر دليل على ذلك . فقد تحدث عن نور الدين فقال : (فأما فكره ففي اظهار شعار الاسلام وتأسيس قاعدة الدين من بناء المدارس والربط والمساجد ، حتى ان بلاد الشام كانت خالية من العلم وأهله ، وفي زمانه صارت مقرا للعلماء والفقهاء والصوفية ، لصرف همته الى بناء المدارس والربط وترتيب امورهم والناس انتمون على أموالهم وأنفسهم) (٢) .

٥ - كانت المدارس تدرس العلوم الدينية ، لذلك قصد السلاطين والأمراء والأغنياء من تأسيسها التقرب الى الله وكسب الثواب .

المؤسسات التعليمية :

تنوعت أماكن التعليم في ذلك العصر وتعددت فالتدريس والمساجد والخوانق والربط كلها أماكن لتلقي القرآن والعلوم الدينية وعلوم اللغة العربية وغيرها .

أ- المدارس

كانت المدارس على نوعين ، احدها كان في أصله منزل ، ولذلك لا طابع خاص له . والآخر بني خصيصا للتدريس . وكانت المدرسة في العصر النوروي

١ - باقوت الحموي : معجم الأديباء ، جزء ٥ ، ص ٤١٥ - شلبي : تاريخ التربية الاسلامية ، ص ١٩٥ - ١٩٦

٢ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ١٤
- انظر امينه بيطار : التعليم في دمشق في القرن السادس الهجري ، مجلة ابن عساكر في ذكرى مرور تسعمائة سنة على ولادته ، وزارة التعليم العالي دمشق ١٩٧٩ م ، ص ٢٣٧ - ٢٣٨

وأوائل الأيوبي ذات ايوان او ايوانين ، لتدريس مذهب فقهي أو مذهبيين .
ثم ظهر بعد ذلك الطراز والايوانات الأربعة . وكانت المدرسة ذات
الايوانات الأربعة مستطيلة البناء يتوسطها فناء كبير مربع ، يتوسط كل جانب
من جوانبه الأربعة ايوان كبير يدرس بكل منها فقه امام من الأئمة (١) .

وهناك وصف لمدرسة نورالدين زنكي لابن جبير الذي قال : (ومن
أحسن مدارس الدنيا منظرا مدرسة نورالدين رحمه الله وبها قبره . وهي
قصر من القصور الأنيقة ، ينصب فيها الماء في شانروان وسط نهر عظيم ،
ثم يمتد الماء في ساقية مستطيلة الى أن يقع في صهريج كبير وسط الدار ،
فتحار الأبصار في حسن ذلك المنظر (٢) .

كانت المدارس التي تدرس الفقه اكبر المدارس ، بل هي أشبه بالجامعات
لانها معاهد للتعليم العالي ، تختص في تدريس مذهب من المذاهب الأربعة .
وقد يدرس في مدرسة أكثر من مذهب واحد . ففي عهد نورالدين كان الاهتمام
بتدريس المذهب الحنفي ، وفي عهد صلاح الدين أصبح الاهتمام بتدريس
المذهب الشافعي . ويمكن القول بأن غالبية المدارس في تلك الفترة كانت
توقف لتدريس الفقه الشافعي أو الفقه الحنفي ، أو تكون مشتركة بين الشافعية
والحنفية . وهناك مدارس أقل عددا للحنابلة ، وتكاد تنعدم مدارس المالكية .

لم تكن المدرسة للتدريس فقط ، بل كانت مكانا لدفن واقفيها في
الغالب ، كما كانت مسجدا أو كان يلحق بها مسجد تودى فيه الصلاة .
فمدرسة الكلاسة مثلا كان يلحق بها مسجد وغيرها كثير (٣) . كما كان يلحق

١ - نعمت اسماعيل : المرجع السابق ، ص ١٣٧

٢ - ابن جبير : المصدر السابق ، ص ١٩٨

٣ - النعماني : الدارس في تاريخ المدارس : جز ١ ، ص ٤٤٨ - عهد البساط
العلمي : مختصر تنبيه الطالب وأرشاد الدارس ، تحقيق صلاح الدين
المنجد ١٩٤٧ ص ٧١

بالمدرسة سكن للمدرس . فقد ألحق بدار الحديث الاشرافية دار للشيخ
المدرس فيها (١) . كما قطن الفخر بن عساكر بمدرسة الجاروخية (٢) .

كان يلحق بالمدرسة مكتبة عامرة بالكتب النفيسة يستخدمها الطلاب
والأساتذة . وكانت الكتب مرتبة البيوت مقسمة الرفوف ، مجهزة لسهولة
الوصول اليها على أدق وأفضل طرق تنظيم المكتبات في عصورنا (٣) . وكانت
الكتب توقف على اشخاص بعينهم أو تودع في المدارس والزوايا للصالحين
العام . فقد وقف نورالدين كلبا كثيرة على أخذ العلم (٤) . والى جانب
المكتبات العامة ، فقد كان هناك مكتبات خاصة لها قيمتها العلمية . فقد
كتب القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني العسقلاني تتألف من مائة الف
مجلدة (٥) ولم تقتصر المكتبات في عهد الأسترتين على المدارس ، بل
ألحقت بالجوامع مكتبات كبيرة ، فضلا عن المكتبات الخاصة . فقد ألحقت
صلاح الدين بمدرسته الصلاحية مكتبة كبيرة ، وألحق بكل مدرسة أنشأها
مكتبة أصغر . اما عن ما فعله صلاح الدين بمكتبة القصر الفاطمية ، فلا بد من
ذكر أنه فعل ذلك في وقت كان يعمل فيه على محاربة الفاطميين وهدبهم .
وكانت المكتبة تضم كتب كثيرة في المذهب الشيعي ، وكتب في التنجيس
والغيبيات (٦) . وقد نقلت الكتب الأخرى الى مكتبات خاصة كمكتبة العماد
الأصفهاني وغيره (٧) .

- ١ - النعمي : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ١٩
- ٢ - النعمي : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٨٣
- ٣ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٦٨
- ٤ - النعمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٦٠٨
- ٥ - النعمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٦٢
- ٦ - الشبال : المرجع السابق ، ص ٤٩
- ٧ - انظر بيطار : التعليم في دمشق في القرن السادس الهجري ، ص ٢٧٢-٢٧٣

كان لكل مكتبة عدد من الموظفين يقومون بتنظيم الكتب ورعايتهم—
والمحافظة عليها • فضلا عن خدمة المترددين عليها من طلاب العليم •
وأهم هؤلاء • الموظفين الخازن (الأمين) والساح والمجلدون والمناولون •
كما كان لكل مدرسة وقف خاص بها يصرف ريعه على الناظر والمدربين
والفقهاء والطلاب وغيرهم • وليس من الضروري أن يكون الوقف المخصص
للمدرسة موقوفا من قبل واقف المدرسة بعينه • فقد يوقف الأوقاف لمدرسة
من المدارس أشخاص غير الذين بنوها • فإذا كان لها وقف سابق توسع
وقفها • وإذا لم يكن لها يصبح لها أوقاف تساعد على بقاء واستمرار نشاطها
التعليمي (١) • وخير الأمثلة على أوقاف هذه الفترة وطريقة صرفها وقف
المدرسة الشامية الجوانية (٢) ، ووقف المدرسة العمادية • ومن هذين
الوقفين يتضح أنه ليس من الضروري أن تكون جميع الأوقاف أراضي زراعية •
فقد أوقف صلاح الدين على مدرسته الصلاحية حماما بجوارها وفرنًا وحوانيت ،
فضلا عن جزيرة الفيل بالهيل خارج القاهرة (٣) •

وهكذا كان للمدارس ميزانيات ثابتة تضمن للمعلمين والمتعلمين فيها
مستوى كريم من العيش يجعلهم ينصرفون إلى طلب العلم بغفوس راضية—
مطمئنة • وباعتبار أن أوقاف كل مدرسة تختلف عن الأخرى ، يمكن القول أن
المستويات المادية بين المدرسين كانت مختلفة باختلاف سعة وقف المدرسة •
يضاف إلى ذلك أنه في حال كون الوقف زراعيًا ، فإن إنتاج الوقف يتأثر
بالأحوال المناخية والافات الزراعية ، لذلك قد تمر بعض السنوات على
المدرسين ، تكون حالتهم فيها سيئة •

١ - النعمي : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٧٨-٧٩

٢ - النعمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٣٠١-٣٠٢-٣٠٣

٣ - المقرئ الخطط ، جزء ٤٠ ، ص ١٢٥

ب - المساجد

لم يقتصر التعليم في هذا العصر، على المدارس، فقد كان يتم أيضا في المساجد تعليم العلوم الدينية والعربية غالبا، والاجتماعية والعقلية نادرا. وتتميز التعليم في المساجد بالحرية المطلقة بالنسبة للمدرسين والطلبة فسي اختيار المناهج (١) . وخير مثال على التعليم في المساجد الحديث عما كان يجري في هذا المجال في المسجد الأموي .

حظيت زوايا المسجد الأموي ومدارسه في العصر الأيوبي باهتمام وعتاية الكثيرين ، ووقفت لكل منها الأوقاف الكثيرة . ونال المدرسون بها اجرا واسعا ، والحق بمدارسه مساكن للطلبة والأساتذة . وقد تراكمت لهم بطوطة وصفا للتدريس في المسجد في كافة حلقاته فقال : وللمسجد الأموي حلقات للتدريس في فنون العلم ، والمحدثون يقرؤون كتب الحديث ، على كراسي مرتفعة ، وقرأ القرآن يقرؤون بالأصوات الحسنة صباحا ومساء ، وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله (٢) .

ومن أشهر الزوايا التي ريسية فيه زاوية المالكية ، وقفها نورالدین للمغاربة الغربية ، ووقف لها أوقافا كثيرة . ودار الحديث الفاضلية ، ودار الحديث العمومية ، والمدرسات التاجية ، والمدرسات الغزالية ، والمدرسات القوصية (٣) .

-
- ١ - عبد العاطي : المرجع السابق ص ١٧٠
 - ٢ - ابن بطوطة : المصدر السابق ، جزء ١٠ ص ١٠٨
 - ٣ - النعماني : المصدر السابق ، جزء ١ ص ٨٩ - ٩٠ و ص ٨٦ و ص ٤٨٣ - ٤٨٤ و ص ٤١٣ - ٤١٤ و ص ٤٣٨ و ص ٤١٩ و ص ٤١٥ - ٤١٦ ابن جبیر : رحلته ، ص ١٩٢ - ١٨٧ - محمد كرد علي : المرجع السابق ، جزء ١ ص ٩٣

ح الأريطة والخواق :

الخانقة بيت الصوفية ومد رستهم ، وكذلك الرباط . إلا أنه بنى أصلا بغاية المراقبة للجهاد . كان تعليم الصوفية على قسمين ، قسم اجباري غالبا مما يتعلق بالأمر الدينية واللغة العربية ، وهي العلوم التي يترتب على الصوفي الاشتغال بها ، ويلزم بحضور دروسها . وآخر اختياري يختاره الصوفي بحسب قابلياته واستعداده (١) .

- التدريس :

لم تكن هناك طرق معينة للتدريس في المدارس يتقيد بها المدرس ويسير بحسبها ، بل كان يدرس بالطريقة التي يراها مناسبة لطلبته ، مع التقيد فقط بشروط الواقف من حيث المذهب والمواد المقررة . وكان المدرس يحسن القاؤه وحرصا على سمعتها العلمية ويدافع ذاتي . ويجعل مستوى المادة التي يعطيها متناسبا مع مستوى الطلاب . فلا يلقي عليهم ما لا يناسبهم من المشكلات ، بل كان يدربهم ويأخذهم بالأسهل فالأسهل ، إلى أن ينتهوا إلى درجة التحقيق (٢) .

لم تكن أيام الدراسة المقررة واحدة في كل المدارس . فقد كانت تتراوح بين ثلاثة أيام وخمسة من كل اسبوع حسب شروط الواقف ، كما لم تكن مواعيد الدراسة محددة تحديدا دقيقا . إذ لم تكن مواعيد بداية ونهاية اليوم الدراسي واضحة . وكانت الدراسة عموما فيما بين طلوع الشمس وأذان العصر (٣) . كما اختلفت العطل الدراسية السنوية من مدرسة لأخرى . وكانت المدارس عادة تعطل في شهر شعبان ورمضان وعشر من شوال وعشر من ذي الحجة ، وأيام الأعياد والتشريق ، ويوم تاسوعا وعاشورا من كل سنة ، تزيد عن هذا

١ - عبد العاطي : المرجع السابق ، ص ١٩٧

٢ - السبكي : المصدر السابق ، ص ١٠٥

٣ - عبد العتي عبد العاطي : المرجع السابق ، ص ٢٤٦-٢٤٧

المقدر قليلا أو تكثر عنه . كما كان عناء اجازة عارضة ، وأخرى مرضية (١) .
- اعضاء الهيئة التعليمية :

أ - المدرسون : يقف المدرس على رأس هيئة التدريس ويشترط فيه العلم التام بمادته ، وحسن الديانة ، والورع والتقوى ، كما أن المدرس في مدرسة من المدارس كأنه جزء منها . يتم تعيينه من قبل واقف المدرسة . ولا يمكن أن يحل فيها مدرس جديد عوضا عنه ، إلا اذا تنازل المدرس لسابق له (٢) . أما كليا أو جزئيا . كأن يتنازل عن ثلث التدريس أو نصفه مجانا أو مقابل تعويض (٣) ، إلا في أحوال استثنائية .

نال المدرسون مكانة كبيرة في هذا العصر لم يرق إليها غيرهم حتى أصحاب المراكز السياسية والعسكرية ، وأصحاب النفوذ المادي (٤) . كما كان رجال العلم يوجهون النقد اللاذع للمجالس العلمية التي يعقدتها السلطان . فقد وجه ابن عساكر النقد لمجلس صلاح الدين وشبهه بمجلس السوق ، ورفض حضوره ، حتى أمر صلاح الدين أصحابه أن لا يكون منهم ما جرت به عادتهم اذا حضر الحافظ (٥) . كما كان العلماء سفراء الملوك والأمراء الى الخلفاء وأولي الأمر . وكثيرا ما توسطوا في فض الخلاف بين الأمراء (٦) .

- ١ - عبد الغني عبد العاطي : المرجع السابق ، ص ٢٤٨ - ٢٤٩
- ٢ - النعمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٥٣٧
- ٣ - النعمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٣٩٥ - ٣٩٦
- ٤ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٠٠ - ابن كثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ، ص ٢٨١
- ٥ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٠٠
- ٦ - ابن كثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ، ص ٢٧

وتقديرا للمدرس وثقة به وبأمانته فقد كان يسمح له بعدم القاء الدرس اذا لم يكن عنده الاستعداد النفسي أو الجسدي أو العقلي (١) .

درج المدرسون على منح طلابهم الاجازات فوهي اكثر من نوع . وبهضمنا ان نتحدث عن الاجازات العلمية التي ينالها الطالب بعد ان يشـعر استاذ به بمقدرته وكفاءته . وبعد ان يعرضه لاسئلة متعددة ومتنوعة في كتاب بعينه أمام جمهور الناس من أهل الفضل والعلم (٢) فاذا استطاع الطالب الإجابة على كل الأسئلة التي تطرح عليه ينال الاجازة من المدرس لا من المدرسة . يكتبها له الأستاذ ويقومها . وقد ينال الطالب أكثر من اجازة . وكلما زاد عدد اجازاته زادت مكانته العلمية (٣) .

ب - المعيدون : يعتبر المعيد من أعضاء الهيئة التدريسية وهو المدرس الثاني للطالب يعيد الدرس على الطلاب ويتوقف لشرح النقاط أو المشاكل التي يتم فهمها من الأستاذ . ويكون اشتراك المعيد في التدريس مع أستاذه بداية لترويجه الى رتبة مدرس (٤) على ان يرحل في طلب العلم (٥)

ج - الطلاب : ويطلق عليهم اسم فقهاء المدارس . ولم يكن يشترط من معينة لقبول الطالب في المدرسة . ولكن بعض الواقفين وضعوا شروطا فحواها ان تتوفر في طلبة مدارسهم قابلية التعليم واتصافهم بالفطنة والذكاء (٦) . ويتدرج الطالب في مراحل تعلمه حتى يصبح فقيها منتهيا .

-
- ١ - ابن جماعة : تذكرة السامع ، ص ١٨٧
 - ٢ - عبد الغني عبد العاطي : المرجع السابق ، ص ٢٦٥
 - ٣ - النعمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٠٢ ، و ص ٢٨٢ - ٢٨٣
 - ٤ - القلقشندي : صبح الأعين في صناعة الانشاء ، جزء ٥ ، ص ٤٦٤ - عبد الغني عبد العاطي : المرجع السابق ، ص ٢٢٥ - كحالة : المرجع السابق ، ص ١٠١
 - ٥ - النعمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٠٣
 - ٦ - السبكي : المصدر السابق ، ص ١٠٥ - ١٠٧

ويختص بعلم من العلوم يوشه .

لم يكن الرجال وحدهم الذين يتلقون التعليم ، فقد نالت المرأة حظاً في العمل التعليمي ، وإن لم تتسلم وظيفة التدريس في مدارس ، ولعب بعض النساء دوراً لا يقل أهمية عما قام به الكثير من العلماء والفقهاء ، وتتلذذ على أيديهن الكثير من الطلبة . فقد ذكر الحافظ أبو القاسم بين عداكر ان جملة شيوخه ألف وثلاثمائة شيخ ونيف وثمانون امرأة (١) .

ثقافة العصر العامة :

أبرز سمات الثقافة في هذا العصر ، الاهتمام بالثقافة الدينية من علوم القرآن الكريم والحديث الشريف والفقهاء الاسلامي ، وعناك الى جانب العلوم الدينية ، العلوم اللغوية ، والعلوم التاريخية والاجتماعية ، وعلم الطب ، وعلوم أخرى متفرقة .

أما العلوم العقلية والفلسفية ، فلم يتح لها الانتشار لموقف الأيوبيين منها . ولا يعني هذا أن العصر خلا من كل علم في هذا المجال ، بل ان الحلقات العلمية لم تتناول هذه المواضيع ، على حين انعزل الفلاسفة وصنفوا آثارهم في الكتمان وأخفوها عن العوام ، واطلعوا عليها الخاصة من اصد قائلهم خوفاً على حياتهم (٢) .

المدارس المحدثة في عهد الدولة الزنكية والأيوبية :

اصبحت الشام في عهد نور الدين مقراً للعلماء والفقهاء والصوفية

١ - محمد كرد علي : خطط الشام ، جز ٢ ، ص ٧٥

٢ - النعماني : المصدر السابق ، جز ١ ، ص ٣٣٢ و ص ٤١٠ - ٤١١ - كحالة : المرجع السابق ص ٩٦

وانتشرت فيها المدارس . فقد بنى في حلب المدرسة الحلوية (١) والمدرسة
العصرونية (٢) التي استديع لها من سنجار شرف الدين بن أبي عمرو وهو
من أعيان فقهاء عصره ، كما بنى فيها المدرسة النورية (٣) والمدرسة الشيعية (٤)
كما زخرت مدينة دمشق بالمدارس مثل المدرسة النورية الكبرى (٥) و
المدرسة الصلاحية (٦) والعمادية (٧) والكلاسة (٨) ، ودار الحديث
النورية (٩) . كما بنى مدرستان في حماه ، ومدرستان في حصص ، ووحدانية نسي
بعلباك (١٠) . ويمكن القول ان عدد المدارس كانت قبل عهد نورالدين
ست عشرة مدرسة في الشام ، ارتفع عددها في عهد السلطان وخمسين ، أي
بلغ عدد المدارس المنشأة في عهد واحد اثنتين وأربعين مدرسة ، كان
نصفها من بنائه شخصيا .

اهتم سلاطين الأيوبيين أيضا بالعلم والعلماء . فقد كان صلاح الدين
يجمع حوله رجال العلم ، ويحضر مجالسهم ليستمع إليهم ويشاركهم في أبحاثهم
وكان ابنه الملك العزيز عثمان عالما بالحديث والنحو (١٢) . أما السلطان

-
- ١ - الطباق : أعلام النبلاء ، جزء ٢ ، ص ٧١ - ابن الشحنة : الدرر المنتخبة
ص ١١٥
 - ٢ - أعلام النبلاء ، جزء ٢ ، ص ٧٥ - ابن الشحنة : الدرر المنتخبة ص ١١٠
 - ٣ - أعلام النبلاء ، جزء ٢ ، ص ٧٦ - ابن الشحنة : الدرر المنتخبة ص ١١١
 - ٤ - أعلام النبلاء ، جزء ٢ ، ص ٧٦
 - ٥ - النعماني : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٦٠٦
 - ٦ - النعماني : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٣٣١
 - ٧ - النعماني : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٤٠٧
 - ٨ - النعماني : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٤٤٧
 - ٩ - النعماني : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٩٩
 - ١٠ - النعماني : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٤٠١
 - ١١ - السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، جزء ٤ ، ص ٣٢٩
 - ١٢ - ابن خلكان : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٣١٥

الكامل ، فالحدِيث : عن علمه كثير ، فهو يحب أهل العلم ويؤثر مجالستهم ،
وعنده شغف بسماع الحدِيث ، النجوى • وكان يناظر العلماء وعنده مسائل
غريبة من فقه يمتحن بها • فمن أجاب عنها قدمه ، وحظي عنده • وكان يبيت
عنده بالقلعة جماعة من أهل العلم • • • ليسامروه (١) .

وقد برز عدد من العلماء من الأسرة الأيوبية غير من ذكر • وعلى رأسهم
المؤرخ المشهور أبو الفداء صاحب حياه المتوفى سنة ٧٣٢هـ / ١٣٣١م •
مؤلف كتاب المختصر في أخبار البشر • وكذلك بهرام شاه بن فرخنده
صاحب بعلبك المتوفى سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣١م ، وكان شاعرا أديبا ، والملك
الناصر بن الملك المعظم المؤيد الأيوبي صاحب اليمن المتوفى سنة ٧٢١هـ
/ ١٣٢١م • وكان من أهل العلم • واشتملت خزائنه على مائة ألف مجلد ،
والملك المعظم عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق المتوفى سنة ٦٢٤هـ
/ ١٢٢٧م • وكان راغبا في الأدب وأهله حتى أنه أعطى لكل من يحفظ
المفصل للزمخشري مائة دينار وخلعة (٢) .

وعلى حين نهض الزنكيون ببناء المدارس في بلاد الشام ، فإن الأيوبيين
قاموا بهذه المهمة في الشام ومصر في آن واحد • وقد جاء التوسع في إنشاء
المدارس في عهدهم كمنظر قوي لرتي الحياة الفكرية • وقد بدأ إصلاح الدين
بانشاء مدرستين في حياة الخليفة العاضد الفاطمي • فقد هدم دار المعونة
في سنة ٥٦٦هـ وهي الدار التي كانت تستخدم كسجن يسجن فيه من يسراد
سجنه ، وجعلها مدرسة للشافعية (٣) • عرفت بالناصرية • وقد رتب بها

١ - المقرئى : السلوك ، جز ١ ، ص ٢٥٨

٢ - عاشور : مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ، ص ١١٨

٣ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جز ١١ ، ص ٣٦٦

مدرسا يدرس الفقه على مذهب الشافعي ، وجعل فيها ميعيدن ، ورتب
للجميع الرواتب الشهرية • وأوقف لها الأوقاف الكثيرة (١) • وهي غيـر
الناصرية التي بنيت فيما بعد بالقرافة (٢) • كما بنى صلاح الدين المدرسة
القمحية ، وسميت بهذا الاسم نسبة الى القمح الذي كانت تحصل عليه من
الوقف الذي وقفه عليها صلاح الدين (٣) • وبعد سقوط الخلافة الفاطمية
بنى ثلاث مدارس أخرى • فصار عدد المدارس التي انشأها في القاهرة
وحدها خمس مدارس • كما بنى في بيت المقدس مدرسة عرفت بالمدرسة
الصلاحية (٤) • وأخرى في دمشق بنفس الاسم (٥) •

وقد حاكى سلاطين الأيوبيين بعد صلاح الدين وكبار رجال الدولة
والأغنياء كل من نور الدين وصلاح الدين • ويعدد لنا شلبي (٦) المدارس
التي بنيت في العصر الأيوبي ، ويجعلها احدى وستين مدرسة عدا مدارس
الطب •

ومن المميزات التي امتاز فيها الأيوبيون في اهتمامهم بالحركة العلمية ،
تسامحهم مع مخالفيهم في المذهب والدين • فقد كانت تفتح المدارس
للمذاهب الأربعة على الرغم من انهم شوافعة • وزاد تسامحهم عندما أصبح
بعضهم كالمعظم وابنه د اود احنافا • وقد تبع ذلك مسالمتهم للصليبيين ،
وحسن معاملتهم للمسيحيين شرقيين وغربيين ، وكذلك لليهود • وقد
بدوا أقل تشددا من الزنكيين والسلاجقة مع أتباع المذاهب الشيعية •
وقد يكون ذلك بسبب تغير الظروف الموضوعية حولهم • فقد زال سلطان

-
- ١ - الشيبان : المرجع السابق ، ص ٥١ - ٥٢
 - ٢ - المقرئى : الخطط ، جز ٢ ، ص ٤٠٠ ، ط القاهرة ١٢٧٠ - الشلبي :
 - المرجع السابق ص ١٢١
 - ٣ - عاشور ، المرجع السابق ص ١٢٠
 - ٤ - مجير الدين الحنبلي : الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، جز ٢ ، ص ٢٩٣
 - ٥ - النعمي : المصدر السابق ، جز ٢ ، ص ١٠
 - ٦ - المرجع السابق ص ١٢١ - ١٢٣

الفاطميين السياسي ، ولو حق دعواتهم ، فلم يعد هو* لا* يشكلون خطرا عليهم* . اما ما كان يجرى من خلافات مع أصحاب المذاهب الأخرى فسعرهم ، فمرد سياسي أكثر منه ديني* .

ويمكن القول في ختام هذا البحث ، ان هذا العصر كان عصر ثقافة دينية على الغالب ، وأن بلاد الشام تفوقت على مصر آنذاك لعدم قدرة الأخيرة على الملامة بين تراثها الماضي الفاطمي بطابعه المخالف والمباين للقيم والمثل والأهداف الجديدة* . وأصبحت بلاد الشام بذلك مركز الثقافة العربية الاسلامية ، تفاطر نحوها العلماء من سائر الأقطار نظرا للتشجيع الذي نالوه من الحكام ، ولتوفر المناصب العلمية في المدارس ، ولجودة واردها نسبيًا ، إضافة الى توافد الطلبة الذين يتوفر لهم التعليم والجرابة من واردات الأوقاف التي اوقفت على المدارس الكثيرة* .

٢ - الحياة الاقتصادية

- الزراعة :

انخفضت أهمية بلاد الشام في العصرين الزنكي والأيوبي من الناحية الزراعية* . فمعظم السهول الساحلية الخصبة كانت بيد الفاطميين ، وأما بقية المناطق فكانت تتعرض لهجمات صليبية بين حين وآخر مما أثر على إنتاجها الزراعي* . وعلى العموم فإن معلوماتنا عن اقتصاد بلاد الشام في هذه الفترة ضئيلة* . وربما كانت أكثر معلوماتنا عنها مستقاة من كتاب الأطلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة لابن شداد ، الذي يسجل لنا قوائم كاملة عن الضرائب في حلب وحران والرها ومنبج وسروج وبالس* . ومن كتاب الحسبة للشيزري* .

اشتغل غالبية أهل مصر بالزراعة ، التي اعتمدت في العصر الأيوبي على ري
الحياض . فكانت الأراضي الزراعية تقسم الى حياض كبيرة تغمر بمياه الفيضان
مدة كافية ، ثم تصرف تلك المياه لتبذر البذور . ولذلك فقد كانت أوضاع
البلاد الاقتصادية تحت رحمة فيضان النيل ، فإذا جاء مستوى الفيضان
طبيعيا ، تمكن الناس من زراعة الأرض في اطمئنان وكان نتائجها مرضيا .
وإذا حدث العكس ، فيعني ذلك ضعف المحصول وارتفاع أسعار الغلال
وحدوث المجاعات وانتشار الأوبئة (١) . ومن أشهرها في العصر الأيوبي
تلك التي حدثت في عهد السلطان المعادل الأيوبي ، في سنة ٥٩٦ هـ /
١٢٠٠م حسب رواية المقرئ (٢) ، وفي سنة ٥٩٧ هـ / ١٢٠١م حسب
رواية ابي المحاسن (٣) . وما يهم في هذا الأمر ان نوضح أن سبب المجاعة
يعود الى توقف النيل عن الزيادة ، حيث توقفت الزيادة عند اثني عشر ذراعاً
وأصابع . فوحف الناس من القرى باتجاه القاهرة ، كما فر كثيرون باتجاه
البلاد العربية المجاورة كالمغرب والحجاز واليمن والشام ، وتزقوا كل مزق .
وقد دفعتهم هذه المجاعة الى أكل لحوم صغار البشر (٤) .

وهكذا يبدو ان الاعتماد في الزراعة على فيضان النيل ، جعلت الناس
تحت رحمة الطبيعة ، وقد حاول الأيوبيون تنظيم الري ، فحفروا عددا كبيرا
من الترع والمصارف ، ووضعوا من الترتيب ما يكفل وصول مياه السرى الى
مساحات شاسعة من الأراضي . وعهد صلاح الدين الى الأمير قراقوش الأسدي
بالإشراف على عمارة القناطر والجسور (٥) . وكانت الجسور في ذلك

-
- ١ - عاشور : المرجع السابق ص ١٢٥
 - ٢ - المقرئ : اغاثة الأمة بكشف الغمة ، ص ٢٩
 - ٣ - ابوالمحاسن : المصدر السابق ، جز ٦ ، ص ١٧٣
 - ٤ - المقرئ : المصدر السابق ص ٢٩ - ابوالمحاسن : المصدر السابق ،
جز ١ ، ص ١٧٣
 - ٥ - المقرئ : الخطط ، جز ١ ، ص ١٥١

العصر على نوعين ، جسور سلطانية تستفيد منها سائر البلاد ، تعهدت الحكومة باقامتها والافتاق عليها ، وجسور خاصة بجهة معينة ، يعود نفعها على تلك الجهة لا غير . ولذلك كان على أهالي تلك الجهة من الفلاحين والمقطعين اقامتها والافتاق عليها (١) .

ساد النظام الاقطاعي في العصر الأيوبي ، واستقر في نهاية هذا العصر . فقد كان على المقطعين أن يؤدوا خدمات اقطاعية ، منها ما هو مالي مثل ضرائب الزكاة والجوالي وغيرها ، ومنها ما هو على شكل خدمات مدنية مثل رعاية شؤون الأمن في الاقطاع والعناية بالزراعة وصيانة الجسور . وهذا كله فضلا عن الواجبات الحربية (٢) .

وعلى الرغم من سيادة النظام الاقطاعي ، فان الفلاح كان محمي من استغلال السادة الاقطاعيين . فكان التوقيع الخاص بالاقطاع في ذلك العصر ، يأمر المقطع بضرورة الأمر بالمعروف واتباع العدل ، والمحافظة على الاقطاع ، وعمارته وحسن ادارته . اضافة الى حسن الجوار مع زملائه من المقطعين المجاورين له . كما اهتم الأيوبيون بالقضاء ، ليصل كل صاحب حق الى حقه ، ومنعوا اخذ الرشوة من الناس . وزيادة في حماية الفلاح حددت الدولة الاجارات والجبائيات التي يدفعها الفلاح لسيد الاقطاعي ، كما حددت من نفوذ وثروة السادة الاقطاعيين من ناحية اخرى (٣) .

وعلى الرغم من هذه الاجراءات التي قام بها سلاطين الأيوبيين لحماية

١ - عاشور : المرجع السابق ، ص ١٢٨ .

٢ - محمد ربيع حسنين : النظم المالية ، ص ٣٤ .

٣ - عاشور : المرجع السابق ، ص ١٢٨ .

الفلاحين ، فان قيام السلطان الكامل بالمشاركة في الأعمال الاقتصادية
كاستخراج المعادن واستثمار الغابات وزراعة قصب السكر أدى الى مصاعب
جمة بعد موت الكامل ، بسبب التدخل بين المشاريع الحكومية والخاصة ،
اضافة الى الاختلاس الذي قام به الموظفون عند تراخي الادارة وتغاضيها
عن الموظفين .

أشهر المزروعات القمح والشعير والفول والحمص والجلبان والعدس
والكتان والقرط والبصل والثوم والتربس والكمون والكرابية وقصب السكر
والبطيخ واللوبيا والسمنس والقطن واليانزجان والفجل والخس واللفت
والكرنب . وكذلك انتشرت زراعة الكروم والنخيل والفاكهة والأرز والذرة (١)
كما ربيت الأغنام والجاموس والبقر ، وترتب على اربابها دفع مبالغ معينة مقابل
استهلاكها للمراعي .

- الصناعة :

اهتم الأيوبيون باستخراج المعادن ، فاستخرجوا الزمرد من موضع
قرب قوص (٢) وحمل ما يتحصل منه الى الخزائن السلطانية . وكذلك
استخرج الشب من مواضع بصحراء الصعيد ، حيث تولى الديوان السلطاني
استخراجه وبيعه دون سواء . وكان اهتمام الديوان به لكونه من المواد التي
يهتم التجار الأجانب في الحصول عليه (٣) كما كلف الديوان السلطاني
ضمناً لاستخراج النطرون من الطرانة والفاقوسية لحسابه (٤) .

- ١ - الباز العريني : المرجع السابق ص ١٨٧
- ٢ - القلقشندي : صبح الأعشى ، جزء ٣ ، ص ٤٥٩
- ٣ - ابن مماتي : قوانين الدواوين ص ٣٢٨
- ٤ - ابن مماتي : المصدر السابق ، ص ٣٣٤

تنقسم الصناعة في مصر في ذلك العصر الى صناعة زراعة تعتمد على خامات محلية ، ومن قبيل ذلك صناعة المنسوجات والزيوت والعمود ، وعلى صناعات معدنية غالبا ما تكون مستوردة من الخارج ، تركت خاصة في تنيس ودلاص .

تركزت صناعة النسيج في بعض المناطق مثل تنيس ود مياط والبهنسا واخميم واسيوط . وقد بلغ عدد الأتوال في تنيس نحو خمسة آلاف نول (١) . وقد أنتجت هذه المناطق أفخر المنسوجات الحريرية والكتانية والقطنية والصوفية . كما اشتهرت مدينة الفسطاط بصناعة نسيج خاص عرف باسم الفستيان كانت له شهرة خاصة في غرب أوروبا في تلك العصور (٢) .

ومن الصناعات الأخرى انتشرت صناعة استخراج الزيوت من السمسم والخردل والكتان والقنب والخس . وقد استفيد منها في الاضاءة وفي صناعة الصابون (٣) . كما كانت صناعة استخراج السكر من قصب السكر من أهم الصناعات . وكانت كمياتها كافية للاستهلاك المحلي الكبير . ويغطي صناعة الحلوى الواسعة الانتشار ، كما كان كافيا للتصدير الى الخارج . وقد اتبعت الحكومة الأيوبية سياسة الاحتكار في عصر قصب السكر ، فحتمت على المشتغلين بهذه الصناعة عصر القصب في معاصرها العديدة المنتشرة في سائر الاقاليم (٤) .

انتظم ارباب الحرف في نقابات تولع كل منها شيخ . وعالجت كتب الحسبة الطرق والأساليب التي تتخذها الحكومة للاشراف على هذه النقابات ، كما

- ١ - مرزوق : الزخرفة المنسوجة ، ص ٣٣ - ٣٤
- ٢ - عاشور : المرجع السابق ، ص ١٤٩
- ٣ - الباز العريني : المرجع السابق ، ص ٢٠٠
- ٤ - الباز العريني : المرجع السابق ، ص ٢٠٠ - عاشور : المرجع السابق ، ص ١٢٩

تتوافر المواد الغذائية في الأسواق • وتعدل الأسعار • ويتفقد المحتسب
الأسواق ، ويقف على ما اتخذه أرباب الحرف من أساليب الغش ، ويحاول
شعبها ، ويعاقب من يرتكب هذه المخالفات (١) .

- التجارة :

نشطت التجارة بين بلاد الشام ومصر منذ توحدنا في عهد الدولة
الزنكية ، على الرغم من سيطرة الصليبيين على حصني الكرك والشوبك وازداد
حجم المبادلات التجارية بشكل خاص بعد ان استعاد صلاح الدين هذين
الحصنين وفرض الأمن في المنطقة .

اهتم صلاح الدين بالتغلب على المشاكل الاقتصادية التي واجهها أثناء
تثبيت حكمه في مصر ، وخاصة الأزمة النقدية التي واجهته سنة ٥٦٧ هـ /
١١٧١ م حيث نفذت العملة الذهبية والفضية من اسواق مصر • وقد أورد
المقريزي (٢) نصا للقاضي الفاضل يوضح عمق هذه الأزمة وأثرها على الشعب
فقال : (عمت بلوى الهائلة بأهل مصر لأن الذهب والفضة خرجا عنها وما
رجعا ، وعند ما فلم يوجد • ولهج الناس بما عمهم من ذلك وصاروا اذا قيسل
دينار أحمر ، فكانما ذكرت حرمة الغيور له • وان حصل في يده ، فكانما ذكرت
جاءت بشارة الجنة له) • وقد ساعد على وجود هذه الأزمة ، حركة المقاطعة
الأوروبية لتجارة المرور عبر الأراضي المصرية ، اثر تحول نشاط التجار الايطاليين
الى موانئ الشام بعد قيام الامارات الصليبية • الى جانب تضويب موارد الذهب
من مناجمها المعروفة في ذلك الوقت ، اضافة الى ارسال صلاح الدين الأيوبي
لكميات منه الى سيد ، نورالدين ، والى الخليفة العباسي • فضلا عن توزيع

١ - الباز العريني : المرجع السابق ، ص ٢٠٠

٢ - السلوك : جزء ١ ، قسم ١ ، ص ٤٦

كميات كبيرة بين أفراد أسرته (١) .

وقد فطن صلاح الدين الى خطورة ضعف نشاط التجارة الأوربية في مصر، وأثرها السيئ على اقتصاد مصر، وعلى تمويل حركة الجهاد ضد الصليبيين، ولذلك اتجه على الرغم من كافة الظروف الى الترحيب بالتجار الايطاليين واغرائهم في العودة الى نشاطهم التجاري السابق في الاسكندرية وقد نجحت جهودهم في هذا الصدد، وتجلت ذلك النجاح بالمعاهدات التجارية التي عقدت مع ممثلي البندقية وجنوة وبيزا في سنة ٥٦٩هـ/٧٣١م (٢) وأثار ذلك العمل موجة من النقد في العالم الاسلامي، مما دفع بصلاح الدين الى الكتابة الى الخليفة العباسي مبررا عمله (٣) . وأخذ التجار الأجانب منذ ذلك الحين يحرصون على استمرار صلاتهم الطيبة مع حكومة مصر، وعلسى استمرار نشاطهم التجاري معها، حتى أنهم حذروا سنة ٥٨٧هـ/١١٩٠م، صلاح الدين من أن فردريك بربوروسا يعد حملة صليبية لمهاجمة أملاكه (٤) . كما أصدر صلاح الدين منشورا لتشجيع التجارة جاء فيه (وخرج أمرنا بكتابة هذا المنشور بمسامحة أهل القاهرة ومصر وجميع التجار المترددين اليها والى ساحل المقسم والمنية بأبواب المكوس صادرها وواردها . فيسرد التاجر ويسفر ويغيب عن ماله ويحضر ويقترض ويتجر برا وبحرا مركبا وظهرها،

- ١ - عطية القوصي : تجارة مصر عبر البحر الأحمر منذ فجر الاسلام حتى سقوط الخلافة العباسية، رسالة لم تطبع، ص ١٣٥
- ٢ - احمد دراج : الوثائق العربية المحفوظة في دور الأرشيف الأوربية (مصر الاسلامي) أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ص ١٢٢ -
Wiet: op. cit., pp. 307-309
- ٣ - دراج : المرجع السابق ص ١٢٢
- ٤ - الباز العربي : المرجع السابق، ص ٢٠٣

سرا وجهرا ، لا يحل ما شده ، ولا يحاول ما عده ، ولا يكشف ما ستره ، ولا يسأل عما أورد ، وأصدره ، ولا يستوقف في طريقه ، ولا يشرق بريقه ، ولا يؤخذ منه طعمة ولا يستباح له حرمة . والذي اشتملت عليه المسامحة فسي السنة من العين مائة ألف دينار مسامحة لا يشوبها تأويل ، ولا يتخونها تحويل ، ولا يعتريها زوال ولا يعتريها انتقال . . . قائمة ما قام به — القيمة (٠٠٠) (١) .

استفادت البندقية من المعاهدة التي عقدتها مع صلاح الدين ، إذ حصلت بواسطتها على اعفاء تجارها من عدة ضرائب مباشرة هو منحهم حرية مطلقة في الاتجار باللالي ، والأحجار الكريمة والغراء (٢) . وحصلت على حق تعيين قنصل في الاسكندرية ، ونائب له في دمياط يبرهان صالحها في مصر . فضلا عن تعيين قنصل لها في دمشق وبيروت يبرهان صالحها في الشام (٣) ، كما أخذت تصريحاً بتشبيد كيسة داخل هذا الفندق وعدد من الحمامات (٤) . كما سمحت هذه المعاهدة للبندقية بحماية الحجاج الأوربيين في طريقهم الى بيت المقدس ، إضافة الى تشرف قنصل البندقية بمقابلة السلطان عشر مرات في السنة (٥) . كما عقدت جنوة بعد البندقية معاهدة مع صلاح الدين في سنة ٥٦٩هـ / ١٧٣م ، سمح لها بمقتضاها — باتخاذ قنصل في الاسكندرية يشرف على تجارها المقيمين في المدينة وعلى

-
- ١ — ابوشامة : المصدر السابق ، جز ١ ، ص ٢٠٥
 - ٢ — Wiet: op. cit., p 385
 - ٣ — دراج : المرجع السابق ص ١٢٤
 - ٤ — Wiet: op. cit., p 385
 - ٥ — دراج : المرجع السابق ، ص ١٢٤ — ١٢٥

المتدد بين عليها . وقد تم تعيين الفئصل في الاسكدرية سنة ٦٠١ هـ /
١٢٠٥ م (١) .

لم توءد وفاة صلاح الدين الى تغير في العلاقات ، اذ استمرت في عهد
خلفائه . فجدد السلطان العادل المعاهدات مع كل من جمهورتي بيزن
والبنديقية ، تضمنت حماية الحجاج في اراضي السلطان ، ورعاية التجسار
البنادقة ، ومنحهم تسهيلات تجارية في الموانئ المصرية (٢) . ولم يضع
العادل قيذا على التجار الأجانب إلا فترة احتدام الحرب مع الصليبيين .
فقد أوقف ثلاثة آلاف تاجر أوربي في الاسكدرية سنة ٦١٥ هـ / ١٢١٩ م اثناء
الحملة على دمياط ، على حين ام ابنه الكامل فاق تسامحه الوصف ، فقد منع
البنادقة الامتيازات حتى اثناء الحرب عند دمياط .

وقد أدت علاقات جمهوريات ايطالية التجارية الجيدة مع الأيوبيين
فترة الحروب الصليبية الى سوء علاقاتهم مع البابا في روما . فأصدروا أمره
بمنع التجارة مع المسلمين . ولما لم يرتدع هؤلاء اكتفى البابا بمنع المتاجرة
معهم ببعض المواد التجارية الصالحة للأغراض الحربية . فأصدر قرارا
بحرمان ومصادرة متاع كل من يبيع للمسلمين الحديد أو الأسلحة أو
الأخشاب التي يجرى استخدامها في العمائر البحرية أو بناء السفن . وكل
من يدخل منهم في خدمة المسلمين قائدا لسفينة أو مرشدا لها (٣) .

١ - سامي سلطان سعد : اسس العلاقات الاقتصادية بين الشرق الأدنى
والجمهوريات الايطالية ، رسالة ماجستير ، القاهرة ١٩٥٨ م ، ص ٢٦

٢ - عاشور : الحركة الصليبية ، جز ٢ ، ص ٩٣٢-٩٣٣ - عناف صبرة :
علاقة البندقية بصر والشام . بداية القرن الثاني عشر حتى نهاية القرن
الرابع عشر ، رسالة لم تنشر ١٩٧٧ م ، ص ٨٤ - الباز العربي : المرجع
السابق ص ٢٠٢

٣ - Met: op. cit., p 384

وهكذا يمكن القول بأن التجارة الخارجية كانت نشطة في العصر الأيوبي . فكانت موانئ الشرق الأقصى تصل الى مصر والشام بواسطة التجار الكارمية عن طريق البحر الأحمر خاصة (١) . حيث يصل تجاور اوربسا وغالبا ما يكونون من الجمهوريات الإيطالية ، فينقلونها الى أرجاء اوربسا . وقد ليل على نشاط التجارة بين الشرق والغرب ، يمكن القول أن عدد السفن الراسية في ميناء الاسكندرية ، التابعة للدول الأوروبية في شتاء سنة ٥٨٤هـ / ١١٨٧-١١٨٨م كان سبع وثلاثون سفينة والمعروف ان فصل الشتاء هو اقـ فصل في النشاط التجاري ، مما يشير الى كثرة السفن وازدحامها في الفصول الأخرى (٢) .

اما التجارة الداخلية فلم تكن تقل نشاطا عن الخارجية ، فكانت مدن مصر عامرة بالتاجر . فقد توسعت اسواق القاهرة بما بناء سلاطين وامراء الأيوبيين فيها . ومن أشهر الأسواق المحدثه فيها سوق المهامزين (٣) وسوق الجمالون الصغير (٤) ، وسوق البلشون ، وسوق السلاح ، وسوق بساب الفتوح . كما زخرت مدن مصر الأخرى بالتاجر . حتى ان ابن جبير وصف مدن مصر في ذلك العصر مثل منفلوط وابي تيج وغيرها ، بأن فيها الأسواق وسائر ما يحتاج اليه من المرافق (٥) . وقد حقق التجار من وراء علمهم في تجارة الشرق أرباحا هائلة وثروات طائلة . فقد بلغت ثروة بعضهم مليون دينار والبعض الآخر أضعاف ذلك ، وتعد احصاء ثروة عدد منهم (٦) .

-
- ١ - عطية القوصي : المرجع السابق ، ص ١٦٤
 - ٢ - الباز العريضي : المرجع السابق ص ٢٠٢ نقلا عن Heyd
 - ٣ - عطية القوصي : المرجع السابق ص ١٧
 - ٤ - المقريزي : الخطط ، جزء ٢ ص ١٠
 - ٥ - غاشور : المرجع السابق ص ١٣١ نقلا عن ابن جبير
 - ٦ - عطية : المرجع السابق ص ١٦٩

تدفقت متاجر الشرق الأقصى الى المدن الشامية عن طريق الخليج العربي وآسيا الصغرى ومصر (١) . وشكلت مدن الشام الداخلية مثل دمشق وحلب محطات تجارية بالغة الأهمية ، ما بين الشرق عامة والساحل الشرقي للبحر المتوسط . فضلا عن ذلك فان منتجات الشام كانت ذات أهمية فائقة بالنسبة الى التجار الايطاليين ، وبصفة خاصة القطن والسكر والزجاج وغيرها من السلع (٢) .

وحرصا من الجمهوريات الايطالية على الاستفادة من المواد المتاجر بها ، فقد أبرم البنادقة معاهدة تجارية مع صاحب حلب غياث الدين غازي ابن صلاح الدين ، تعهد فيها بتقديم كافة المساعدات الى التجار البنادقة . وحصلت البندقية بموجب هذه المعاهدة على فندق وحمام وكهيسة في حلب ، وتحددت رسوم الدخول والخروج بنحو ١٢% ، ثم خفضت في عهد الملك العزيز الى ٦% ، كما منحوا اضافة الى ذلك ضمانات بسلامة ممتلكاتهم في حالة الوفاة او الغرق (٤) . كما أبرم البيازنة معاهد تشابهة ، وكان لجنوة فندق فنسي دمشق وبيروت (٥) .

كانت التجارة تتم ايضا عن طريق الموانئ الساحلية . فقد كانت ناشطة عن طريق ميناء اللاذقية الذي كان في يد العرب ، كما كانت الموانئ الشامية التي احتلها الصليبيون تمتلئ بالتجارات الشرقية الهندية والافريقية . وأشهرها على الاطلاق عكا وبيروت التي امتلأت مستودعاتها بالمسك من

- ١ - كلود كاهن : تجار القاهرة الأجانب في عهد الفاطميين والأيوبيين ، الندوة الدولية لتاريخ القاهرة من ٨٧١-٨٧٢
- ٢ - زيتون : العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، طبعة دار دمشق ١٩٨٠ ، ص ١٨٨
- ٣ - زيتون : المرجع السابق ، ص ١٩٢
- ٤ - الباز العريني : المرجع السابق ، ص ٢٠٤ نقلا عن Heyd
- ٥ - Heyd: History du Commerce., p II., 432

التبوت والفلفل والقرفة وجوز الطيب والقرنفل والند والكافور والعاج وسائس
منتجات الهند ، وكذلك بمنتجات افريقيا من عاج وغيره ، ومنتجات
بلاد العرب مثل البخور والتمر والنيلة واللؤلؤ (١) . وقد عجب ابن جبير
من هذا الأمر حين زار بلاد الشام . وأشار الى هذه الحقيقة بقوله : (ومن
أعجب ما يحدث في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج الى بلاد الفرنج وسبيهم
يدخل الى بلاد المسلمين (٢) .

كانت البضائع المتاجر بها تدفع ضرائب يتولى تحصيلها الديسوان .
وكانت ضريبة الوارد تؤخذ على البضائع التي تباع فعلا . أما التي لم تجسد
لها سوقا في البلاد فلا تدفع عنها أربابها ضريبة وارد ، ويسمح لهم بإعادة
تصديرها دون دفع رسوم ، على أن لا تكون السلعة حديدا أو خشبا أو قارا ،
إذ يتحتم عندها بيعها للحكومة بسعر السوق (٣) . أما ضريبة الصاد
فيجوز تحصيلها على جميع السلع التي يشتريها التجار الأجانب من داخل
البلاد (٤) .

- النقود :

سك صلاح الدين الأيوبي منذ أسقط الخلافة الفاطمية نقودا باسم
سيد نورالدين زنكي والخليفة المستضي العباسي (٥) . كذلك سك دنانير
مصرية عليها اسم الملك الصالح بن نورالدين (٦) . ثم ضرب صلاح الدين

- ١ - Wiet : op. cit. p 384
- ٢ - زيتون : المرجع السابق ص ١٤٠ - عاشور : المرجع السابق ص ١٣٠
- ٣ - ابن ممان : المصدر السابق ص ٣٥٦
- ٤ - سامي سعد سلطان : أسس العلاقات الاقتصادية بين الشرق الأدنى والجمهورية الإيطالية ص ١١٨
- ٥ - محمد أبو الفرج العشي : مصر ، القاهرة على النقود العربية الإسلامية ، الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ص ٩٢٢ - ٩٢٣
- ٦ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جز ١١ ص ١٥٢

السكة باسمه شخصيا بعد اعلام سلطنته في مصر وبلاد الشام وباسم الخليفة العباسي (١) . ولما ألت بالعملة المصرية ضائقة في نهاية القرن السادس الهجري ، عمل صلاح الدين على رفع قيمتها ، واتخذ بعض الاجراءات الكتيبة بذلك (٢) . فأمر في سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م بسك درهم تكون نسبة الفضة فيه ٥٠% من وزنه ، فأصبح الدينار يساوي تسعة دراهم ، واستمر بقاء هذه الدراهم حتى سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م (٣) .

كما سك السلطان الكامل الأيوبي ديناراً نقياً كانت نسبة الذهب فيه ١٠٠% ، كذلك سك درهماً جديداً كانت نسبة الفضة فيه ٦٦% من وزنه (٤) .

وانتشرت في عهد الملك الكامل الفلوس النحاسية . وكانت قيمتها متغيرة . ففي سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م كان الدينار يساوي ٤٥ فلماً ، ثم وصلت قيمته بعد مدة وجيزة وفي نفس السنة الى ٨٠ ثم ٩٠ ثم ١٢٠ فلماً . مما دعا الملك الكامل الى اصدار مرسوم يحظر فيه التعامل بالعملات النحاسية كذلك جدد خليفته الملك العادل الثاني نفس قرار الحظر سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م (٥) .

٣ - الحياة الاجتماعية :

كان لظروف الحرب الصليبية أثر كبير على الحياة الاجتماعية زمن

١ - ابن بكرة : كشف الاسرار العلمية تحقيق عبد الرحمن فهمي : القاهرة ١٩٦٦ ، ص ١٢٦

٢ - المقرئى : السلوك ، ج ١ ، القسم الأول ، ص ٦

٣ - العث : المرجع السابق ص ٩٢٢ - ٩٢٣

٤ - عطية : المرجع السابق ، ص ٢٤٠

٥ - عطية : المرجع السابق ، ص ٢٤١

السلطنة الأيوبية ، فقد تغلبت فكرة الحرب والجهاد المقدس على أحاسيس الناس ووطن السلاطين أنفسهم ، فلم يعد هناك متسع من الوقت لدى الجميع للتوسع في حياة الترف والقيام بالاحتفالات كتلك التي سادت عند أسلافهم الفاطميين وخلفائهم المالكيين ، فالمال والجهد والوقت كلها أمور مدخرة وموجهة للقتال الصليبيين ، واهتمام صلاح الدين وجه منذ أول أمد وأرسلته إلى بناء القلاع والأسوار والحصون والمدارس ، فقد بنى في القاهرة وحدها قلعة الجبل وسور المدينة ، إضافة إلى تحصينه للشعور الأخرى كدمياط والأسكندرية ، إلى جانب القلاع التي بناها في الشام (١) .

وقد وصف لنا ابن شداد صلاح الدين الأيوبي وصفا دقيقا وصور لنا اهتماماته في حياته ، وكلها تشير إلى نوع الحياة التي كان يحيها ، ومما قاله : (كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيما ، بحيث ما كان له حديث إلا فيه ، ولا نظر إلا في آتته ، ولا كان له اهتمام إلا برجاله ، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه ، ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكته وسائر ملاذه ، ووقع في ظل خيمة تهب بها الرياح يمته وسرة (٢) ولم يكن اهتمامه بمجاهدة الأعداء تتوقف عند هذا الحد ، بل كان يهتم باخبار من سبقه من المجاهدين ، ليجعلهم قدوة له ، ويحب ان يعلم ما قيل في الجهاد قبله ، فقد ألف له ابن شداد كتابا ، جمع له فيه أداب القتال ، وكل آية وردت فيه ، وكل حديث روى في فضله ، وشرح له غريبها ، وكان يطالعها دائما ، حتى أخذها منه ولد ، الأفضل (٣) . وكان لا يبالي بركوب المخاطر

١ - عاشور : مصر والشام في عصر الأيوبيين والمالكيين ص ١٣٢

٢ - سيرة صلاح الدين الأيوبي ، ص ٢١

٣ - ابن شداد : المصدر السابق ص ٢١

من أجل دفع غائلة الفرجة • وقد وضع ذلك لابن شداد فسي يسوم كان البحر فيه هائجا هيجانا شديدا ، وموجه كالجبال يخيف عظاما الرجال ، ويجعلهم يرفضون ركوبه مقابل ملك الدنيا بكاملها • قال صلاح الدين لا بين شداد وهو ينظر الى موج البحر : (في نفسي أنه متى ما يسر الله تعالى فتح بقية الساحل ، قسمت البلاد وأوصيت ، وودعت ، وركبت هذا البحر الى جزائرهم ، أتتبعهم فيها حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت) (١) .

وبذلك يمكن القول أن حركة الجهاد كان لها تأثير كبير على الحياة الاجتماعية في العهدين الزنكي والأيوبي • فقد دعت هذه الحركة الى اسلام سلفي على صورته في صدر الاسلام دون بدع ولا جدل • وكان عقاب من يظهر شيئا منها أليما • ومن ذلك ما يذكره صاحب الروضتين عن انسان يعرف بيوسف بن آدم ، يعيش في دمشق • أظهر الزهد والتنسك ، والتشبيه • وجمع حوله أتباعا • فبلغ امره الى نورالدين زنكي ، فأحضره وأركبه حمارا ، وأمره بصفعه • فطيف به في البلد جميعه ، ونودي عليه هذا جزاء من أظهر فسي الدين البدع • ثم نفي من دمشق (٢) • وعلى ضوء هذا يتضح لنا السبب الذي جعل الأيوبيين يعارضون العلوم العقلية والفلسفية (٣) • حتى أن من يتعرض للفلسفة والمنطق وعلم الكلام كان ينفي أو يعزل عن التدريس ومثالثنا على ذلك أن سيف الدين الاقدي (٥٥٠ - ٦٣١ هـ) مدرس المدرسة ،

١ - ابن رشد : المصدر السابق ص ٢٢

٢ - انظر احمد بدر : الأندلسيون والمغاربة في دمشق ، ابن عساكر ، ص ٣٢٨ نقلا عن الروضتين ص ٢٤

٣ - كحالة : دراسات اجتماعية في العصور الاسلامية ص ٩٣

العزيزية ، شيخ المتكلمين ، قوله الأشرف موسى • وأعلن للملأ أن من يشتغل
بعلم الكلام يعرض نفسه للتفني • وطلب من المدرسين أن يشتغلوا بعلم
التفسير والفقه والحديث (١) •

وقد فرضت حركة الجهاد وما تبعها الاقتصاد في الحفلات العامة •
وتوخي عدم الاسراف في الأعياد الدينية • فقد كان صلاح الدين الأيوبي
أول من ركب في مصر بشعار السلطنة دون اسراف ومبالغة • كما نصيب
الأسمة السلطانية دون اسراف •

وقد فرض الوضع العام في المنطقة على الحكام والناس الاهتمام بأمر
دينهم والتعمق فيه • يدل على ذلك كثرة المصلين والمتعبدين ، وكثرة المؤسسات
الدينية وعلى رأسها المساجد • حتى أن مدينة دمشق وحدها حفلت فسي
تلك الفترة بمائتين واثنتين وأربعين مسجدا ، إضافة الى المدارس التي كانت
الغاية من انشائها دينية ، والخانقاوات والأربطة (٢) • وهي بيوت للعبادة
ينقطع فيها الزهاد لمباشرة حياتهم الخاصة ، وفق قواعد معينة • ولم يقتصر
ذلك على الرجال وحدهم • بل كان هناك رباطات خاصة بالنساء التزم فيها
حياة الزهد ، وواظبن على العبادة مع الالتزام بشدة بالضبط وغاية الاحتراز •
وقد استخدمت الرباطات النسائية لغايات أخرى • منها أنها جعلت ملاجئ
للنساء المطلقات والأرامل ، صيانة لهن حتى يتزوجن أو يرجعن الى أزواجهن •
فكانت هذه الرباطات تقوم بوظيفة اجتماعية هامة جدا الى جانب صفتها
الدينية (٣) •

١ - النعمي : المصدر السابق ، جز ١ ، ص ٣٩٣

٢ - عاشور : بعض أضواء جديدة على ابن عساكر والمجتمع الدمشقي في عصره ،
ابن عساكر ، ص ٢٢٢

٣ - عاشور : المرجع السابق ، ص ٢٣٠ - ٢٣١

ومع اهتمام المسلمين في تلك الفترة بالديانة الاسلامية ، فان التسامح والتآخي بين أتباع الديانات السماوية كان ظاهرا . وحظي أهل الذمة بقدر وافر من الحرية في مباشرة طقوسهم وعباداتهم داخل مؤسساتهم الدينية وعاشوا مع اخوانهم المسلمين اخوة متحابين . والدليل على ذلك العدد الكبير من الكنائس التي وجدت داخل المدن ، والتي ظلت محترمة في عصر زحف الصليبيين على بلاد الشام ، وقيامهم بهجمات متكررة على مصر (١) .

نال العلماء والأدباء مكانة محترمة في العصرين الزنكي والأيوبي ، ولعبوا دورا كبيرا في امور الدولة العامة ، ووجهوا النقد للحكام في السياسة وفي المجالس العلمية (٢) . وكان رأيهم مسموعا . فقد زخر مجلس نور الدين زنكي بالعلماء والأدباء . وكذلك كان مجلس صلاح الدين . وكان علي رأس الحضور الحافظ بن عساكر صاحب تاريخ دمشق (٣) . وقد اهتم خلفاء صلاح الدين من الأيوبيين بمجالس العلم ، وحضروا الدروس العلمية في المدارس وهم سلاطين . فقد حضر السلطان المعظم عمسي بن العادل سنة ٦١٩ هـ / ١٢٢٢ م درس القاضي جمال الدين في المدرسة العادية (٤) .

نالت المرأة حظا وافرا في الحياة الاجتماعية في ذلك الدور ، ولعبت دورا كبيرا كأم ومعلمة . ولم تكن ذلك الانسان المحتجب السليبي الذي لا دور له في الحياة العامة ، ولا عمل له إلا داخل جدران البيوت كما يظن البعض . وللدلالة على ذلك اورد عبارة ابن عساكر التي يذكر فيها شيوخه

-
- ١ - عاشور : المرجع السابق ص ٢٣٢
 - ٢ - انظر فيما سبق الحياة العلمية
 - ٣ - ابوشامة : المصدر السابق ، جز ١ ص ١٠٠ - ابن كثير : المصدر السابق ، جز ١٢ ، ص ٢٧
 - ٤ - التميمي : المصدر السابق ، جز ١ ص ٢٨٨ - ٢٨٩ - كرد علي : خطط الشام ، جز ٦ ص ٨٤

فيقول بأن جملة شيوخه ألف وثلاثمائة شيخ ونيف وثمانون امرأة ، بمعنى أن ربع شيوخه كانوا من النساء ، وهذه نسبة ممتازة بالنسبة الى ذلك العصر . و اذا أضفنا الى ذلك ان كثيرات منهن نلن التقدير ، ادركنا دور المرأة العلمي في هذا العصر ومن ذلك ان ابن عساكر يلقب ملكة بنت داود بن محمد بـ — من سعيد القرطكي ، الصالحة الصوفية ، بالعالمة (١) . وكانت النساء .
العالمات اللواتي تصدين للتدريس يلقيهن دروسهن إما في المسجد الجامع أو في البيوت ، أو في أماكن مخصصة (٢) .

كانت المرأة تتفقه وتصل الى مرتبة العلماء في البيوت أو في المساجد .
فغالبية النساء اللاتي اشتهرن بالعلم والدين نشأن في بيوت علموديين (٣) ،
وكن يرتحلن في طلب العلم . وحبسهن الأوقاف على دور العلم ، وبعضهن سابق
الرجال في هذه المآثر (٤) . كما شاركت المرأة في تيار التصوف الذي أخذ
يشتهد تدريجيا في تلك المرحلة ، وشاركت في الحياة العامة وفي النشاط
السياسي (٥) . ومع كل هذا فإن المرأة لم تكن تخرج في الأسواق مبهرجة .
وكان خروجها على العموم لحاجة ضرورية . فقد وصف ابن جبير النساء بالتحشم ،
وخص منهن نساء الصعيد فقال بأنهن مصانعات ويلتزمن بيوتهن ، ولا تظهر
احداهن في زقاق من أزقتها البتة (٦) .

-
- ١ - عاشور : المرجع السابق ص ٢١٩
 - ٢ - انظر ظافر القاسمي : المرأة في تاريخ ابن عساكر ، ابن عساكر ص ٦٢٥
 - ٣ - عاشور : المرجع السابق ص ٢١٨
 - ٤ - عاشور : المرجع السابق ص ٢١٩-٢٢٠
 - ٥ - القاسمي : المرجع السابق ، ص ٦٢٧
 - ٦ - عاشور : المرجع السابق ص ٢٢١-٢٢٢
 - ٦ - الرحلة ، ص ٤٠

ومن الظواهر الهامة في المجتمع في هذه الفترة ، ازدياد أهمية
العنصرين التركي والكردي ، اللذين اصبحا القوة الضاربة للاسلام ، وجنوده
المدافعين عنه وعن أرضه ومصالحه (١) مع عدم نكران دور العنصر العربي .

كثرت الأوقاف في تلك الفترة كثرة واضحة ، وقد عبر ابن جبير عن كثرة
الأوقاف الموقوفة على المنشآت الدينية في دمشق بقوله : (ولكل مشهد
من هذه المشاهد أوقاف معينة من بساتين وأرض بيضاء ورباع ، حتى أن
البلدة تكاد الأوقاف تستغرق جميع ما فيها . وكل مسجد يستحدث بناؤه ،
أو مدرسة أو خانقة ، يعين له السلطان (صلاح الدين) أوقافا تقوم بها
وساكنها والملتزمين لها (٥٥٥) .

كانت الأوقاف تتضمن موردا ثابتا للمنشآت يضمن لها البقاء والاستمرار
في أداء رسالتها دون خشية العوز والافلاس . وكان لهذه الأوقاف
ادارة تشرف عليها ، يرأسها متولي الأوقاف ، الذي كان يشرف على أوقاف
المسلمين ويسهر على اتفاق أموالها في الجهات المخصصة لها (٢) .

ومن المؤسسات الاجتماعية التي كثرت في ذلك الوقت السقايات (موضع
المقني) أو ما عرف باسم السبيل . وقد كثرت هذا النوع من عمل الخير بوازع
من شعور ديني عميق ، في كثير من المدن الاسلامية وخاصة المدن الدينية
ك مكة وبيت المقدس . وفي الخانات والمحطات والنزل الواقعة على طريق
المسافرين والتجار (٣) .

أما عن تصميم وعمل هذه السقايات ، فيمكن القول بأنه عبارة عن صهرج

١ - عاشور : المرجع السابق ص ٢١٧

٢ - عاشور : المرجع السابق ص ٢٢٤

٣ - عاشور : المرجع السابق ص ٢٢٥-٢٢٧

تحت الأرض يملاً بالماء عن طريق الأنهار والقنى المنتشرة في أنحاء المدينة ،
والتي وقفت عليها أوقاف معينة ، ينفق منها على صيانتها . وفوق هذا الصهرج
غطاء من الرخام أو الحجر أطلق عليه اسم خرزة . وربما كانت السقاية فسوق
بشر ، ثم فوقها المزلة لتوزيع الماء على الراغبين في الشرب . ويقوم الساقى
أو المزملائي برفع الماء من الصهرج أو البئر ، فيجرى الماء إلى نوافذ ربطت
بفضبانها كيزان بواسطة سلاسل ، ليتمكن بواسطتها طالب الماء من الحصول
على حاجته . وقد وضعت لهذه السقايات أنظمة ثابتة ، تتضمن سلامة صحة
الساقى ونظافة الكيزان المستخدمة في الشرب ، بتحديد اوقات العمل فيها ،
وتزويد الخزانات المقامة عليها بالماء . وقد امتدت العناية بتوفير ماء الشرب
لتشمل الدواب الذى كان اعتماد الانسان عليها في الحل والترحال ،
فانشئت لها أحواض لتشرب منها (١) .

تميزت هذه الفترة بكثرة الحمامات العامة ، ذلك ان الحمامات الخاصة
لم تكن موجودة الا في قصور الحكام والعظماء . وقد وصف البغدادى حمامات
القاهرة فقال : انه لم يشاهد في البلاد التي زارها أتقن منها صنعة واحكاما
لما امتازت به من أرض مكسوة بالرخام الجميل ، وأحواض واسعة يجرى فيها
الماء الساخن والبارد ، ومقاصير بأبواب للمستحمين من الخاصة ، حتى لا
يختلطوا بالعوام ولا يظهروا على عورتهم (٢) .

كان في دمشق وحدها مائة حمام على رأى ابن جبير . وكثرة الحمامات في

١ - عاشور : المرجع السابق ص ٢٢٨
٢ - البغدادى : الافادة والاعتبار ، في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة
بأرض مصر ، طبع حجر بالقاهرة ، ص ٣٩

هذه المدينة ظاهرة اجتماعية لها دلالتها . فالمرضى يحتفل احتفالاً كبيراً بدخوله الحمام ، إذ يأتي ذلك إعلاناً لشفائه . والعروسان يدخسل كل منهما الحمام قبل حفل الزفاف ، فيتم ذلك في حفل كبير يحضر من الأعمام العائلية الرائعة . ويغادر الواحد منهما الحمام في موكب رائع يحضره الأهل والأحباب .

ويعتبر الحمام بالنسبة للنساء مكان اجتماع عام يتناقطن فيه أخبار الناس وأسرار المجتمع . وتصطحب المرأة معها أوفر ثيابها وحليها لتلبسها بعد الاستحمام ، فتقع المفاخرة والمباهاة . وقد وضعت لهذه الحمامات ضوابط وقواعد تضمن سلامة المترددين عليها وراحتهم (١) .

كان الإشراف على الحمامات العامة يقع على المحتسب ، فيلزم قبمتها ، بغسلها وكسها وتنظيفها . ودلك بلاطها ، وغسل الخزائن التي يجتمع بها الماء . ويكلفه باشعال البخور في الحمام مرتين في اليوم . ويمنع الأساكفة من صبح الجلود في الحمام ، فإن الناس يتضررون برائحة الدباغة . كما يمنع المجذوم ومن به برص من الدخول إليه ، ويتعهد الناظر بحفظ ثياب الناس ، فإن ضاع شيء منها التزم بدفع التعويض عن ذلك (٢) .

كثرت في أيام الدولتين الزنكية والأيوبية الفنادق والخانات والقيساريات بالفندق موصفة مخصصة لنزول التجار ، تتألف من عدة طوابق . ففي الدور الأرضي توجد المخازن والحوانيت التي تطل على فناء داخلي فسيح ،

١ - عاشور : المرجع السابق ص ٢٢٨-٢٣٠

٢ - الشيزرى : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، نشر العربي ، القاهرة

يسمح بتعبئة البضائع وتفريغها • بينما تضم أدواره العليا مساكن للتجار
ينامون فيها ويخلقون غرفهم بأقفال روميه (١) •

كانت الفنادق من أجل التاجر الركاض الذي ينتقل من بلد الى آخره
ويعتمد على الحركة والرحلة في نقل البضائع من موضع الى آخره • ولذلك
كانت هذه المؤسسات مكتملة المرافق المعيشية يجتمع فيها التاجر مع أسرهم
الاجتماع بهم من اخوانه التجار وغير التجار ، ويجد فيها ما يتوق اليه من
طعام وماء للاستحمام ، ومكان امين لا يداغ ما معه من أموال وغيرها (٢) • كما
احتوى كل فندق على كنيسة صغيرة ، وفرن لصناعة الخبز ، وحمام ، وقاعة خاصة
صرح لهم فيها بشرب النبيذ (٣) •

كان لكل جالية من الجاليات الأوروبية فندق خاص بها في مدينة
الاسكندرية (٤) • كما كان هناك فنادق لتجار الشام والمغرب ولتجار الكرم على
طول طريقهم التجاري (٥) • ولم يكن يحق للأجانب ملكية الفنادق بل كانت
ادارة الجمارك بالموانئ • (الديوان) هي الهيئة التي تشرف على هذه الفنادق ،
وتكلف بالسهر على سلامتها ودفع ايجارها واصلاحها • ويشرف على كل فندق
موظف يعرف بالفدقي ، تختاره الجالية التي يتبع لها الفندق • وهو الذي
يمثلهم أمام السلطات (٦) •

أما الخانات فمفرد ها خان ، وهو مبنى ضخم محتوى على مجموعة من

-
- ١ - آدم ميتز : الحضارة الاسلامية ، جزء ١ ، ص ٣٢٧
 - ٢ - عاشور : المرجع السابق ، ص ٢٣١
 - ٣ - سامي سعد : المرجع السابق ، ص ١١٢
 - ٤ - كلود كاغن : المرجع السابق ، ص ٨٧٢
 - ٥ - عطية : المرجع السابق ، ص ١٨٩
 - ٦ - محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة ، ص ١٥٥ - ١٥٦

الحوانيت الكبيرة والصغيرة ، ومستودعات للبضائع • وتتوسط الخان فنا • كبير على هيئة رواق مغطى ، حيث يحفظ التجار بضائعهم • والخان كلمة فارسية الأصل ، قام بينائها السلاجقة في البداية في أطراف المدن وعلى الطرق الرئيسية للبريد والتجارة ، لاستراحة التجار (١) • وقد تشييد الخانات لأعمال الخير ، لا يواها المسافرون وابتناء السبيل (٢) •

أما القيسارية فتتكون من مجموعة من المباني العامة بها حوانيت ومصانع ومخازن ، وأحياناً مساكن • وبها كذلك أروقة ، وأشأها التجار وكبار رجال الدولة (٣) • وكانت تنشأ للتجار الأجانب على اختلافهم ، غير أن التجار الأوربيين كانوا يفضلون الإقامة في فنادقهم (٤) • وكان بعض القياسر مساجد لتجار المسلمين ويعملوها رباع ذات مساكن • خصصت للصناع والتجار مقابل أجر معين •

أما الأسواق فكانت في الغالب متخصصة • ففي دمشق كان هنسناك سوق للأساكفة العتق وآخر للحذائين • وكان يحرم على أحد هما ان يخالط عمل الآخر ، فيحرم على الاسكافي ان يصنع حذاء • جديد ا ، ويحرم على الحذاء ان يصلح حذاء قديماً (٥) • وكان في دمشق سوف كبير للزهور والسورود هو سوق الريحان (٦) • وعلى العموم فان الاسواق كانت حافلة بكل مطالب المجتمع من مأكولات ومنتجات وملابس وغيرها • (٧) •

- ١ - نعيمزكي : طرق التجارة ص ٢٥٦ - عطية : المرجع السابق ص ١٨٦
- ٢ - المقرئزي : خطط ، جز ٢٠ ص ٩٢
- ٣ - البراوي : حالة مصر الاقتصادية ص ٢٧٢
- ٤ - سرور : تاريخ الحضارة ، ص ١٥٦
- ٥ - عاشور : المرجع السابق ص ٢٣١-٢٣٢
- ٦ - عاشور : المرجع السابق ، ص ٢٣٢
- ٧ - عطية : المرجع السابق ص ١٩٥-١٩٧ او من ص ١٩٨ حتى ٢٠٠

كان على المحتسب زمن الأيوبيين النظر في الأسواق والطرق ، فيراعي ما ينبغي ان تكون عليه الأسواق من الارتفاع والارتفاع وان يكون بجانب السوق افرزان يسير عليهما الناس في زمن الشتاء اذا لم يكن السوق مبلطا . كما كان عليه ان يلاحظ عدم خروج الدكاكين عن الرسم الموضوع لها . وان يكون لاهل كل صناعة سوق يختص بهم . فمن كانت صناعته تحتاج السمس استخدام النار كالخباز والطباخ والحداد ، فيحسن ان تبعد حوانيتهم عن حوانيت ارباب الحرف الأخرى مثل العطارين وباعة الملابس . كما كان عليه ان يعرف ما يرد الى الأسواق من السلع ، وما تستقر عليه الأسعار . فيجعل لكل صناعة عريفا من صالح أهلها ، خبيراً بصناعتهم ، يصبراً بغشوستهم ، مشهوراً بالثقة والأمانة كما يتولى الاشراف عليهم (١) .

اهتم الأيوبيون بالأغراب الذين يفتدون الى البلاد وقد أفاض ابن جبير عن الرعاية التي يلقاها هؤلاء ، سواء في بلاد الشام او مصر . ونصح متغربة المغرب بسكن دمشق (٢) . كما ذكر عناية صلاح الدين بالأغراب الذين يفتدون الى الاسكندرية وغيرها من مدن مصر لطلب العلم . ان أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها حتى احتاجوا الى ذلك . ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم . ووكل بهم اطباء يتفقدون أحوالهم . وكذلك جعل لا بناء السبيل من المغاربة جرايات من الخبز وغيره أثناء مرورهم بصر في طريقهم الى الحج (٣) . كان الاهتمام بالبناء في هذه الفترة عاما . فعلى حين اهتم السلاطين بالمشآت العامة ، فانهم لم ينسوا الخاصة ، وشاركهم الشعب في ذلك . وعلى

١ - الشيزري : المصدر السابق ، ص ١٢-١٣

٢ - الرحلة ، ص ٢٠

٣ - ابن جبير ، الرحلة ، ص ٤٦

سبيل المثال فان مدينة القاهرة زخرت بالدور الضخمة والمنازل الفسيحة والأسواق الممتدة والخوانق الفاخرة • وكذلك كانت مدينة دمشق والأسكندرية • وغلب على المباني الأجر مع استخدام الحجر في عمارة المساجد والمدارس وبيوت الكبار • كما ارتفعت بعض الدور من طبقتين الى اربع طبقات • وفي كل طبقة مساكن كاملة بجانبيها ومرافقها (١) •

وقد حفظ لنا البغدادي الذي زار القاهرة في العصر الأيوبي شيئاً من النشاط العمراني في المدينة • فأشار الى انه اذا أريد بناء ريع أوتيساريه، تولى ذلك العمل مهندس • فيقسم الأرض الى اجزاء ، ويعمر كل جزء على حدة ، بحيث يجري الانتفاع به والسكن فيه • ويستمر العمل على هذا النحو حتى تتم عمارة الأجزاء كلها • كما ذكر الاهتمام بالمجاري العامة وايصالها الى الماء الجوفي • فقد كان أرباب الدور ، يحرصون على أن يمدنوا في حفرة المرحاض حتى يصل الى الماء الجوفي • فلا يحتاج الى الكسح (٢) •

لقي الفقراء والغرباء اهتماما كبيرا زمن الأيوبيين ، فمن ذلك ان صلاح الدين تعهد ببناء الفقراء بتعليم القرآن الكريم ، وأجرى عليهم جارية كافية (٣) • كما تعهد سائر من يلجأ الى المساجد والمشاهد بالقرافة فسي القاهرة من الغرباء والصلحاء والفقراء • كما جعل جامع ابن طولون مأوى للغرباء المغاربة وأجرى عليهم الأرزاق في كل شهر • وجعل أحكامهم لأنفسهم يختارون واحدا منهم يحتكمون اليه فيما يخصهم (٤) • كما نال الغرباء فسي

١ - القلشندي : صبح الأعشى ، جزء ٣ ، ص ٣٥٣
 ٢ - عبد اللطيف البغدادي : المصدر السابق ، ص ٣٩
 ٣ - ابن جبير : المصدر السابق ، ص ١٩١
 ٤ - ابن جبير : الرحلة ، ص ٥٢

الشام اهتماما ووجدوا الرعاية والعناية • ووجدوا أعمالا كثيرة تعينهم (١) •
ازدادت ظاهرة التصوف وضوحا في العصر الأيوبي ، وكثر بناء منازل
الصوفية التي عرفت باسم الخانقاه وجمعها خانقاوات • ويقال بأن الخانقاه
الصلاحية التي عرفت أيضا باسم خانقاه سعيد السعداء (٢) هي أول خانقاه
عرفت بمصر • وقد وقفها صلاح الدين على المتصوفة منذ سنة ٥٦٩هـ/١١٧٢م
وولى عليها شيخا عرف بشيخ الشيوخ • ووقف عليها الأوقاف للانفاق على من
فيها من الفقراء • ورتب للصوفية في كل يوم طعاما ولحما وخبزا • وبني لهم
حماما بجوارهم (٣) • وقد شرط ان مهمات من الصوفية وترك عشرين دينارا
فما دونها كانت للفقراء • ولا يتعرض لها الديوان السلطاني • ومن أراد
السفر منهم جرت اعانته على ذلك (٤) •

وقد ترك الصوفية أثرا كبيرا في الحياة العامة ، فكان لصلاتهم يوم
الجمعة مراسم خاصة يحرس الناس على رؤيتها • ففي كل يوم جمعة يخرجون
من الخانقاه الصلاحية الى جامع الحاكم لصلاة الجمعة في موكب جميل ، ويؤدون
فريضة الصلاة في موضع أعد لهم ، ويدعون للسلطان صلاح الدين ، ثم يعودون
بنظام الى الخانقاه (٥) •

لم يكن التصوف مجرد ظاهرة دينية بل ظاهرة اجتماعية • وكانت رعاية
هذا العنصر والاهتمام به من اكبر دواعي قدوم كثير من الصوفية في هذا
العصر من الأندلس والمغرب وغيرها من المناطق الى مصر أحيانا والشام

١ - ابن جبير : المصدر السابق ص ١٩٤-١٩٥

٢ - كانت دارا منذ أيام الفاطميين مقابل دار الوزارة ، وسكنها الوزير

شاور المقريزي : الخطط ، جزء ٢ ص ٤١٥ - عاشور : مصر والشام في عصر
الأيوبيين والمماليك ص ١١٧ - الباز العريني : المرجع السابق ،

ص ٢١٧ - ٤ - الباز العريني : المرجع السابق ص ٢١٧

٥ - المقريزي : الخطط ، جزء ٢ ص ٤١٥

غالبا ، فأشاعوا فيها حياة الزهد والتعشرف (١) .

الجيش البري والبحري :

- الجيش البري

اهتمت الامارة الزنكية بتشكيل جيشها . فكان في غالبيته يتألف من فرقة نظامية قوامها عبيد أتراك تم شراؤهم وهم صغار ، ودرخوا على يــــد فرسان يحترفون الحرب ، ثم اعتقوا او منحوا اقطاعات عسكرية تغل عليهم ما يعيشون به (٢) . وكان الداعي الى منح الاقطاعات للجند ، هو حاجة الدولة الزنكية الى تجنيد عدد كبير من الجنود بسبب وضع الامارة العام ، وكونها في حالة حرب مستمرة على جميع حدودها ، وخاصة حدودها مع الصليبيين . في الوقت الذي لم تكن مواردھا تكفي نسبيا لدفع أرزاقهم . الى جانب الرغبة في ربط الدفاع عن البلاد بالمصلحة الخاصة لأصحاب هولاء الاقطاعات . وعلى سبيل المثال يمكن القول أن عماد الدين زنكي أقطع العشائر التركمانية المتقلدة ارضا بجوار حلب يسكنونها ويكلفون بالدفاع عنها وعما وراءها ، اضافة الى ملكيتهم للأراضي التي يستعيدونها من الفرنج . وفي ذلك قال صاحب الروضتين متحدثا عن عماد الدين : (ومن صائب رأيه وجيد ، أن سير طائفة من التركمان الايونية مع الأمير الباروقسي الى الشام ، وأسكنهم بولاية حلب ، وأمرهم بجهاد الفرنج ، وملكهم كل ما استنقذوه من البلاد للفرنج ، وجعله ملكا لهم . فكانوا يغادرون الفرنج بالقتال وبرأوحونهم) (٣) . ومن أجل ذلك كان عماد الدين يشجع على

- ١ - انظر بدر : الأندلسيون والمغاربة في دمشق ص ٣١٥-٣١٨
- ٢ - عاشور : المرجع السابق ص ١١٧
- ٣ - حب : مآثر صلاح الدين ودراسات في حضارة الاسلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧٤ ص ١٠٧
- ٣ - ابوشامة : المرجع السابق جزء ١ ص ٤٣-٤٤ - ابن الاثير : تاريخ الاصابة ص ٨٠

الاقطاع من دون الأملاك، فيقول لأصحابه : (فأى حاجة لكم الى الأملاك ، فان الاقطاعات تغني عنها) (١) .

واتخذ الاقطاع شكله النهائي في عهد نورالدين زنكي . إذ أعطس امراء الجند اقطاعات تتناسب في مساحتها وأهميتها مع عدد الجند الذين يقدر منهم لنورالدين ، فقد يكون قطعة ارض فقط ، وقد يشمل مدنا كبرى وحصونا . ويمارس صاحب الاقطاع كل حقوق الادارة في منطقته وخاصة جباية الضرائب سواء كانت نقدية او عينية . وقد اتخذ سجلا بالواجبات المترتبة على اصحاب الاقطاعات من العدة والرجال (٢) ، وكلف المقطع بفتح الأضروسقايتها على الوجه الاكمل (٣) اضافة الى حفظ الجسور (٤) .

جعل نورالدين الاقطاعات متوارثة من الاباء الى الأبناء شرط أن يورث هو ولا الورثة نفس الخدمات التي كان يورثها المقطع الأول . وقد منح ابن قاضي شهبة هذه الطريقة فقال في ذلك : (ومن أحسن الآراء ما كان يفعل مع أجناد . فانه كان إذا توفي أحد هم وخلف ولدا أقر الاقطاع عليه . فان كان كبيرا استبد بنفسه ، وان كان صغيرا رتب معه رجلا عاقلا يثق اليه ، فيتولى أمره الى ان يكبر . فكان الأجناد يقولون هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد ، فنحن نقاتل عليها . وكان ذلك سببا عظيما من الأسباب الموجبة للصبر في المشاهد والحروب) (٥) . واطافة الى ذلك فانه لم يكن يكسل الجند الى الأمراء ، بل يتولا هم بنفسه وبياسر خيولهم وسلاحهم ، مخافة أن

-
- ١ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ص ٤٣ - ابن الاثير : تاريخ الأتابكة ص ٧٧
 - ٢ - ابن الاثير : المصدر السابق ص ١٦٩
 - ٣ - ابن مماتي : المصدر السابق ص ٣٦٦
 - ٤ - ابن مماتي : المصدر السابق ص ٢٣٢ - ٢٣٣
 - ٥ - ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ص ٣٠

أن يقتصر الأمراء في حقهم ويقول : نحن في كل وقت في النفي ، فإذا لم يكن
أجنادنا كاملي العدة دخل الوهن على الاسلام) (١) .

كان الديوان يشرف على تنفيذ الخدمات المترتبة على الأمير المقطع
للسلطان سيده كما كان يثبت أسماء أجناد كل أمير وسلاحهم خوفاً من
حرص بعض الأمراء وشده أن يحمله على أن يقتصر على بعض ما هو مقرر عليه
من العدد (٢) .

وكان التقاعس في المعركة والاحجام عن التضحية يستوجب نزع الاقطاع
من المقطع ، والأمثلة على هذا كثيرة . ولنا فيما أورد ابن الاثير (٣) نسي
حدثه عن الحملة الصليبية الثانية ، وحين فكر بعض الأمراء بالعودة خوفاً
من الخطر الذي يحيق بهم ، نهض شرف الدين بزغش أحد أمراء نورالدين ،
وصاحب شقيف منها إلى هذه النقطة التي دفعت الشجاع إلى زيادة اقدامه ،
والمحجم إلى التفكير والتبصر في نتيجة فواره فقال : (من يخاف القتال
والأسر فلا يخدم الملوك هبل يكون في بيته مع امرأته . والله لكم عدونا إلى
نورالدين من غير غلبة ولا بلاد نعد رقيه ليأخذنا مالنا من اقطاع وجامكية ،
وليعدون علينا بجميع ما أخذناه منذ خد مناه إلى يومنا هذا . ويقول :
تأخذون أموال المسلمين وتفرون من عدوهم) .

اهتم الزنكيون بتنظيم جيوشهم وسرعة وصول أخبار عدوهم ، ومعرفة
تحركاتهم . لقرب اراضيهم منهم . كما حرصوا على حفظ أسرارهم العسكرية .
وقد وصف ابوشامة (٤) عماد الدين زنكي بذلك فقال : (ومن أحسن آرائه أنه

١ - ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ص ٣٠ - ٣١ - ابن الاثير : تاريخ

الأنباكة ص ١٦٩

٢ - ابوشامة : المصدر السابق ، جز ١ ص ٤٤

٣ - الكامل في التاريخ ، جز ١١ ص ٣٢

٤ - ابوشامة : المصدر السابق ، جز ١ ص ٤٣

كان شديد العناية بأخبار الأطراف ، وما يجرى لأصحابها حتى في خلوتهم ، ولا سيما دركاه (بلاط) السلطان (١) . وكان يغرّم على ذلك المال الجزيل . فكان يطلع ويكتب إليه بكل ما يفعله السلطان في ليله ونهاره من حرب وسلم وهزل وجد وغير ذلك . فكان يصل إليه كل يوم من عيونه عدة قاصدين . وكان مع اشتغاله بالأمر الكبار من أمور الدولة لا يهمل الاطلاع على الصغير . وكان يقول : اذا لم يعرف الصغير ليمنع ، صار كبيرا . وكان لا يمكن رسول ملك يعبر في بلاد غير أمره ، وانما استأذنه رسول في العبور في بلاد . ان له ، وأرسل إليه من يسيره ، ولا يتركه يجتمع بأحد من الرعية ولا غيرهم . فكان الرسول يدخل بلاد ويخرج منها ولا يعلم من أحوالها شيئا .

لم يكن نور الدين يقل عن أبيه اهتماما بسرعة وصول الأخبار ، فاستخدم من أجل ذلك الحمام الزاجل ، وأجرى الجرايات لها ولعربها . وجعل له في كل ثغر رجال مرتبون ومعهم من حمام المدينة التي تبادرهم ، فاذا رأوا أو سمعوا أمرا كتبوه لوقت وعلقوه على الطائر وسرحوه الى المدينة التي هو منها من ساعته ، فتنقل من الرقعة الى طائر آخر من البلد الذي يجاورهم فسي الجهة التي فيها نور الدين ، وهكذا الى ان تصل الأخبار اليه بسرعة كبيرة . وضمم بذلك هجمات الأعداء المفاجئة وغد راتهم . وقد وضع لنا ذلك ابن الاثير (٢) فيما كتبه : (ويشي ايضا الأبراج على الطرق وبين بلاد المسلمين والفرنج ، وجعل فيها من يحفظها ومعهم الطيور الهوادي . فاذا رأوا من العدو أحدا أرسلوا الطيور . فأخذ الناس حذرهم واحتاطوا لأنفسهم ، فلا يبلغ العدو منهم غرضا . وكان هذا من أطف الفكر وأكثرها نفعاً (٣) .

١ - ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٠٢ حاشية ١

٢ - ابن الاثير : تاريخ الاتابكة ص ١٧١

كما وجه نورالدين اهتمامه الى تحصين المدن الشامية لتبقى حصينة في وجه الصليبيين ، ونهض لإعادة هذا التحصين في سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م اثر خراب الأسوار بفعل الزلازل . وكان يقف مشرفا على بنائها ليستعجل الفعلة والبنائين . ولم يزل كذلك حتى أحكم أسوار كل من بعلبك وحمص وحمص وباريس وحلب ودمشق (١) .

بدا تشكيل الجيش الأيوبي منذ حملة شيركوه الثالثة على مصر . حيث اصطحب معه اليها النبي فارس من الجند الذين اختارهم من معسكره سيد نورالدين في الشام (٢) . ومن جندهم وكانوا حوالي سعة آلاف فارس من التركمان جعلهم تحت أمرة عين الدولة الياروقى (٣) . ويمكن ان يضاف الى هذا العدد عساكر شيركوه الخاصة باعتباره صاحب اقطاع حمص ، وكانوا يتألفون من خمسمائة مملوك كردى (٤) ، اضافة الى أجناد فيها . وبهذا يمكن القول أن جيش نورالدين المرسل الى مصر بقيادة شيركوه كان يتألف من حوالي تسعة آلاف جندي . وقد شكل هؤلاء الدفعة الأولى . وحين تولى صلاح الدين الوزارة للخلافة الفاطمية وصلته امدادات من نورالدين ، وشكلت هذه القوات نواة الجيش الذي اعتمد عليه صلاح الدين في أعماله العسكرية . ويبدو أن عدد جيش صلاح الدين وصل في سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م الى اثني عشر الف من الفرسان هذا غلمانهم ، ذكرهم لنا المقرئى (٥) حين ذكر العرض العسكرى الذى أقامه

١ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٨٤ - ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ، ص ٢١٨ و ص ٣٥٤ .

٢ - ابن الاثير : تاريخ الأتابكة ، ص ٢٤٩ .

٣ - C.Cahen:La Syrie du Nurd.,Paris 1940.,p 378

- العريني : المرجع السابق ص ١٥٠

٤ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٧٣

٥ - المقرئى : الخطط ، جزء ١ ، ص ١٧٤

صلاح الدين في السنة المذكورة . على ان الجيش الأيوبي لم يظل على حال واحد من حيث الكثرة العددية طوال العصر الأيوبي . فقد وصل هذا العدد في سنة ٥٧٧هـ / ١١٨١م الى ثمانية آلاف وست مائة وأربعين فارسا بينهم مائة واحد عشر اميرا ويضاف اليهم ستة آلاف وتسعمائة وست وستين وسبعون طواشيا و خمسمائة وثلاث وخمسون اقرغلامية ، ثم انخفض هذا العدد بعد انتهاء مرحلة الجهاد الصلاحي ، وعقد صلح الرملة سنة ٥٨٧هـ / ١١٩١م ، وعاد ثانية الى الازدياد وارتفعت نفقاته في عهد السلطان العادل ومن ثم الكامل حين هددت مصر الحملة الصليبية الخامسة (١) .

ويمكن القول بأن بنية الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين بقيت كما كانت في عهد نورالدين زنكي مع غالبية عنصر الأكراد على الجيش . وذلك لأن التركمان الذين كانوا في جيش أسد الدين شيركوه انسحب غالبيتهم مسع فرسانهم احتجاجا على تعيين صلاح الدين في منصب الوزارة . وعوض هذا النقص بما وصل اليه من أمراء الأيوبيين مع جندهم ، اضافة لما ضمه من مجموعات من الجنود الفاطمي من عرب كنانة ، والأمراء اصحاب الاقطاعات في عسقلان ، والذين أقاموا في دمياط عقب سقوط عسقلان في يد الصليبيين . كما ضم الى جنده الفواو ثلاثمائة من الجنود اميين ، ثم لم يلبث ان صادر اراضيهم في الشرقية والزهمم بالانتقال الى البحيرة بسبب امعائهم في تكرار تهريب القمح الى الفرنج (٢) .

-
- ١ - عاشور : مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ، ص ١٤١
 - ٢ - انظر جب : جيوش صلاح الدين ، دراسات في حضارة الاسلام ، دار العلم للملايين ، ص ١٠٨-٣٠٥، p305 .

وكانت أشهر فرق الجيش في عهد صلاح الدين الأيوبي الأندية وهم من الفرسان الأكراد التابعين لعمه أسد الدين شيركوه ، والذين بقوا في خدمته بعد وفاته عنه . كما ألف صلاح الدين حرسا له عرفوا باسم الصلاحية ، جعلهم تحت أمره أبي الهيثم (١) .

اهتم صلاح الدين بتنظيم جيشه واقطاعه الاقطاعات ، فكان لكل من كبار الأمراء وصغارهم اقطاعات . وكانت تصرف لماليتهم جامكبه أو عطاء معين ، أو تجعل لهم حصص من احدى الاقطاعات ، ونفقات مؤن وعليق . وكان الجنود ممن لم تثبت أسماؤهم في دواوين العطاء يعرفون باسم البطلين (٢) . فقد وزع الاقطاعات منذ كان وزيرا في مصر على أهله والأمراء معه (٣) . ثم قام في سنة ٥٦٧ هـ بإبطال اقطاعات الأمراء المصريين والعربان والأرمن والعبيد السود ، وخص عسكريه بمعظم الاقطاعات (٤) . فكان نصيب والد من الاقطاع منذ وصوله الى مصره الاسكندرية ودمياط والبحيرة (٥) . وكان اقطاع البحيرة وحده يدر اربعمائة الف دينار . كما أقطع أخاه توران شاه أقاليم جنوبي الصعيد قوص واسوان وعذاب ، ووارد ها مائتي الف وستة وستين ألف دينار . ثم زاد في الاقطاع بوش وأعمال الجيزة وسمنود وغيرها (٦) . وعند ما وصل تقي الدين عمر ابن أخيه الى مصر سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧٢ م ، وكان والد صلاح الدين قد توفي ، تفرقت حوالة عساكره في النفقة على كورة البحيرة (٧) . كانت كلفة نفقات الجيش في العصر الأيوبي كبيرة . فقد وصلت نفقاته

- ١ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٧٣ - ابن الاثير : الكامل في التاريخ جزء ١١ ، ص ٣٤٤ - ٣٤٥ - Wiet: op. cit., p 305
- ٢ - جب : المرجع السابق ، ص ٩٩
- ٣ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ، ص ٣٤٤
- ٤ - حسان : التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ، ص ٢٧
- ٥ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٨٤
- ٦ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١١٢ - انظر جب : المرجع السابق ، ص ٩٨
- ٧ - جب : المرجع السابق ، ص ٩٨

الى ٦٠٠ ر ٦٧٠ دينار من مجموع المصروفات العامة البالغة ٩٠ ر ٦٥٣ ٤ دينار . وكان راتب الفارس من الطواشبة (١) في عهد صلاح الدين يتراوح بين ٧٠٠ - ١٢٠٠ دينار .

كان يرأس الجيش الأمير الكبير ، ويعتبر القائد الأعلى ، ويأتي بعده ، الطلب ، وهو الأمير المقدم الذي له علم معقود ويوق مضروب ، وعدة من مائتي فارس الى مائة فارس الى سبعين (٢) . وعلى رأس كل طلب أمير . وعند المسير الى القتال توزع الأسلحة والزود والنفقات على الجنود ، على أن يستحضر كل جندي ما يلزمه من كميات المؤن . وكانت تقام سوق للعساكر لشراء ما يلزمهم قبل الخروج الى المعارك ، يأخذون من أمرائهم رواتب الاقانات الاقطاعية المعتادة (٣) .

لم يكن صلاح الدين يخرج كافة قواته المرابطة في مصر لمساعدته في حروبه في الشام ، بل كان يترك ما لا يقل عن نصف العسكر فيها لحفظ ثغورها . التي جانب انه استطاع بهذه الطريقة أن يبقي في ساحة المعركة مددا من الجنود المستعد للقتال ، وأن يعيد من أنهمكهم القتال للاستراحة والتجهز من جديد في مصر (٤) .

كما اهتم صلاح الدين ايضا بتحصين مصر فاصمتها وثغورها وتقويتها لتكون أكثر قدرة على الدفاع عن نفسها . ولهذا أمر ببناء سور ضخيم كبير يحيط بالقاهرة والقلعة والغسطاق ، يبدأ شمالا عند قلعة المقس المطلة على

١ - لا تعني هذ والكلمة هنا الخصى بل تعني الفارس الذي ينتمي الى الطبقة الا على علي حين ان الطبقة الا د نى عرفت باسم القراغلامية . انظر جب ص ١١٥ حاشية ٣١ - ٣٢

٢ - انظر جب : المرجع السابق ص ١٠٠

٣ - عاشور : مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ١٤٢

٤ - جب : المرجع السابق ، ص ١٠٣

النيل • وينتهي عند النيل أيضا جنوب مدينة الفسطاط • وقد بني كلبه من الحجر • وعلى الرغم من أنه بدي • بينا • السور منذ سنة ٥٦٦ هـ وصلاح الدين لا يزال وزيراً للعاقد ، فإنه توفي قبل ان يتم السور ، فأكمله ابن أخيه السلطان الملك الكامل محمد • كما أمر ببناء قلعة في الوسط عند مسجد سعد الدولة على نهد من نهد جبل المقطم (١) لتشرف على الدفاع عن القاهرة وتكون مقرا لحكمها • وقد بدأ في بنائها في سنة ٥٧٢ هـ / ١١٧٦ - ١١٧٧ م ، وسخر فيه عددا كبيرا من أسرى الفرنج في حروبه المختلفة • وفي سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ - ١١٨٣ م لم يكن بناؤها قد تم • إذ لم تنته الا في عهد الكامل محمد الذي كان اول من اتخذها سكنا ومقرا لحكمه (٢) • كما نهض بعمارة قلعة تنيس واسوارها ، ورم سور مياط ، وسد ما به من ثغرات ، ورتب المقاتلة في البرجين بها ، فبلغت النفقة على ذلك ألف ألف دينار (٣) • وأشرف على اصلاح سور الاسكندرية وحصنها (٤) •

كان الى جانب الجيش الأيوبي في مصر جيش آخر في الشام • وقد تكون هذا الجيش من جنود الزنكيين في كل مدينة من مدن الشام • فقد انقسمت قوات نورالدين بعد وفاته بين دمشق وحلب وبعض الامارات الصغيرة مثل حصن وحماه وحران • وقد قدر عدد الجنود بالنسبة لدمشق وحلب وحماه مع الحصون التابعة لها بألف لكل منها وخمسمائة لحصن • أما جنود الجزيرة وديار بكر والموصل فقد ر عدد جنودها بحوالي ٦٥٠٠ جندي (٥) • كما

-
- ١ - الشيال : المرجع السابق ص ٥٠
 - ٢ - الشيال : المرجع السابق ص ٥٠ - ٥١
 - ٣ - الشيال : المرجع السابق ص ٥٣
 - ٤ - الشيال المرجع السابق ، ص ٥٣
 - ٥ - حب : المرجع السابق ص ١٠٣ - ١٠٥ - الباز العريني : المرجع السابق ص ١٥٧ - ١٥٩

كانت العساكر النظامية تضم كذلك عددا من الخيالة العرب أبرزهم بنو منقذ أصحاب شيزر (١) .

كانت هذه القوات تشكل مجموع قوات الشام النظامية ، وتريد عن عشرة آلاف ، وهي غالبا من الرماة وحملة الرماح . وقد ضمت الى جانبها قوات مساعدة من الفرسان والرجالة تجمع حين الحاجة ، وغالبا ما تكون من التركمان . مثال ذلك انه قبل قيام صلاح الدين بالمهجوم على قلعة مخاضة يعقوب سنة ٥٧٤هـ / ١١٧٩م ارسل الى التركمان وعشائهم والى الأطراف يجمع منهم الجيوش . وأرسل اليهم آلاف الدنانير المصرية لتوزيعها على جموعهم . ودفع لهم نفقات مقابل خدمتهم ، باعتبارهم قوات مساعدة . وأمر باعداد كميات كبيرة من الدقيق لهم ، اضافة الى الحاجيات الأخرى (٢) . كما اعتمد على بدو بعض مناطق الشام - عدا البدو في جنوب فلسطين وشمال رقي الأردن الذين كانوا مصدر ازعاج دائم - الذين زودوه بامدادات عسكرية لمهاجمة الأعداء . وقد اعتمد عليهم في حروب سنة ٥٧٤هـ / ١١٧٩م حيث كان يسيرهم الى صيدا وبيروت ، ليعملوا على حصد غلات العدو وما يبسرح مكانه حتى يعودوا بجمالهم وأحمالهم موثقة بأثقالها . كما ساهم البدو بتقديم الخيالة والعساكر لصلاح الدين أثناء حروبه النهائية مع ريتشارد قلب الأسد على طريق القدس (٣) .

١ - جب : المرجع السابق ، ص ١٠٨

٢ - جب : المرجع السابق ، ص ١٠٧ - الباز العريني : المرجع السابق ، ص ١٦١

٣ - جب : المرجع السابق ، ص ١٠٩

وقد استخدم صلاح الدين عصر الصناعات ، كالحجارين الذين كانوا يقومون على المجانيق والعرادات . والنقابون الذين كانوا ينقبون تحت الأسوار ، وترد نسبتهم في النصوص غالبا باسم " النقابون الحلبية " . وكان الخراسانية يحاربون في الدبابات ويرد معهم اسم الجاندرية ايضا . ويمكن أن نضيف الى هؤلاء جميعا المشرفون على النار التي ترمى على أبراج العدو المحاصر (١) .

كانت الدروع والأسلحة المودعة في الزرد خائفة توزع على العساكر ، وتلبس قبل القتال مباشرة . ولذلك فإن الهجوم على حين غرة يؤدي الى مفاجأة العسكر فعلا ، وهم عزل دروعهم سلاح . ولم يكن الفرسان يستطيعون الابتعاد عن أثقالهم التي كانت تهم ميرتهم ودروعهم . وكانت ترسل احيانا جرائد (حملات صغيرة) بدون أثقال وبدون دروع ثقيلة للفرسان (٢) .

- الجيش البحري

كان الاسطول في حالة سيئة عند قيام الدولة الأيوبية بسبب الخلل الذي أصاب جميع أجهزة الدولة في أواخر العصر الفاطمي ، إضافة الى فقدان جزيرتي قبرص وكريت وعماقات ، أماميتان للأساطيل الإسلامية في شرقي المتوسط . وزاد في ضعفه استيلاء الصليبيين على معظم موانئ الشام (٣) .

أدرك صلاح الدين أهمية وجود اسطول قوى بالنسبة لموقفه من

١ - جب : المرجع السابق ، ص

٢ - جب المرجع السابق ص ١١١

٣ - المقريزي : الخطط ، جز ٢ ، ص ١٩٣ - عاشور : المرجع

السابق ، ص ١٤٢

الصليبيين ، فعهد الى ديوان الأسطول بالاشراف والانتفاق عليه . وخصص لذلك الديوان موارد هامة منها ، متحصلات اقليم الفيوم وحصيلة النطرون وايراد ديوان الزكاة (١) . كما لجأ الى احضار جميع المواد اللازمة لبناء السفن . فعقد معاهدات تجارية مع الجمهوريات الإيطالية حصل بمقتضاها على حاجته من الحديد والخشب والشمع . كما نهض بفتح القيروان فهباً له ذلك الوصول بسرعة الى غابات شمال افريقية ، ووصول كميات من الخشب اللازم لبناء السفن ، وكسب عدداً من بحارة شمال افريقية للعمل معه في الأسطول (٢) .

ولم يلبث الأسطول الأيوبي أن اصبح قوة ضاربة يحسب حسابها منذ سنة ٥٧٥ هـ قوامها ثمانون قطعة منها ستون من الشواني (٣) وعشرون طراداً (٤) . وقد استخدم نصف هذا الأسطول لحماية شواطئ مصر والدفاع عنها ، ونصفها الاخر في مهاجمة الصليبيين في موانئهم في الشام (٥) وأخذ صلاح الدين يشجع الناس على الخدمة في الأسطول ، فرفع راتب البحارة في سنة ٥٦٨ هـ / ١١٧٢ م نحو ٢٠٪ فأصبح $\frac{٣}{٤}$ الدينار بعد ان كان $\frac{٥}{٨}$ الدينار (٦) .

-
- ١ - المقرئى : الخطط ، جز ٢ ، ص ١٩٤ - عاشور : المرجع السابق ، ص ١٤٢ - ١٤٣
 - ٢ - ابن جبير : الرحلة ص ٥٨ - ٦٠ - البار العرينى : المرجع السابق ، ص ١٧٢
 - ٣ - هي المراكب الضخمة المزودة بالأبراج والقلاع التي تحمل الواحدة منها مائة وخمسين رجلاً وتصلح في حالات الهجوم والدفاع
 - ٤ - هي سفن سريعة الحركة تحمل الخيل
 - ٥ - ابوشامة : المصدر السابق ، جز ٢ ، ص ٢٢ - المقرئى : السلوك ، جز ١ ، ص ٧٢ - عاشور : المرجع السابق ، ص ١٤٣
 - ٦ - المقرئى : المصدر السابق ، جز ١ ، ص ٤٥

وقد بدأ خوف الصليبيين واضحا من نمو البحرية في عهد صلاح الدين ،
وعبر وليم الصوري عن هذه المخاوف بقوله : ان نورالدين يستطيع ان
يوقف نمو مملكتنا بما يرسله من سفن عديدة من مصر . يضاف الى ذلك
انه يستطيع بهذه السفن ان يحول دون قدوم الحجاج اليها .

وأول خدمة أداها الاسطول الأيوبي لصلاح الدين وهو يجوب البحر
المتوسط بالقرب من قبرص ، اعلام صلاح الدين عن قوة بحرية بيزنطية توجهت
الى فلسطين في سنة ٥٦٥ هـ / ١٦٩ م ليستعد لمجابتها . وبذلك
تحققت اول رسالة لاسطول صلاح الدين (١) .

ثم قام الاسطول بعمليات حربية وتوغل في البحر منذ سنة ٥٧٤ هـ /
١٧٩ م الى اطراف بيزنطة والى قبرص وكريت والسواحل الجنوبية لآسيه
الصغرى . وهبط الغزاة مرات عديدة بساحل الشام ، واتولوا خسائر
فادحة بالنشاط التجارى والحربي بهذه الجهات . كما هاجم ميناء عكا الذى
كان بيد الصليبيين . ووصف احد المؤرخين هذا الحادث قائلا : (٠٠٠)
ان ما قام به هذا الاسطول من العمل لم يقم به اسطول اسلامي في سالف
الدهر ، لا في حالة قوة الاسلام ولا ضعفه (٠) كما ساعد هذا الاسطول
على استعادة جزيرة ارواد من الصليبيين ، ومضايقة مدينة طرطوس منها (٢)
استخدم صلاح الدين اسطوله ايضا في الرد على ارناط صاحب حصن

١ - ابوشامة : المصدر السابق ، جز ١٠ ص ١٨٠ - ١٨١ - الباز
العريني : المرجع السابق ص ١٧٠

٢ - الباز العريني ، ص ١٧٤

الكرك حين انزل اسطوله في البحر الأحمر قرب ايلة سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢ م لغزو الحجاز • وشرع في مهاجمة العوانى • المصرية مثل عذاب • وقد أثبت الأسطول المصرى جدارته ، وقضى على هذا الهجوم • كما اشترك مع القوات البرية في مهاجمة بيروت • وساعد صلاح الدين بعد موقعة حطين فسي الاستيلاء على بعض العوانى • الهامة في الشام (١) •

لم ينهض خلفاء صلاح الدين بالاهتمام بالاسطول وتثميته مما ترتب عليه ضعف شأنه في عهدهم وعهد المماليك من بعدهم • وقد أوضح لنا المقريزى (٢) ذلك بقوله • (فلما مات السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب استمر الحال في الاسطول قليلا ، ثم قل الاهتمام به ، وصار لا يفكر في أمره الا عند الحاجة اليه • فإذ ادعت الضرورة الى تجهيزه طلب لسبب الرجال ، وقبض عليهم من الطرقات ، وقيدوا في السلاسل نهارا وسجنوا فسي الليل حتى لا يهربوا ، ولا يصرف لهم الا شي • قليل من الخبز ونحوه ، وربما أقاموا الأيام بغير شي • كما يفعل بالأسرى من العدو • فصارت خدمة الاسطول غارا يسب به الرجال • وإذا قيل لرجل يا اسطولي غضب غضبا شديدا بعدما كان خدام الاسطول يقال لهم المجاهدين في سبيل الله ، والغزاة في اعداء الله ، ويتبرك الناس بدعائهم) •

وقد أحسن سلاطين الأيوبيين الأخيرين وعلى رأسهم الصالح نجم الدين أيوب بأهمية الاسطول بعد ان تعرض للهجمة الصليبية السابعة

١ - عاشور : المرجع السابق ص ١٤٣

٢ - الخطط ، جز ٢ ، ص ١٩٤

سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م ، فترك لابنه وصية يذكر له فيها ضرورة الاهتمام
بالاسطول الذي اعتبره احد جناحي الاسلام ، وذلك بضرورة زيادة مرتبات
رجالها ، فيأتون من كل فج عميق (١) .

عانى الجيش في العهد الأيوبي من نقاط ضعف على رأسها فقد ان
الوحدة بين عناصره ، ان تكون من جماعات متنافسة عصبيا ، فقد اعتبر
الأتراك أنفسهم أسياداً والأكراد عبيد هم انتزعوا منهم الأمانة والسيادة ،
وقد بدأ ذلك واضحا حين زحفت عساكر الموصل ضد صلاح الدين اول مرة
سنة ٥٧١هـ / ١١٧٥م . فقد حقره وسخروا منه قائلين : (هذا كلسب
يعوى على سيده) . ثم قال له أحد الموصليين من عرفاء الجيش وهو مساعد
في ركوب حصانه اثناء الدفاع عن القدس : (ما تبالي يا ابن أيوب أي موتة
تموت ، بركبك ملك سلجوقي ، وابن اتابك زنكي) (٢) .

كما تعصبت جماعات الجيش على أساس التبعية لأئمة من الأمراء أو
لسلطان من السلاطين بشكل خاص . ان شعر هؤلاء بأن مكانتهم
تنقصه بمرتبة سلطانهم لتحل مكانهم جماعة السلطان الجديد . ولذلك
تكتلت كل جماعة دفاعا عن مصالحها ، وقد أسهم تعصب هذه الكتل
في الاضطرابات التي تلت وفاة صلاح الدين . ومن هذه الفرق
المسماة باسماء أسيادها الأسيدي والصلاحي والعدالية والكامليدية
والأشرفية .

١ - عاشور : المرجع السابق ، ص ١٤٤ - ١٤٥

٢ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جز ١٢ ، ص ٥٠

واضافة الى ذلك فاقم الاسطول البحرى عانى في عهد صلاح الدين
من قلة البحارة ،على الرغم من استخدامه للمغاربة في اسطوله (١) .

الفهرس

دراسات في تاريخ العصر الأيوبي

الفصل الأول

الحملة الصليبية الأولى وتأسيس الإمارات الأربع

تمهيد : الأوضاع العامة في العالم العربي الاسلامي قبل وصول الحملة الصليبية الأولى :

- ١ - الخلافة العباسية
- ٢ - السلاجقة
- ٣ - تمزق بلاد الشام بين السلاجقة والفاطميين
- ٤ - الخلافة الفاطمية
- ٥ - الأوضاع العامة في آسيا الصغرى

طابع الحملات الصليبية وأسبابها

الحملة الصليبية الأولى

- ١ - بنية الحملة
- ٢ - تأسيس الإمارات الأربع

- أ - إمارة الرها (٤٩١-٥٣٩ هـ)
- ب - إمارة انطاكية (٤٩١-٦٦٦ هـ)
- ج - إمارة بيت المقدس (٤٩٣-٥٨٣ هـ)
- د - إمارة طرابلس (٥٠٣-٦٨٨ هـ)

الفصل الثاني

الزنكيون وتوحيد مصر والشام ، وموقفهم من الصليبيين

تمهيد

الدولة الزنكية وتأسيسها

جهود عماد الدين زنكي في توحيد الجبهة الإسلامية

عماد الدين زنكي والصليبيون

١ - موقفه من صليبي انطاكية

٢ - استعادة إمارة الرها

مقتل عماد الدين زنكي

نتائج سقوط الرها - نورالدين محمود والحملة الصليبية الثانية

١ - نتائج سقوط الرها

٢ - الحملة الصليبية الثانية

أعمال نورالدين محمود زنكي

١ - نورالدين والصليبيون

٢ - محاولات نورالدين توحيد بلاد الشام تحت أمرته

أ - ضم حصص والرحبة

ب - فتح نورالدين لمدينة دمشق

٣ - نورالدين بين ضم دمشق والسيطرة على مصر

٤ - نورالدين وتوحيد مصر والشام

أ - حملة شيركوه الأولى على مصر

ب - حملة شيركوه الثانية على مصر

ج - حملة شيركوه الثالثة على مصر، ووزارة شيركوه

الفصل الثالث

الأيوبيون : أصلهم ، علاقاتهم مع الزنكيين

أصل الأيوبيين

وزارة صلاح الدين الأيوبي للعضد الفاطمي

١ - أعماله في القضاء على الثورات الداخلية

٢ - أعماله ضد الصليبيين فترة وزارته

أ - صد الصليبيين عن دمياط

ب - هجوم صلاح الدين على الصليبيين

سقوط الخلافة الفاطمية

العلاقات بين صلاح الدين ونورالدين بعد سقوط الخلافة الفاطمية

الفصل الرابع

السلطة الأيوبية

صلاح الدين بين وفاة نورالدين زنكي والحملة الصليبية الثالثة

القضاء على أتباع الفاطميين

صلاح الدين والوحدة العربية ، قيام السلطنة الأيوبية

١ - الوضع في مصر العربية ، قيام السلطنة الأيوبية

٢ - بداية عملية التوحيد

أ - ضم مدينة دمشق وحمص وحماء

ب - ضم مدينتي حلب والموصل

موقف صلاح الدين من الصليبيين قبل المعارك الكبرى
صلاح الدين والمعارك الكبرى مع الصليبيين

١ - الموقف قبل حطين

٢ - معركة حطين

٣ - موقف صلاح الدين بعد حطين

أ - فتح مدن الساحل

ب - فتح بيت المقدس

الفصل الخامس

الثكسة والحملة الصليبية الثالثة

صلاح الدين أمام أبواب صور

الحملة الصليبية الثالثة وحصار عكا

١ - حصار عكا

٢ - الحملة الصليبية الثالثة

٣ - صلاح الدين وريتشارد بعد سقوط عكا

أ - محاولة ريتشارد احتلال ساحل فلسطين

ب - محاولة ريتشارد احتلال القدس ثانية

ج - صلح الرملة

صلاح الدين بعد صلح الرملة

وفاة صلاح الدين

الفصل السادس

خلفاء صلاح الدين الأيوبي (٥٨٩-٦٣٥هـ)

التزاع بين أبناء صلاح الدين

توحيد الدولة الأيوبية تحت سلطة العادل

١ - الملك العادل والصلبيون قبل الحملة الخامسة

٢ - العادل والحملة الصليبية الخامسة

٣ - وفاة السلطان العادل وتولي الكامل مهمة الدفاع

سلطنة الكامل بين العادل

١ - الخلاف بين أفراد الأسرة الأيوبية في عهد

٢ - الحملة الصليبية السادسة

٣ - اتفاقية يافا وتسليم بيت المقدس

انحلال الدولة الأيوبية وسقوطها

١ - الخلافات بين أفراد الأسرة الأيوبية في عهد السلطان الكامل

٢ - العادل الثاني والصالح أيوب

أ - استرداد بيت المقدس في عهد الناصر داود ثم في عهد

الصالح أيوب

ب - الصالح أيوب والخوارزمية

ج - الحملة الصليبية السابعة

سقوط الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك

الفصل السابع
دور الزنكيين والأيوبيين الحضاري

١ - الحياة العلمية الفكرية

- اسباب بناء المدارس
- المؤسسات التعليمية
- أ - المدارس
- ب - المساجد
- ح - الأربطة والخوانق
- التدريس
- أعضاء الهيئة التعليمية
- أ - المدرسون
- ب - المعيدون
- ح - الطلاب
- ثقافة العصر العامة
- المدارس المحدثة في عهد الدولة الزنكية والأيوبية

٢ - الحياة الاقتصادية

- الزراعة
- الصناعة
- التجارة
- النقود

٣ - الحياة الاجتماعية

٤ - الجيش البرى والبحرى

- الجيش البرى

أ - فى عهد الزنكيين

ب - فى عهد الأيوبيين

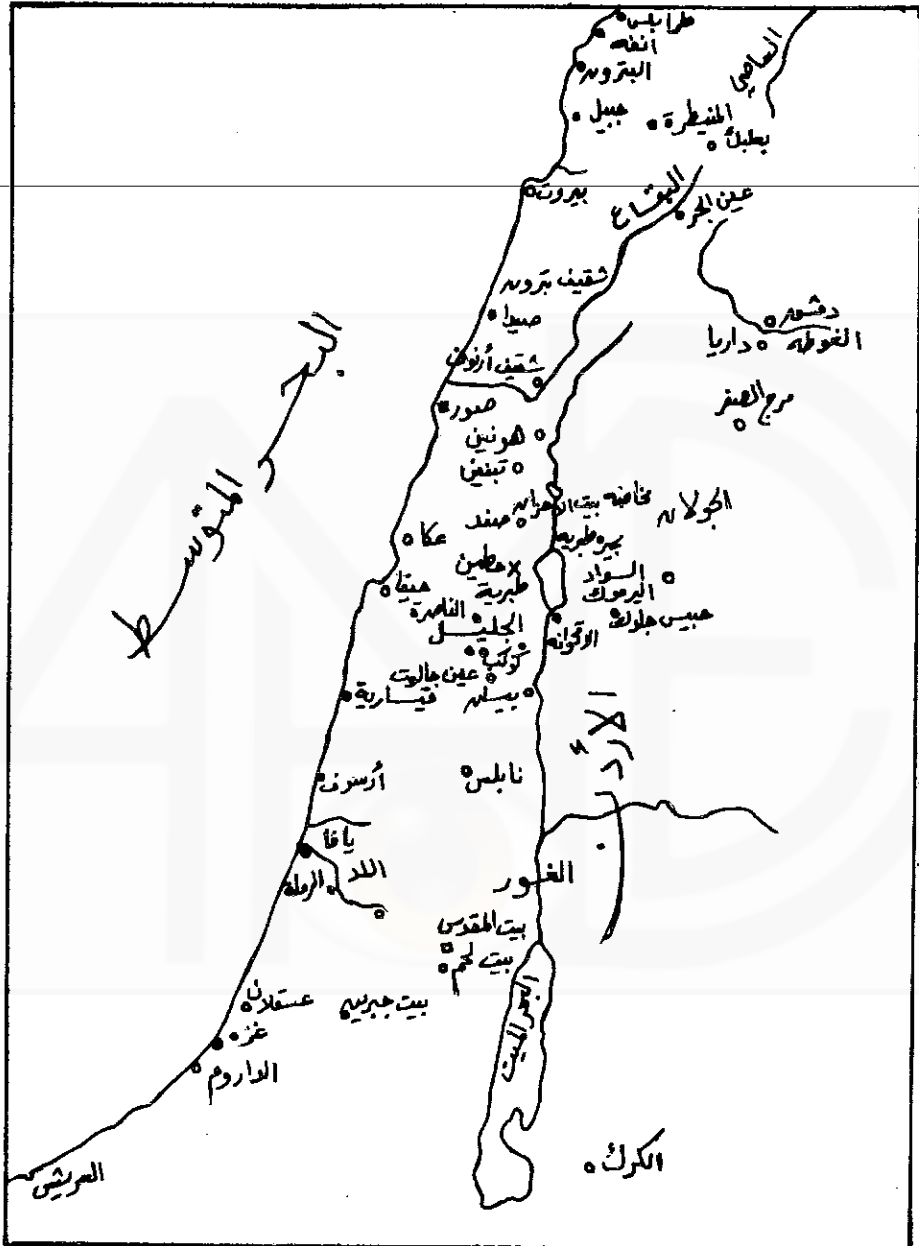
- الجيش البحرى



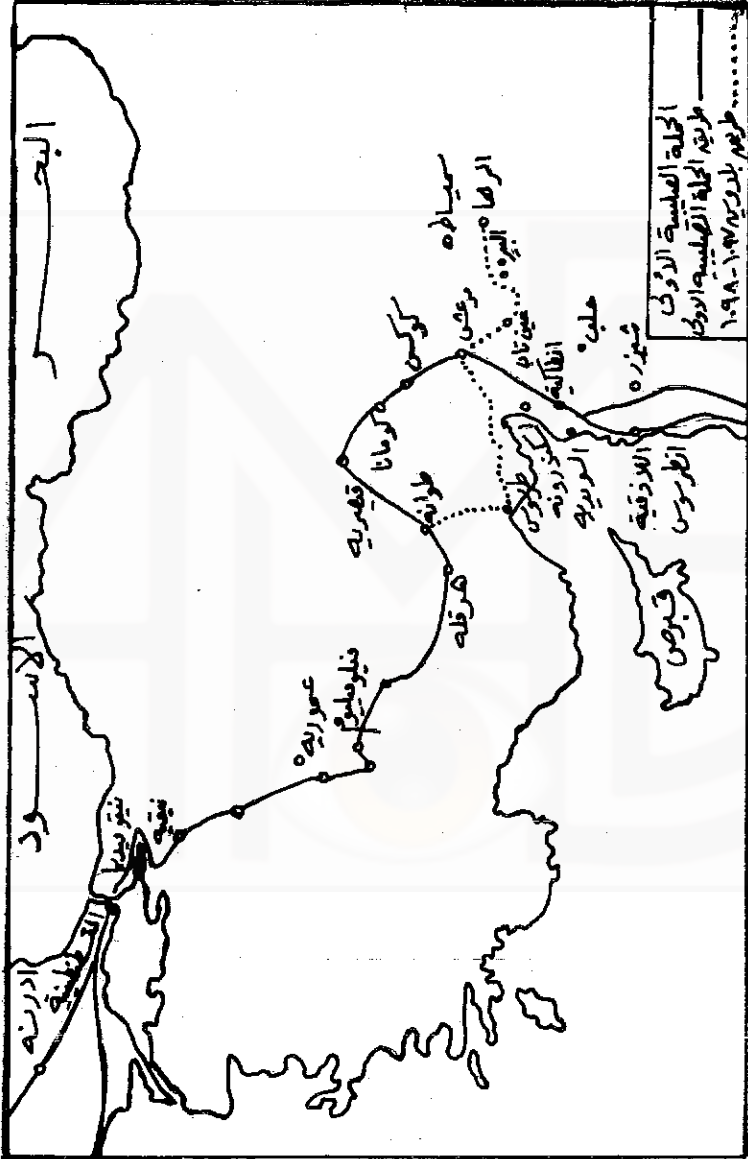
اللوحات والخرائط



شمال بلاد الشام
 خريطة رقم (1)

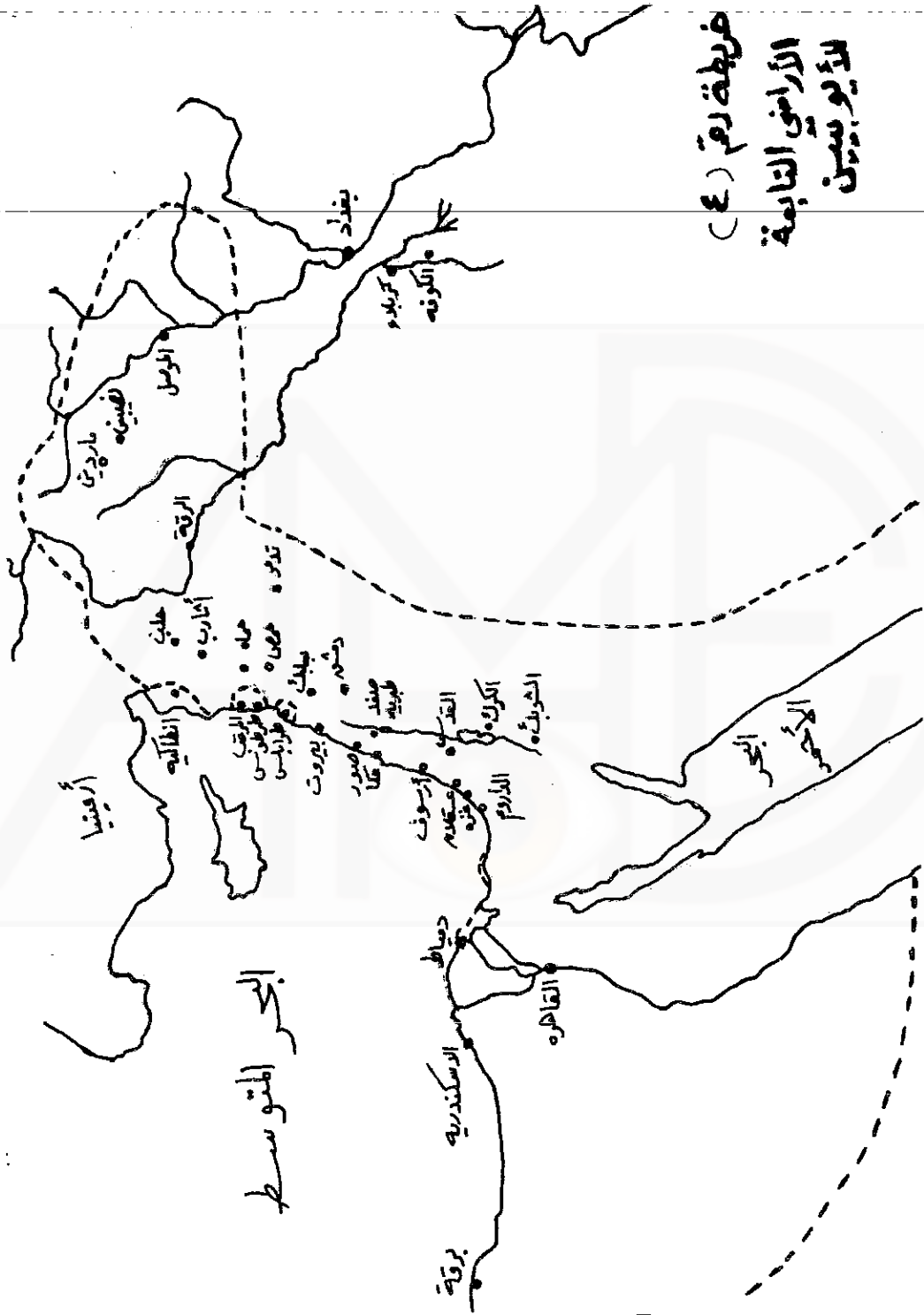


ساحل بلاد الشام الجنوبية
خريطة رقم (٢)



خريطة رقم (٣)

خريطة رقم (٤)
الأراضي التابعة
للأيوبيين



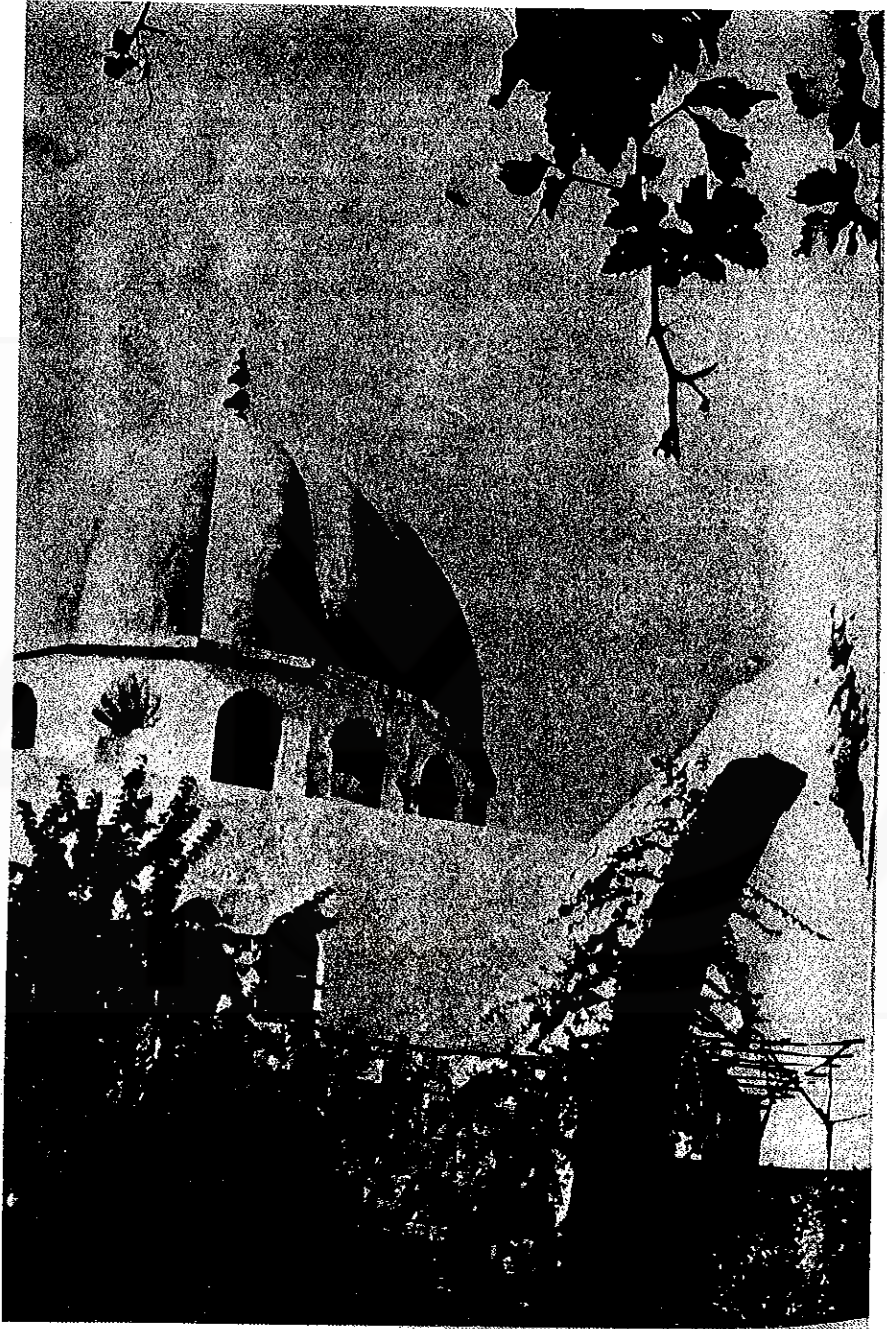


جامع الفردوس و مدرسته - الدهليز
بناء صنيعة قاتون زوج الملك الظاهر غازي



طريق الحملة العلية السابعة

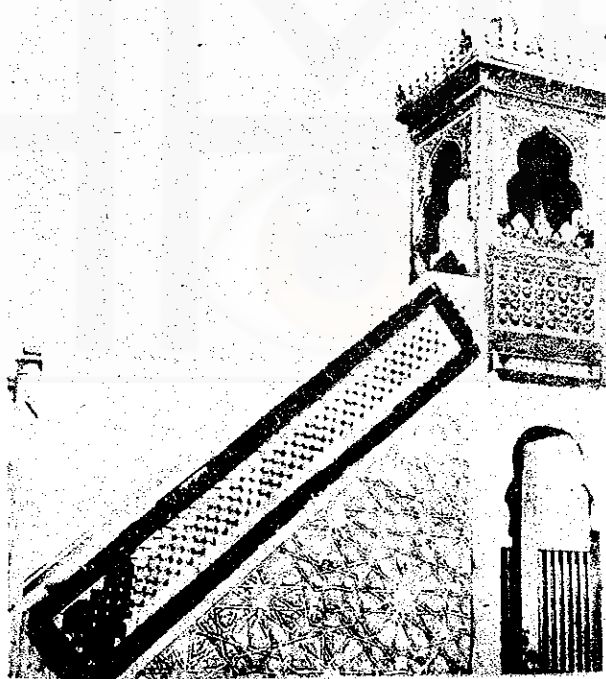
خريطة رقم ٢٦



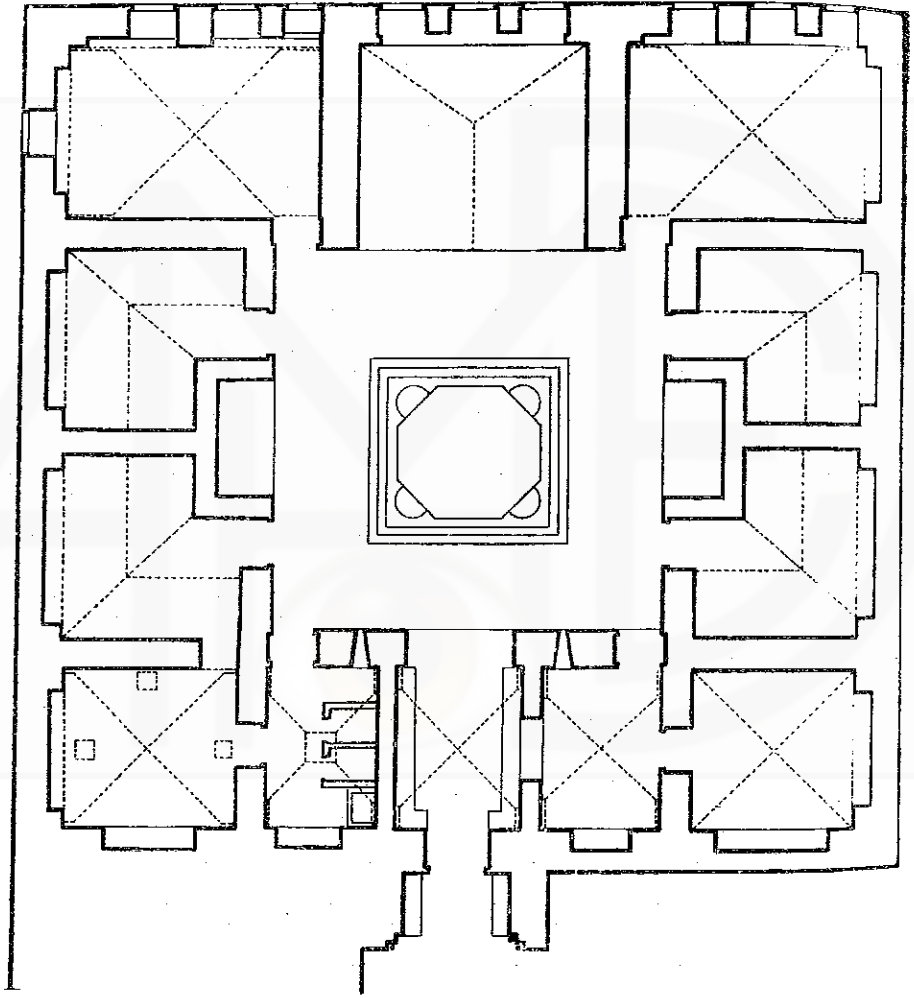
قبة السلطان صلاح الدين في دمشق .



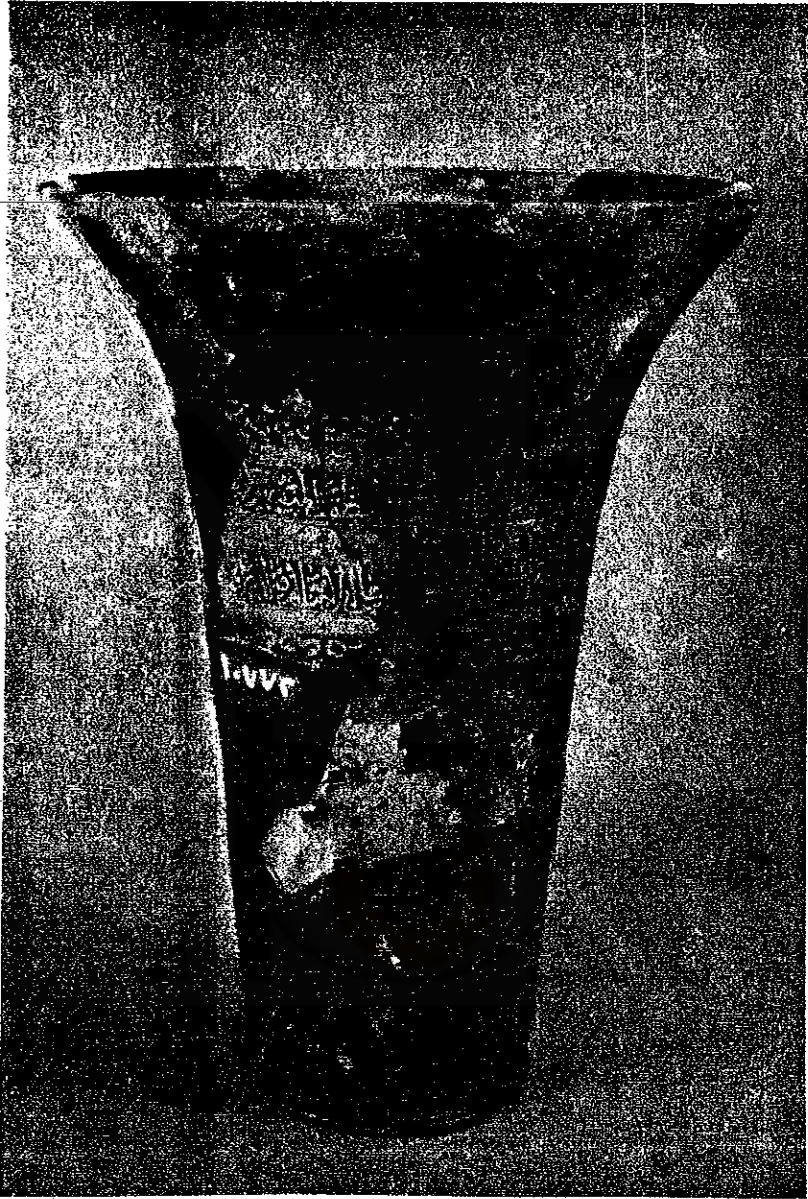
منارة الجامع الكبير في حلب .



منارة الجامع النوري في حماة .



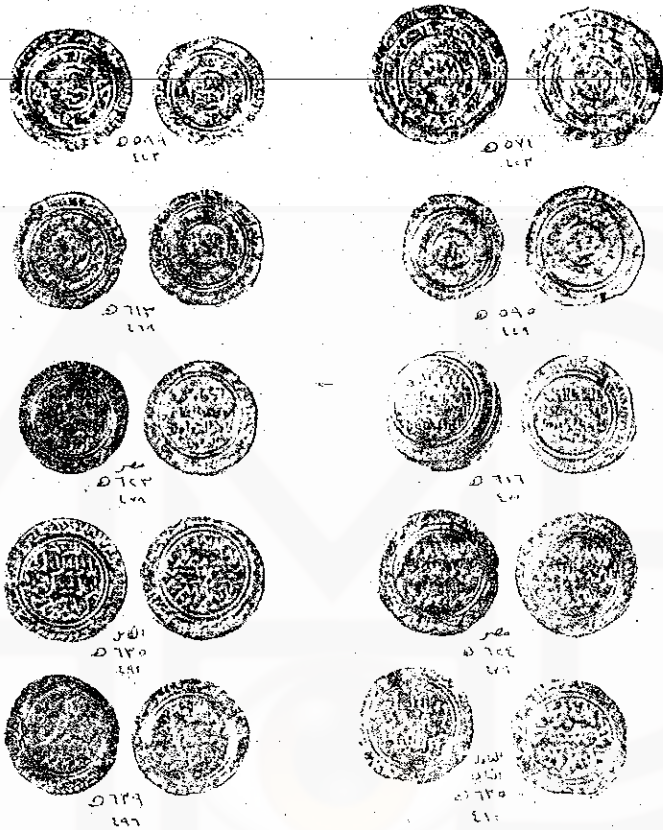
البيارساتان القيمري بدمشق، مقطع أفقي



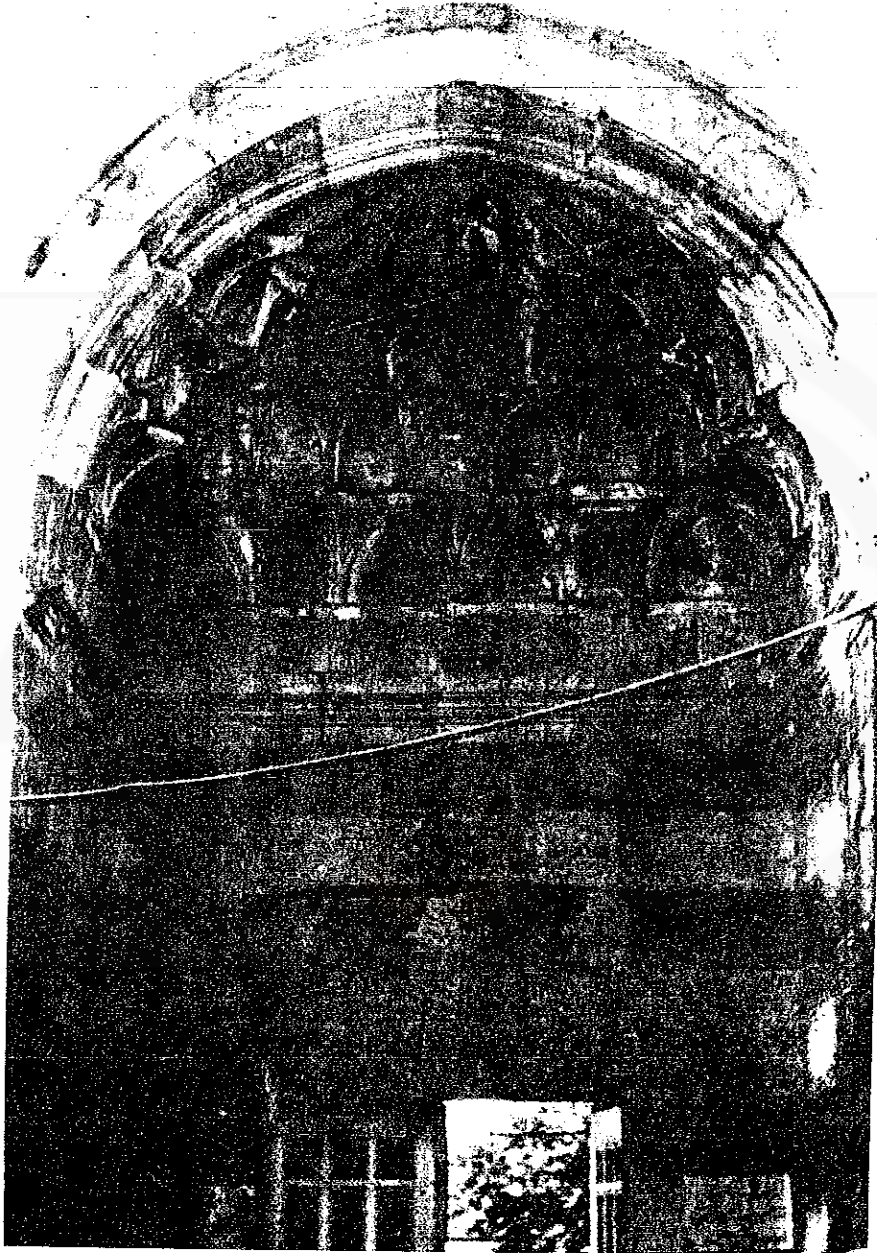
أُسن زجاجية موهة بالبناء فحل اسم الملك العادل



بوابة المدرسة العادلية الكبرى في دمشق .



نقود تعود للعصر
الأيوبي



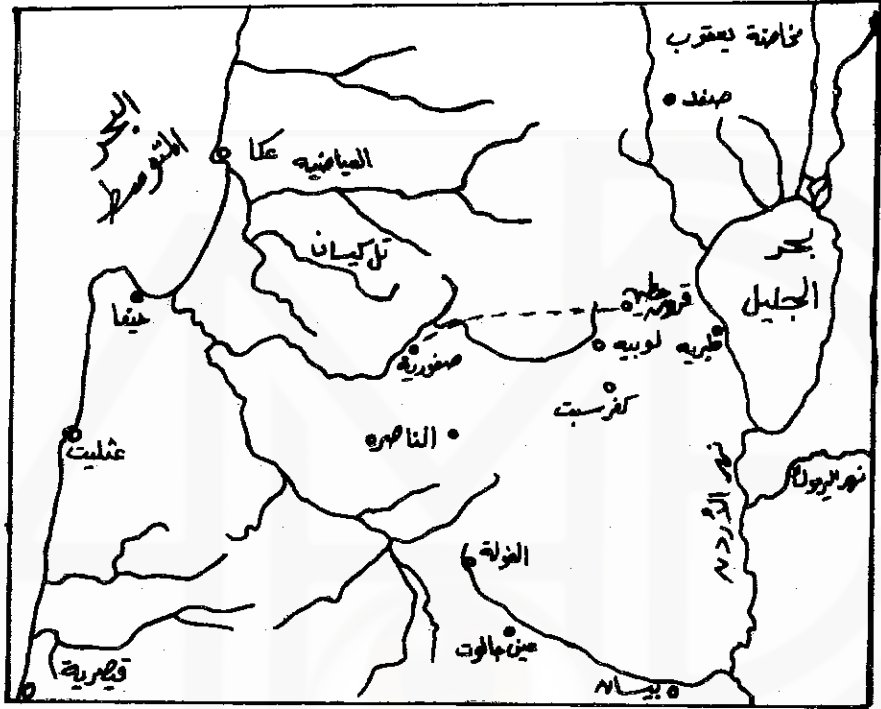
باب اليمارستان القبري في دمشق .



البيمارستان النوري في دمشق ، مشهد داخلي



البيمارستان النوري في دمشق ، الايوان الجنوبي .



مركبة عطيين
خريطة رقم (٥٠)



جزء من سلة خشبية (دمشق القرن الثالث عشر)

المصادر والمراجع

أولاً - المصادر العربية

- ٠١ ابن الاثير (ت. ٦٣) : الكامل في التاريخ ، طبعة دار صادر بيروت ١٩٦٦
- ٠٢ : التاريخ الباهر في الدولة الاتاكية ، تحقيق عبد القادر طليعات دار الكتب الحذيفة القاهرة ، ومكتبة المشني في بغداد ١٩٦٣ م
- ٠٣ الاصفهاني (الكمادات) : الفتح القسي في الفتح القدسي ، تحقيق وشرح (٥٩٧ هـ) وتقديهم محمد محمود صبيح .
- ٠٤ ابن بطوطة (ت ٧٥٦ هـ) : رحلة ابن بطوطة الساسة تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار ، حققه وقدم له علي المنتصر الكتاني ، جزآن مؤسسة الرسالة ١٩٧٥ م
- ٠٥ ابن بكرة : كشف الاسرار العلمية بدار الضرب المصرية ، تحقيق عبد الرحمن فهمي القاهرة ١٩٦٦ م .
- ٠٦ البغدادي (ت) : الافادة والاعتبار في الامور الشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، طبع حجر بالقاهرة .
- ٠٧ عبد القادر بدران : تهذيب تاريخ ابن عساكر ، دمشق ١٣٣١ هـ
- ٠٨ ابن تغري بردى () : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبعة الاتاكي ت ٨٢٤ هـ) دار الكتب المصرية .
- ٠٩ ابن جبير (ت ٦١٤ هـ) : رحلة ابن جبير ، دار التحرير للطباعة والنشر ١٩٦٨ .
- ١٠ ابن جماعة : تذكرة السامع .
- ٠١١ ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) : المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، الطبعة الاولى طبعة هيدرأباد ١٣٥٨ هـ .

- ١٢ . الحموي (ياقوت ه) : معجم البلدان ، دار صادر بيروت .
- ١٣ . معجم الادباء ودار احياء التراث العربي ، بيروت .
- ١٤ . الحنبلي (احمد بن ابراهيم : شفاء القلوب في مناقب بني ايوب تحقيق ناظم رشيد وزارة الثقافة والفنون في العراق (ت ه) ٠١٩٧٨ .
- ١٥ . الحنبلي (مجير الدين : الانس الجليل بتاريخ القدس والجليل ، جزان ، منشورات المطبعة الحيدرية ، النجف ١٣٩٩ هـ .
- ١٦ . ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) : العبروديان المبتدأ والخبر ، طبعة الاعلمي بيروت ١٩٧١ م .
- ١٧ . ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ) : وفيات الاعيان واهلها ابنا الزمان ، تحقيق احسان عباس دار صادر بيروت ١٩٧٨ م .
- ١٨ . الدواداري (ت في القرن : الدرّة المضيئة في اخبار الدولة الفاطمية ، الثامن بعد سنة ٧٣٦ هـ) تحقيق المنجد ، طبعة القاهرة ١٩٦١ م .
- ١٩ . الزرنوجي : تعليم المتعلم ، طبعة ١٨٩٧ م .
- ٢٠ . الراوندي (ت : راحة الصدور وأية السرور ، نشر وتصحيح محمد اقبال ، ليدن ١٩٢١ م .
- ٢١ . السبكي (: طبقات الشافعية الكبرى ، القاهرة ١٣٢٤ هـ .
- ٢٢ . معبد النعم ومبيد النقم ، ليدن ١٩٠٨ م .
- ٢٣ . أبو شامة (شهاب الدين : تاريخ الروستين في اخبار الفوليين ، دار الجيل بيروت . (ت ٦٦٥ هـ)
- ٢٤ . الذيل على الروستين ، دار الجيل بيروت .
- ٢٥ . ابن شداد (بهاء الدين ت : النوادر السلطانية والمعاسن اليوسفية ، أو سيرة صلاح الدين ، تحقيق الشبال ، طبعة ١٩٦٤ ، الدار المصرية للتأليف والنشر (٦٣٢ هـ)

٢٦. ابن شداد (عز الدين ت ٦٨٤هـ) : الاغلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، وزارة الثقافة ١٩٧٨م تحقيق عبارة.
٢٧. الشيرازي (ت) : نهاية المرتبة في طلب الحسبة ، نشر العربي ، القاهرة ١٩٤٦م
٢٨. ابن قاضي شهبه (ت ٨٥١هـ) : الكواكب الدرية في السيرة النورية ، تحقيق محمود زايد ، طبعة دار الكتاب بيروت ١٩٧١م.
٢٩. ابن الشحنة أبو الفضل محي الدين : الدر المنتخب في تاريخ مطكسة محمد بن محمد (ت ٨٩٠هـ) حلب ، بيروت ١٩٠٩م
٣٠. ابن العبري (ت ٦٨٥هـ) : تاريخ مختصر الدول ، طبعة الاباء اليسوعيين بيروت ١٨٩٠م
٣١. ابن العديم (ت ٦٦٠هـ) : زبدة الحلب في تاريخ حلب ، تحقيق سامي الدهان ، طبعة المعهد الفرنسي - دمشق ١٩٥٤م
٣٢. ابن عساكر (ت ٥٧١هـ) : التاريخ الكبير ، أو تاريخ مدينة دمشق ، تهذيب ابن بدران .
٣٣. العلمي (عبد الباسط) : مختصر تنبيه الطالب ، وارشاد الدارس تحقيق صلاح الدين المنجد ، ١٩٤٧م
٣٤. أبو الفداء (ت ٧٣٢هـ) : المختصر في أخبار البشر، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت.
٣٥. ابن القلانسي (ت ٥٥٥هـ) : تاريخ ابن القلانسي ، المسمى ذيل تاريخ دمشق - مصحوب بشذرات من تواريخ ابن الفارقي ، وسهط بن الجوزي والنهبي ، طبعة بيروت ، مطبعة الاباء اليسوعيين ١٩٠٨م

- ٣٦ . القلقشندی (ت ٨٢١هـ) :
: صحح الاعشى في صناعة الانشاء ١٤٠
جزء ١ ، المطبعة الاميرية القاہرة
٠م ١٩٤٦
- ٣٧ . ابن کثیر (ت ٧٧٤هـ) :
: البداية والنهاية في التاريخ ، مكتبة
المعارف ، بيروت طبعة ثانية ١٩٧٧م
- ٣٨ . مؤلف مجهول :
: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ،
ترجمة وتقديم حسن حبشي ، دار الفكر
العربي ١٩٥٨م
- ٣٩ . المفريزي (ت ٨٤٥هـ) :
: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والاثار
دار التحرير للطبع والنشر .
- ٤٠ :
: اغاظة الامة بكشف القمة ، نشر الشيال
وزيادة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة
والنشر ١٩٥٧م
- ٤١ :
: تماظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين
الخلفا ، طبعة المجلس الاعلى للشؤون
الاسلامية ، القاہرة ١٩٦٧م
- ٤٢ :
: السلوك لمعرفة دول الملوك ، نشر
زيادة ، القاہرة ١٩٤٣م
- ٤٣ :
: البهان والاعراب ، طبعة المحمودية
التجارية ، القاہرة ١٣٥٦هـ .
- ٤٤ . ابن ساتي :
: قوانين الدواوين ، القاہرة سنة ١٩٤٣م
- ٤٥ . ابن منقذ :
: كتاب الاعتبار ، تحرير قليب حتى ،
مطبعة جامعة برنستون ، الولايسات
المتحدة ١٩٣٠م
- ٤٦ . النعميني :
: الدارس في تاريخ المدارس ، طبعة
المجمع العلمي بدمشق .

: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، مطبعة
جامعة القاهرة ١٩٥٣ م ، وطبعة المطبعة
الاميرية ١٩٥٧ م.

٠٤٧ . ابن واصل

: النكت العصرية .

٠٤٨ . اليمني (عارة)

٢- المراجع
أ- المراجع العربية

- ٠١ باركر (آرست) : الحروب الصليبية : ترجمة الباز العريني ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة .
- ٠٢ بسدر (أحمد) : الأندلسيون والمغاربة في دمشق ، مجلة ابن عساكر في ذكرى مرور تسعمائة سنة على ولادته طبعة وزارة التعليم ، دمشق ١٩٧٩م .
- ٠٣ البراوى (راشد) : حالة مصر الاقتصادية زمن الفاطميين ، طبعة اولى القاهرة ١٩٤٨م وزارة التعليم العالي دمشق ١٩٧٩م .
- ٠٤ بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ، الامبراطورية الاسلامية وانحلالها ، ٥ أجزاء تعريب بنيه أمين فارس ومنير البعلبكي ، الطبعة الثالثة بيروت ١٩٦١م .
- ٠٥ بيطار (أمينة) : موقف أمراء العرب في الشام والعراق من الفاطميين حتى أواخر القرن الخامس الهجرى دار دمشق ١٩٨٠ .
- ٠٦ : التعليم في دمشق في القرن السادس الهجرى ، مجلة ابن عساكر وزارة التعليم العالي ١٩٧٩ .
- ٠٧ جب (هاملتون) : مآثر صلاح الدين ، دراسات في حضارة الاسلام دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧٤ .
- ٠٨ : جيوش صلاح الدين ، دراسات في حضارة الاسلام دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧٤ .
- ٠٩ الجرمانى (بيتشوف) : تحف الأبناء في تاريخ حلب الشهباء ، طبعة بيروت ١٨٨٠ .
- ٠١٠ حسان (نظير) : التاريخ الحربى المصرى في عهد صلاح الدين القاهره ١٩٥٨ .
- ٠١١ حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب ، طبعة ثالثة ١٩٦٤م مكتبة النهضة المصرية .

- ١٢ : تاريخ الاسلام السياسي ، الطبعة السابعة
القاهرة ١٩٦٥ م .
- ١٣ . حسن حبشي : الحرب الصليبية الأولى ، دار الفكر العربي ، طبعة
ثانية ١٩٥٨ م .
- ١٤ . حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ، القاهرة دار النهضة
العربية ١٩٦٣ م .
- ١٥ . حسنين (عبد النعم) : سلاجقة ايران والعراق ، مكتبة النهضة المصرية
١٩٥٩ م .
- ١٦ . حسنين (محمد ربيع) : النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين ، القاهرة ١٩٦٤ م .
- ١٧ . خليل (عماد الدين) : عماد الدين زكي : الدار العلمية بيروت ١٩٧١ م .
- ١٨ . راج (أحمد) : الوثائق العربية المحفوظة في دور الأرشيف الأوربية
أبحاث (مصر الاسلامية) الندوة الدولية لتاريخ
القاهرة .
- ١٩ . ديل (شارل) : البندقية جمهورية ارسنقراطية تعريب أحمد عزت
عبد الكريم وتوفيق اسكندر ، القاهرة ١٩٤٨ م .
- ٢٠ . زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ، ترجمة زكي
محمد حسن ، وحسن أحمد محمود بجزءان ،
مطبعة فؤاد الأول ١٩٥٢ م .
- ٢١ . زكي (نعيم) : طرق التجارة .
- ٢٢ . زكار (سهيل) : مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ، الرسالة
طبعة ١ ، ١٩٧٢ م .
- ٢٣ . زيتون (عادل) : العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في
العصور الوسطى ، طبعة دمشق ١٩٨٠ م .
- ٢٤ . رستم (أسد) : الورم في سياستهم وحضارتهم ودنياهم وثقافتهم
وصلاتهم بالعرب ، دار المكشوف بيروت ١٩٥٦ م .
- ٢٥ . رنسيان (مستبفن) : تاريخ الحروب الصليبية نشر وتوزيع دار الثقافة
بيروت ١٩٦٧ م .

٢٦. رينان (أرست) : الحروب الصليبية ، ترجمة الهاز العرينسي ،
مكتبة النهضة المصرية .
٢٧. سرور (محمد جمال الدين) : النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب ، دار الفكر
العربي مصر ١٩٦٤ الطبعة الرابعة .
٢٨. : تاريخ الحضارة الاسلامية في الشرق من عهد
نفوذ الاتراك الى منتصف القرن الخامس الهجري
الطبعة الثانية ١٩٦٧ م ، دار الفكر العربي ،
مصر .
٢٩. : سياسة الفاطميين الخارجية ، طبعة دار الفكر
العربي ١٩٦٧ م .
٣٠. : النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق في القرنين
الرابع والخامس الهجريين ، طبعة ثانية القاهرة
١٩٥٩ م .
٣١. سعد (سامي سلطان) : اسس العلاقات الاقتصادية بين الشرق الأدنى
والجمهوريات الإيطالية ، رسالة ماجستير ،
القاهرة ١٩٥٨ .
٣٢. شليسي (أحمد) : تاريخ التربية الاسلامية ، مكتبة النهضة المصرية
الطبعة الثالثة ١٩٦٦ .
٣٣. الشيال (جمال الدين) : تاريخ مصر الاسلامية في العصور الايوبية والمملوكية
الجزء الثاني ، دار المعارف ١٩٦٧ .
٣٤. صبرة (عفاف) : علاقة البندقية بمصر والشام من بداية القرن الثاني
عشر ، حتى نهاية القرن الرابع عشر ، رسالة لسم
تنشر ١٩٧٧ .
٣٥. الطباخ (محمد راغب) : أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، ٧ أجزاء ،
المطبعة العلمية في مدينة حلب ، الطبعة الأولى
١٩٤٢ م .
٣٦. عاشور (سعيد عبد الفتاح) : أضواء جديدة على ابن عساكر والمجتمع الدمشقي
في عصر ابن عساكر .

- ٠٣٧ : أوروبا في العصور الوسطى ، التاريخ السياسي ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٥ م ، الطبعة السادسة .
- ٠٣٨ : الحركة الصليبية ، مكتبة الانجلو المصرية ، طبعة ثانية ، ١٩٧١ م .
- ٠٣٩ : مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ، طبعة دار النهضة ، بيروت ١٩٧٢ م .
- ٠٤٠ : قبرص والحرب الصليبية ، ط ١٩٦٠ .
- ٠٤١ : عبد الغني محمود عبد العاطي : التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك ، رسالة ماجستير ، القاهرة .
- ٠٤٢ : المريني (الباز) : مصر في عصر الأيوبيين ، مطبعة الليلاني الصغير ، ١٩٦٠ م .
- ٠٤٣ : محمد أبو الفرج العشي : القاهرة على النقود العربية الإسلامية ، الندوة الدولية لتاريخ القاهرة .
- ٠٤٤ : علام (نعمت اسماعيل) : فنون الشرق الاوسط في العصور الإسلامية ، دار المعارف .
- ٠٤٥ : كامل الفزى : نهر الذهب في تاريخ حلب ، ٣ أجزاء ، طبعة المطبعة الماسونية .
- ٠٤٦ : القاسمي (ظافر) : المرأة في تاريخ ابن عساكر ، مجلة ابن عساكر .
- ٠٤٧ : القوصي (عطية) : تجارة مصر عبر البحر الأحمر ، منذ فجر الاسلام حتى سقوط الخلافة العباسية ، رسالة لم تطبع .
- ٠٤٨ : كاهن (كلود) : تجار القاهرة الأجنبيون في عهد الفاطميين والأيوبيين الندوة الدولية لتاريخ القاهرة .
- ٠٤٩ : كحالة (عمرضا) : دراسات اجتماعية في العصور الإسلامية ، المطبعة التعاونية دمشق ١٩٧٣ م .

٥٠. كرد علي (محمد) : خطط الشام ، دار العلم للعلماء ، بيروت .
٥١. مرزوق (محمد عبد العزيز) : الزخرفة المنسوجة في الأقمشة الفاطمية ، القاهرة
١٩٤٢ م .
٥٢. ميتسر (آدم) : الحفارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، الطبعة
الثالثة ١٩٥٧ م .
٥٣. محمد حمدي المناوي : الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي .
٥٤. النقاش (زكي) : العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين
العرب والفرنجة خلال الحروب الصليبية ، دار
الكتاب اللبناني ، ١٩٥٨ م .

ب - المراجع الأجنبية

REFERENCES

1. Baldwin: Crusades. Philadelphia, 1955
2. Cohen(C): La Syrie du Nord à L'Epoque des Croisades., Paris 1940
3. Encyclopedia of Islam.
4. Heyd: History du Commerce du Levant au Moyen Ages., Leipzig 1923.
5. King (E.J) : The Knights Hospitallers in The Holy Land., London, 1931
6. Lane Poole(S): Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem. Beirut, 1964
7. The History of Egypt in the Middle Ages. London, 1901.
8. Catalogue of the Collection of Arabic Coins preserved in the Khedivial Library at Cairo., London, 1897.
9. Muir(W): The Caliphate : Its Rise Decline and Fall., Beirut Khayats, 1963
10. Stevenson (W.B): The Crusaders in the East East (Cambridge 1907)
11. Wiet(G): L'Egypte Arabe., Paris 1937.



* ١٦٢٠

صدر باشراف لجنة الانجاز

سعر المبيع للطلاب (٢٥) ل.س